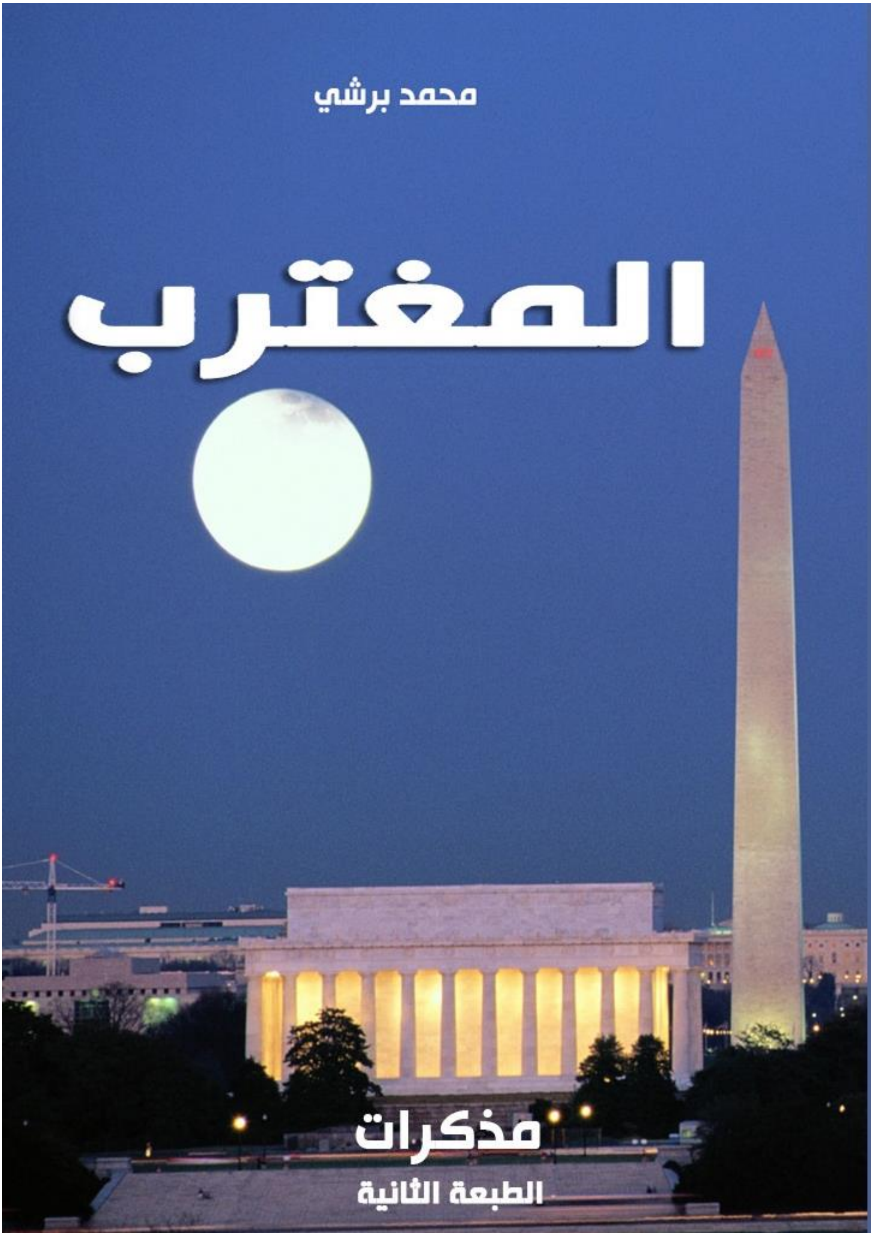

محمد برشي
المغترب
مذكرات
الطبعة الثانية

المغترب

مذكرات

مُحَمَّد برشي

العنوان : المغترب

تأليف : محمد برشي

الطبعة الثانية : يوليوز 2017

توضيب وإخراج : عتمان واسو

تصميم الغلاف : الحسين أوزاگي

الإيداع القانوني : 2016MO0036

ردمك : 978-9954-567-28-9

شكر خاص ل :

د. علي مازح

حميدي أحمد

المحفوظ بيقولان

تقديم

الهجرة فطرة تسكن وجدان كل إنسان، سواء كانت سياحية لإشباع فضول حب الاستطلاع، أو بحثا عن مستوى عيش أفضل في أمكنة تفوق فيها فرص تحقيق ذلك الحلم ما هو متاح منها في البلد الأصلي للمهاجر. وبديهي أن تكون هجرة السياحة والاستطلاع متعة في حدّ ذاتها، ما دامت مرتبطة برغبة القائم بها وحريته في اختيار المكان والوجهة، بل ويتحكم في مدتها كما شاء. في المقابل، تكون هجرة البحث عن سبل تحسين مستوى المعيشة مغامرة بكل المقاييس، وقسرية في أحيان كثيرة، إذ لا ترتبط باختيار من يضطر إليها أولا، ولكونها، غير واضحة النتائج، لا بل إنها تبدأ بمصير مجهول يكتشف المهاجر تفاصيله عندما يستقر به المقام في بلاد المهاجر إليها ثانيا.

الهجرة بعيدا عن الوطن من أجل مستوى عيش أفضل حلم أتقاسمه مع معظم الشباب المغربي، المستعد لبذل كل ما في وسعه للهروب من آفاق مسدودة في وطن لا يغادره المرء إلا مكرها. وقد تحقق لي هذا الحلم الذي ظل يراودني سنين طويلة، حيث لعب الحظ، وقبله الصدفة، دورهما في رحيلي نحو بلد ما كنت أتصور يوما أنه سيحتضنني بعدما كانت أمنيتي لا يتجاوز عتبة الحدود الفرنسية شمالاً!. وقد كانت الأيام الأولى لوصولي إلى الديار الامريكية محكّا حقيقياً لاكتشاف مدى مطابقة الحلم للواقع، وأيضاً لاكتشاف مدى أحقية هذا البلد بكل تلك الأحلام والآمال التي علقتها عليه.

الحقيقة، والحق يقال ولو كان مُرًّا، أن الهوّة سحيقة بين الحلم والحقيقة، فالهجرة، وإن كانت تمثل طوق النجاة من حياة البطالة وقلة فرص الشغل في الوطن، فهي تحدٍّ كبير يرغم المهاجر على تحمل مسؤوليات جسام تجعله يفاضل بين العودة من حيث أتى، أو إرغام نفسه على التكيّف مع ظروف المكان والزمان. ففي بلد كأمريكا، يفضّل المهاجر رفع التحدّي على العودة من حيث أتى، من باب أن المغامرة على صعوبتها في بلد الفرص أهون

من العودة إلى وطن خبر واختبر الحياة فيه ولا حاجة له في من يشرح له صعوبة ضمان لقمة العيش فيه، فما باله بالعيش حياة الرفاهة والخوض في نعيم الكماليات.

لن أنكر صعوبة تجربة الاغتراب، خصوصا في بلدٍ ناءٍ كأمريكا حيث تطول المدة بين فرص العودة لزيارة الوطن، والتي أصبحت مع استقراري في أمريكا كل الأمل الذي أعيش على وقعه صباح مساء، فلم أكن أعي قيمة الوطن حتى قادتني الظروف لأعيش خارجه، إذ تعلمت من تجربة الاغتراب أن حب الوطن لا يموت في الوجدان، كما تعلمت أن السعادة لا يحققها المال، وإن كان يُحسّن ظروف العيش ولو خارج الوطن، وفي هذه الحالة تتم التضحية بحب أرض الوطن بمغادرته مكرهاً لا مخيّراً من أجل ركوب مغامرة البحث عن حياة كريمة خارجه مادامت أواصر المغادر لوطنه لن تنقطع، ومادام يمتلك فرصاً عديدة لزيارة هذا الوطن ولو لفترات متقطعة.

عندما أزور الديار، يحدث عادة أن أصادف من معارفي كمّا هائلا من الأسئلة المتشابهة حدّ الملل حول بلاد المهجر حيث أتيت، خصوصا وأن الامر يتعلق بأمريكا، التي قيل عنها الكثير، وقليلون من أبناء المنطقة من سبقوني إليها، فكنت مرغماً على اجترار نفس الحديث مع أناس مختلفين يسألون نفس الأسئلة، وكانت فكرة الكتابة لإشباع فضول هؤلاء، واخترت أن أكتب فيه عن تجربتي في الديار الامريكية التي تجاوزت عقدا من الزمن.

وأعتقد أن تجربة اثنتي عشرة سنة من الغربة بالديار الأمريكية تحتاج ليس فقط إلى كتاب واحد بل إلى سلسلة كتب للإحاطة بكل جوانبها، غير أني، وخوفاً من الإطالة المملة، تعمدت اختيار أبرز المحطات وأكثر المواضيع استئثارا بالأهمية لأشارك أفكارها مع القارئ الكريم، لوضع من لم تتح له فرصة الزيارة أو الهجرة إلى أمريكا في صورة تقريبية للحياة في هذا البلد. وتظل تحليلاتي للكثير من الأمور والمواضيع مجرد رؤية شخصية للوقائع كما أراها من زاويتي الخاصة، والتي قد يوافقني فيها مهاجرون آخرون يعيشون بالجوار، وقد يختلفون معي،

لنسبية الرأي، وهذا طبيعي ما دام كل منا يرى الأمور من زاوية مختلفة، لهذا فكتابي هذا يبقى مجرد رأي ضمن مجموعة عديدة من الآراء المختلفة.

مواضيع الكتاب تتخللها وقائع وطرائف مضحكة وهزلية لم أتعمد أن أجعلها كذلك لأنها وقعت كما قمت بسردها تماما، وقعت لي شخصيا ولأصدقائي الذين تقاسمت معهم يوما السكن نفسه، أو سكنوا بالجوار، وبعضهم جمعتني بهم ظروف العمل. ولأنني ما زلت أعيش بالقرب منهم، أراهم دوريا، فقد تعمدت إخفاء الأسماء الحقيقية للعديد منهم تجنبا لأي إحراج قد يقع.

الكتاب في طريقة تحريره يحمل لمسة مختلفة عن ما هو مألوف في كتب سرد الأحداث، حيث جعلته يشبه في تقسيمه كتب السيرة والمذكرات الأمريكية التي تخلو من الفهارس، وتعتمد عوضا عنها على التقسيم بالأرقام يكتشف القارئ موضوع كل قسم بقراءته.

وفي الأخير أتقدم بجزيل الشكر لكل من شجعني أو ساعدني على إخراج هذا الكتاب إلى حيّز الوجود وأتمنى أن يكون في مستوى تطلعات القارئ، مثلما أرجو أن يكون مجرد تجربة أولية لكتب أخرى عساها تجد طريقها إلى القارئ إن شاء الله.

I

اقتربت الطائرة من الهبوط على مدرج مطار "دالاس واشنطن" الدولي، ولم يعد يفصلها عن أرضيته إلا بضع مئات من الأمتار، حينها بدأت تُسمع داخله "طقطقات" أحزمة السلامة بعدما سمع الركاب عبر أبواقها أمر المضيفة بضرورة ربطها، لأن الطائرة أوشكت على الهبوط.

كنت مشغولاً بمشاهدة أدق التفاصيل على أرض بلاد "العم سام " من خلال نافذة الطائرة التي كنت محظوظاً بالجلوس قربها. كانت المباني الأنيقة مترامية الأطراف ومنتشرة على شكل تجمعات تخترقها طرق عملاقة، يمر عبرها كمٌّ هائل من العربات بمختلف الأحجام. المكان يوحي أنه كان فيما مضى عبارة عن غابة قبل أن يعمّره الإنسان، حيث تظهر المساكن على شكل مستعمرات تحيط بها غابات ومروج خضراء من كل جانب. لم أنتبه إلاّ وعجلات

الطائرة ترتطمان بأرضية المدرج بعنف احتبست له أنفاس الركاب، وساد صمت رهيب تلاه تصفيق حار من قِبل هؤلاء الركاب بعد الوقوف التام للطائرة امتناناً منهم للطاقم الذي أوصلها إلى برّ الأمان بعد ثماني ساعات في الأجواء، حيث لا ترى إلا زرقة السماء من أعلى وانعكاس هذه الزرقة في مياه المحيط أسفل الطائرة.

بعدما اطمأن الركاب من الوقوف التام للطائرة، بدأت تُسمع من جديد "طقطقات" فتح أحزمة السلامة، تخللها صوت المضيفة عبر مكبرات الصوت تشكر الركاب بعدة لغات على حسن ثقتهم في الخطوط الجوية الألمانية، بعدها خرجنا من الطائرة عبر أنابيب طويلة تمّ ربطها بحافلات عملاقة، والتي حملتنا بدورها إلى جناح الجمارك الذي اكتشفنا بمجرد دخولنا إليه تغير كل شيء عما اعتدنا عليه في جمارك مطار "محمد الخامس" في "الدار البيضاء" . فمطار "دالاس واشنطن" يبدو فيه كل شيء أنيقاً ونظيفاً. حيطانه تتزاحم فيها لوحات الإشارات باللغة الإنجليزية، شرطة المطار ورجال أمنه في هندام أنيق، تظهر الشارات المعدنية البرّاقة بارزة على صدورهم، كما يظهرون تماماً في الأفلام البوليسية الأمريكية.

كان المسافرون يتقاطرون من الباب الرئيس لجناح الجمارك في اتجاه الصّف الذي تم رصّه بأحزمة متوازية إلتوائياً، يدخل المسافرون من ذيله وفي مقدمته يتم توجيههم حسب وضعية كل مسافر، فالمواطنون الأمريكيون حاملو جواز السفر الأمريكي، خصص لهم ممر خاص يقودهم نحو رجال أمن الجمارك، لكون إجراءات طبع أجوزتهم بسيطة، بينما المقيمون والسياح وأصحاب التأشيرة المؤقتة الذين يحتاجون إلى وقت إضافي لمعالجة أوضاعهم والتأشير على أجوزتهم مقارنة مع نظرائهم حاملي الجنسية الأمريكية، فقد خصصت لهم ممرات خاصة . وبصفتي مواطناً أجنبياً حاصلاً على تأشيرة الفوز بيانصيب قرعة الحصول على البطاقة الخضراء التي تتيح لي الإقامة الدائمة في الولايات المتحدة، فقد مررت كغيري من الأجانب في هذا الممر وصولاً إلى نافذة الجمركي الذي سيعالج وثائقي.

كانت ملامح الجدية تبدو على وجه شرطي الجمارك، تنتصب أمامه شاشة حاسوب بحجم مبالغ فيه، في زاويتها تم تثبيت كاميرا موجهة عدستها نحوي؛ كما تظهر صفيحة زجاجية على المكتب أكثر قرباً مني تنبعث منها ومضات خطوط ضوئية زرقاء، عرفت فيما بعد أنها جهاز البصم الإلكتروني.

سألني شرطي الجمارك بلغة إنجليزية سريعة كأنه يخاطب أمريكياً أو شخصاً طال به المقام في أمريكا، حيث لم يأخذ بعين الإعتبار وضعيتي كمهاجر جديد، يحتاج إلى تعامل خاص أثناء التواصل معه. لم أفهم من كلامه سوى "جواز سفر"، فسلمته إياه مع كل الوثائق التي بحوزتي حتى لا يكرر سؤاله لي بإنجليزيته المخيفة في طريقة نطقها.

فحَص معلومات التأشيرة، وقارن مطابقتها لمعلومات جواز السفر، ثم أطلق سهام نظراته في وجهي مراقباً ملامحه وهو يقارنها بصورتي على الجواز، بعدها أمرني أن أقف، فوقفت مولّياً وجهي شطر عدسة الكاميرا، وبعدما التقط لي صورة أمرني كذلك أن أضع رؤوس أصابع كل يد على حدة مبسوطة على جهاز البصم الآلي، بعدها سلمني كل وثائقي وطلب منّي أن أتبع الإشارات على الحائط، والتي ستقودني في اتجاه مكتب الهجرة الموجود في المطار لتسوية أوضاعي هناك.

كان مكتب الهجرة في المطار عبارة عن قاعة فسيحة، يجلس في باحتها مهاجرون من جنسيات وأجناس مختلفة، ومن وراء المكتب يجلس عدد غير يسير من موظفي مصالح الهجرة المكلفين بمعالجة ملفات هؤلاء المهاجرين، ويراقب الأمر رجلا أمن، أحدهما أمام نافذة المكتب، والآخر قرب باب القاعة، والذي لم يتردد بمجرد دخولي تلك القاعة بأمري كي أضع ملفي على المنضدة والجلوس كغيري من المهاجرين حتى يحين موعد المناداة على اسمي.

إتخذت لنفسي مجلسا في زاوية معزولة، أراقب الوضع وأراقب هذه الجموع من المهاجرين الذين بالكاد وطأت أقدامهم أرض أمريكا مثلي، كان الموظف الجالس قبالة النافذة الزجاجية ينادي الأسماء واحداً واحداً، يقف المنادى عليهم ليلتحقوا بالباب الجانبي للنافذة، حيث ينتظرهم موظف في زيّ شرطة، هو المكلف بتسوية أوضاعهم. وبعد مدة سمعت الموظف نفسه ينادي اسمي بشكل غريب "ماحامِد بُورتشي"، ويلتفت يميناً ويساراً بحثاً عن صاحب الاسم الذي لم يكن سواي. وقفت فاتجهت نحو الباب حيث ينتظرني موظف الهجرة، والذي سلم علي بكل أدب وحيّاني ثم أمرني أن أتبع خطاه. دخلت معه إلى غرفة صغيرة فيها طاولة فتح عليها ملفي، وبينما أنا أراقبه وكلانا واقفان، بدأ يفحص أوراقي ويوزعها إلى مجموعات دون أن ينبس ببنت شفة، لأنه يعي أنني جديد في هذا البلد، فلا داعي للسؤال أو الحديث مع من لا يتقن لغته. وهكذا احتفظ بكلامه إلى حين موعد البصم "التقليدي"، حينها أمرني بالضغط بمقدمة أصابعي مجموعة على إسفنجة مبلّلة بالحبر الأسود، فساعدني بكلتا يديه في البصم أسفل طلب الحصول على البطاقة الخضراء، بعدها احتفظ بأوراقي التي تستحق الحفظ في رفوف مكتب الهجرة، وسلمني جواز سفري، ثم أمرني بكل لباقة أن أذهب لحال سبيلي.

خرجت من مكتب الهجرة لأواجه قاعة التقاط الأمتعة، حيث وجدت أمتعتي بكل سهولة، وذلك للنظام السائد، ولتوزيع أمتعة الركاب مجموعات حسب رقم الرحلة، فوضعتها في عربة صغيرة، لأمضي في حال سبيلي أتتبع إشارات "الخروج" وأتوسل إلى الله أن ألتقي بمن كلفهم قريبي "عبد الصمد" بلقائي وتوصيلي إلى بيته لتعذر حضوره كما أخبرني سلفا، حيث يتزامن موعد وصولي مع وقت الذروة في عمله.
كانت قاعة الانتظار على غرار كل القاعات التي مررت بها فسيحة ومكتظة بمستقبلي المسافرين، بعضهم جاء لقريب أو صديق، وبعضهم في ثياب أنيقة يرفعون بأيديهم

أوراقاً كتبت عليها أسماء بعض المسافرين، وهم سائقو الليموزين والسيارات الفخمة الذين كُلفوا بإيصال بعض المسافرين من المطار في غالب الأحوال باتجاه الفندق .وبعض المستقبلين يحملون بين أيديهم باقة زهور، وآخرون يمسكون بخيط يجمع باقة بالونات كتب عليها "مرحبا بالرّجوع!."

ما أن يقترب المسافر من السياج، حتى يطوّقه أقاربه أو أصدقاؤه لتحيته، وكان لهذه الفسيفساء من البشر الآتي من مختلف مناطق العالم دور في اختلاف التحية بين المضيف والضيف، بين القريب وقريبه، وبين الخلّ وخليله .فهذا يسلم عناقاً وذاك يسلم بلمس وتقبيل الحذاء، وآخرون يكتفون بالتحية عن بعد بانحناءة بسيطة، أمّا الحبيبان فلا يكتفيان بمجرد العناق، بل يطبع الحبيب على فم حبيبه قبلة ساخنة عنيفة. إنّه التعبير الرّاقي عن الحب الذي يسميه كبار السّن عندنا في الديار مسخاً وقلة حياء ! ففي هذا المكان اكتشفت التقاء نقيضين نادراً ما يلتقيان، إنهما البسمة والدّمعة؛ بسمة الفرحة، ودمعة الفرحة عندما تتجاوز هذه الفرحة عتبة التحمّل.

بحثت وسط هذه الفوضى التي خلقتها حرارة اللّقاء بين الأهل والأحباب، وبين الأصدقاء والمعارف، عن وجه يحمل تقاسيم الوجوه المغربية علّه يكون المكلف من طرف "عبد الصمد" بلقائي في المطار. ولم يدم بحثي طويلاً رغم هذه الحشود الغفيرة، حيث رمقني شخص بالنظر وأومأ إلي قائلا بشفتيه "محمد" لأجيبه بصوت مسموع : "محمد برشي"؟ ! فأشار إليّ بما يفيد أنه هو المكلف بتوصيلي إلى وجهتي.

كانوا ثلاثة أفراد من مدينة "طاطا"، تصافحت معهم بحرارة كأنني أعرفهم منذ مدة، حيث صافحت كل واحد على حدة بالوجه أربع مرّات في سلام مغربي خالص، بعدها تطوع أحدهم بجرّ عربة حقائبي، ليبدأوا سيل الأسئلة عن أحوال العباد في الدّيار.

فُتح الباب الزجاجي الذي يفصلنا عن خارج المطار حيث يوجد موقف السيارات، وقد انشقّ إلى نصفين، كلاهما انزلق في اتجاه نقيض انزلاق الآخر، أحسست حينها بحرارة الجو الخارجي الشديدة المصحوبة برطوبة عالية، لأكتشف أن الجو داخل المطار هو جو كاذب مصطنع، صنعته المكيفات وماصّات الرطوبة نحو الفضاء الخارجي لبناية المطار.

كان موقف السيّارات فسيحاً جدا وأنيقاً. الخطوط البيضاء التي ترسم حدود ركن كل سيارة تبدو صباغتها جديدة كأنها بالكاد وضعت، مئات السيارات رُكنت جنباً إلى جنب بشكل يتعذر العثور على مكان فارغ. سيّارات من مختلف الأشكال والأحجام، ومن مختلف الأنواع والتي لم أتعود على رؤيتها إلاّ في الأفلام السّينمائية الأمريكية، حيث اختفت هنا سيارات السيتروين، رونو، وبيجو... وحلت محلها الميركوري، الدودج، التشيف الفولزفاغن... وغيرها من الأنواع الأمريكية والألمانية.

صعدنا سيارة أحد مرافقي الثلاثة من نوع "هوندا سيفيك". كان السائق صامتاً لا يتكلم، لكونه كان مشغولاً بالبحث عن منفذ لسيارته من ذلك المرأب العملاق، أما الشخصان الآخران، فكانا لا يتوقفان عن الكلام، يتناوبان على سؤالي، ويُسمعاني الكثير من النصائح حول ما يتوجب علي القيام به خلال الأيام الأولى لوصولي.

دخلت السيارة في الطريق السريع الرابط بين المطار والعاصمة واشنطن، كان طريقاً عملاقاً مقسماً إلى ثلاث طرق رئيسة، اثنان منهما في اتجاهين معاكسين؛ يتوسطهما طريق ثالث عبارة عن طريق سريع يربط المطار مباشرة بالعاصمة واشنطن ويخفف الضغط عن الطريقين المحاذيين وقت الذروة . ينقسم كل طريق من الطرق الثلاثة إلى ثلاثة خطوط وأحياناً إلى اثنين .وتظهر أرضية الطريق وخطوط التشوير على أنها تستفيد من صيانة دورية، أما ألواح

الإشارات فهي منتشرة بكم هائل على الطريق جنباً إلى جنب، وقد تفاجأت للكم الهائل من السيّارات المستعملة لكل خطوط هذا الطريق العملاق، كما تفاجأت للبنايات الرائعة المنتشرة حول جنباته على شكل مستعمرات تحيط بها غابات كثيفة الأشجار من كل جانب، وعلى جنبات الطريق نما عشب شديد الخضرة معتنى به بتشذيبه بصفة دورية. البنايات الشّاهقة في معظمها زجاجية الواجهات إلاّ من إطارات معدنية اِستعملت لتثبيت تلك الألواح الزجاجية بعضها فوق بعض؛ وقد كان هذا المشهد السّاحر للبنايات والشجر والعشب المشذّب بعناية شبيهًا بمسالك غولف عملاق.

بعدما قطعنا قرابة عشرين كيلومتراً على متن الطريق السريع للمطار، عرّجنا على طريق ثانوي به أضواء إشارات عند كل ملتقى طرق، حينها بدأ السائق يسير ببطء، ما أتاح لي فرصة التركيز من خلال النافذة على العالم الجديد الذي ساقتني إليه الأقدار، أقارنه بعالمنا في الدّيار، فكانت ملاحظتي الأولى هي قرب نوافذ المنازل من الأرض حيث تكاد تلامسه، وهي نوافذ زجاجية خالية من السياجات الحديديّة كما في نوافذ الديار، وهو ما يوحي باستتباب الأمن والأمان حيث أنا الآن .كانت الشوارع كما تبدو لي شبه خالية من المارة، كأن هذه المدينة الأنيقة مهجورة، كما أدهشني الكم الهائل من السيّارات المركونة على جنبات الطّريق.

وصلنا المبنى حيث توجد شقة "عبد الصمد" وأصدقائه، كانت بناية أنيقة كأنها بالكاد شُيّدت . تتكون من أربع طوابق بسقف مائل. نزلنا من السيارة أنا و" عَبد الرّحمان"، فيما أصرّ الآخرون على ضرورة الانصراف لالتزامهما بالعمل في مساء ذلك اليوم، أما "عبد الرّحمان" الذي يسكن في المبنى المجاور لهذا المبنى حيث نحن، فقد أصرّ على أن يطمئن لولوجي شقة "عبد الصّمد" قبل أن ينصرف كذلك لحال سبيله، فصعدنا سلم البناية حتى وصلنا باب الشّقة في الطابق الثاني والتي كتبت أرقامها بحروف معدنية بشكل لا يخلو من لمسة

فنية، تتوسط الباب بؤرة زجاجية صغيرة هي عدسة منظار رفيع يتيح لساكن الشّقة معرفة هوية الطارق.

طرقنا الباب ففتحه "رشيد" وهو من أصدقاء عبد الصّمد، ينحدر من مدينة "كَلميمة" بإقليم "الراشيدية"، صال وجال في إسرائيل ثم فرنسا قبل أن يستقر به المقام في أمريكا كمهاجر سري، كان بشوشاً لبقاً، حيث بمجرد أن فتح الباب سلّم عليّ سلام المعارف في المغرب بعد طول غياب، فأمر كلاًّ منا بالدخول مرحباً.

كانت الشّقة صغيرة ورائعة بمثل روعة و أناقة غرف الفنادق المصنّفة، تنفست الصّعداء لما اكتشفت أن أرضيتها من السجاد، لكوني أكره الأرضيّة الإسمنتية والفسيفسائية، كونهما تحتاجان دوريّاً لغسلهما وتجفيفهما كما كنا نفعل على مضض عندما كنّا طلبة في كلية مكناس، حينها وعندما يتعذر علينا ذلك بسبب قرب موعد الامتحانات، تصبح أرضية شقتنا كأرضية الإسطبل جراء ترسبات الأوساخ ! أما الآن فعوض تفريغ دلو من الماء المخلوط بالكلور والصّابون على الأرضيّة لغسلها وتجفيفها، فلن يكلف الأمر إلاّ استعمال الماصّة الكهربائية دقائق معدودات.

لما اطمئن عبد الرّحمان لوصولي إلى حيث أريد الوصول، استأذن للذهاب إلى شقته في البناية المجاورة، بعدما أخبرني أنه سيكون على اتصال بي حتى أتسلم أوراق إقامتي وأستأنف العمل، لأبقى وحيداً مع رشيد الذي عاملني معاملة الأخ لأخيه، حيث ألحّ عليّ بأن أتصل بعائلتي لأخبرهم بوصولي قبل الاستحمام وهو ما كان.

ما هي إلا سويعات قليلة حتى التحق بنا "عبد الصّمد" و"نور الدّين"، فتناولنا طعام العشاء جماعةً، لأستسلم بعدها لنوم عميق، وكلّي أمل وشوق أن يحلّ صباح الغد، لأخرج إلى الشّارع وأكتشف من خلاله أمريكا عن قرب.

* * * * *

استيقظت أول صباح يوم لي في أمريكا، حيث وجدت من تناولت العشاء معهم بالأمس قد غادروا إلى العمل باكراً، ولم يبق أحدٌ إلا أنا و"رشيد "الذي عادة ما يبدأ عمله في الظهيرة، كانت معاملته لي كشقيقه جعلتني لا أحسّ بالغربة داخل هذا البيت، ولا غرابة في ذلك فنحن أبناء منطقة واحدة تعلّمنا من آبائنا كيف نعامل الضّيوف معاملة لائقة، إلاّ أنّ انصرافه إلى العمل جعلني أبقى وحيداً في الشقة، تتقاذفني هواجس المعاناة جراء هذه الوحدة القاتلة رغم أنّني بالكاد وصلت.

ففي خلوة تفكير، ووسط صمت رهيب، أحسست بخيوط مرارة الغربة تتسرب إلى كيّاني، وتزداد حدة الألم النفسي كلّما تذكّرت أن أمريكا ستصبح وطني لما تبقى من أيام حياتي، وهي حقيقة تبدو بالنسبة اليّ يقينيّة، وأحاول جاهداً أن أجعل لهذه الحقيقة المرّة مكاناً في مخيلتي شئت أم أبيت. فبعدما كان خبر اجتيازي ليانصيب القرعة الأمريكي للحصول على البطاقة الخضراء هو أحلى خبر سمعته في حياتي، أدركت في هذه اللّحظة أنه سبب هذه المعاناة النفسية الرهيبة، حيث أصبحت هواجس الخوف من المصير المجهول تتقاذفني وتزيدها استفحالاً هذه الوحدة القاتلة، فجلست أعيد تذكّر تفاصيل المراحل التي قطعتها للوصول إلى أمريكا، و تمنيت لو يعود الزمن إلى الوراء، أتعمّد فعل شيء يحول دون وصولي إلى هنا حيث بدأت أعاني ! تمنيت لو أُلغي ملفي، أو رُفض منحي التأشيرة لسبب واهٍ. ليتهم فطنوا للكره الشّديد الذي يكنّه لهم والدي فيعاقبونه بحرمان ابنه من البطاقة

الخضراء ! وليتهم يكتشفون مجموعة من الأخطاء الإملائية في وثائقي. إنها مجموعة من السيناريوهات من وحي خيالي التي أعي أكثر من غيري صعوبة بل استحالة تحققها، ورغم ذلك فإنّني أمنّي النّفس في ذلك رغم أن قدومي إلى هنا كان أشبه بمعجزة، حيث أكاد أجزم أنّني الوحيد الذي أرسل طلبين اثنين للمشاركة في اليانصيب، ومع ذلك اجتزت القرعة بنجاح، رغم منع إرسال طلبين في نفس الوقت من مترشح واحد.

كنت أبكي حظي العاثر، أبكي اللّبن المسكوب، وأحيانا أجهش بالبكاء بمقلتين جافتين وقلب يقطر دماً، وبقيت على تلك الحالة غارقاً في الهواجس والكوابيس المخيفة إلى حين خروج أول الأصدقاء من العمل، و لم يكن سوى "رشيد"، الذي سأخرج معه يومياً في نزهة بسيارته، فبفضله وبفضل تلك السيارة اكتشفت الشّارع الأمريكي عن قرب، كما تعرّفت على أصدقاء جدد من معارفه، ومعه اكتشفت أجواء الخمّارات والعلب اللّيلية، مع أنّني لا أشرب ولا أدخن، لذا فقد كنت دائماً أراقب الوضع من زاوية بعيدة.

مع تفاقم معاناتي النّفسية جرّاء هول صدمة الغربة، أُصبت بأعراض مرض الكآبة، أنام في آخر اللّيل، وأستيقظ مع أول الفجر، ولا أستطيع العودة إلى النوم من جديد، أعيش على وقع كوابيس مخيفة، فانظر إلى مستقبلي الذي يلفه الغموض في هذا البلاد ، إلى درجة أنّني تمنيّت الموت لأضع حدّاً لهذه المعاناة النفسية الرهيبة. أحس بالجوع، وعندما أرغب في الأكل تنقبض معدتي وأزهد في الأكل من جديد ! ورغم معاناتي، فقد نجحت في إخفاء الأمر عن محيطي من الأصدقاء الذين أسكن معهم ، أتظاهر في حضورهم أنني مسرور وراض بالمقام معهم في أمريكا، لكن هذا التظاهر سرعان ما تلاشى أمام تزايد معاناتي بشكل صعُب عليّ إخفاءها والتحكم فيها. لتطفو على السطح، فأصبحت أشتكي لهم همومي ومعاناتي، وقابلوا شكواي بطمأنتي على أن ما أعانيه عادٍ بالنسبة إلى كل مهاجر جديد، وهو إحساس عابر، وهم أنفسهم مرّوا بنفس التجربة.

قد أصاب الأصدقاء في بعض وأساؤوا الفهم في بعض من أصل معاناتي، فجزء كبير من هذه المعاناة سببه هو الحنين والشّوق إلى بلدتي التي فارقتها بعد أربعة وعشرين عاماً من الحياة فيها ولو بشكل متقطّع بسبب التزاماتي الدراسية. أربعة وعشرون عاماً من الذكريات كافية وبإفراط أن تجعل بلدتي تعيش في كياني. الآن، وبالضبط هنا في أمريكا اكتشفت أن حلمي الذي أردده على مسامع أصدقائي هناك والذي هو حلم مغادرة بلدتي التي لطالما نعتّها ببلدة "النّحس" لنسيانها هو محض هراء، اكتشفت حقيقته لما أدركت أنني لن أعود إليها إلاّ مرة كل سنتين على الأقل، ولبضعة أسابيع فقط عن كل مرة.

أربعة وعشرون عاماً مرت كلمح بالبصر، غدت كلّها الآن مجرد ذكريات في خبر كان، وأصبحت في تلك اللحظة أدرك قيمة نصائح "أمبارك" صيدلاني البلدة التي كنت أعاملها باللامبالاة، كان المسكين جدّيا عندما يلح عليّ كلّما مررت بصيدليته أن أعمل إحساناً لنفسي، بأن أطيل النظر في جدران بنيان بلدتي، أن ألمس الحجر والشجر لمسة الوداع الذي قد يكون لا قدّر الله الوداع الأخير، كما يلحّ علي أن أمارس "يوغا" التأمل أمام برجي القصر القديم لأشبع من مشاهدته، كان جدّيا في النّصح، وأقابل جديته باستهجان واستخفاف، وأخبره أنني شبعت من هذه البلدة منذ زمن.

الآن، وفي هذا المكان حيث أنا، تيقنت من حكمة "أمبارك" الذي خمّن صعوبة ما ينتظرني في الغربة فأصاب في تخمينه، وهو من لم يجرب قط غربة الأقطار النائية، في هذا المكان بالذات حيث أنا، وفي هذا المأزق النّفسي الذي أعيشه، تمنيت لو تعود عجلة التاريخ إلى الوراء، أعمل بنصح "أمبارك"، أتأمل في الإنسان والحيوان والجماد، ألمس التراب والحجر بخشوع عبدة الأوثان أمام أصنامهم .! وأمام استحالة عودة الزمان إلى نقطة الصفر، لم يبق لي إلاّ أن أستسلم للأمر الواقع، أنتظر ما قد يسفر عنه الغد من مفاجآت.

لم يمض سوى أسبوعين حتى توصلت ببطاقة الضمان الاجتماعي مفتاح العمل في أمريكا، ولم يمض أسبوع آخر حتى توصلت بالبطاقة الخضراء عنوان إقامتي الدّائمة هنا، لأبدأ بعدهما رحلة الخروج يومياً بحثاً عن العمل في محاولة للهروب من الصمت القاتل في البيت، وقد كانت أمريكا حينها في أوج قوتها الاقتصادية، لأنّ سيّاسة "بوش الابن" في تلك الفترة التي صادفت ولاية حكمه الأولى لم تؤثر بعد على أسس الاقتصاد المتين الذي أرسى دعائمه الدّيمقراطيون بزعامة "بيل كلينتون"، فالدّيمقراطيون هم مهندسو الاقتصاد بامتياز، على يدهم عاشت أمريكا فترات الرخاء الاقتصادي، بينما ينصبّ اهتمام الجمهوريين على السيّاسة الخارجية، يبحثون عن مفاتيح الهيمنة على العالم مهما كلفهم ذلك من ثمن، فتمخض عن نرجسيّتهم تلك توريط أمريكا في حروب مدمّرة أوصلتها مراراً حافة الإفلاس قبل أن ينقذها الدّيمقراطيون من جديد.

فالاقتصاد الأمريكي الذي عرف ازدهاراً إبان فترة حكم "بيل كلينتون"، بقي صامداً كل الولاية الأولى ل"بوش الابن "رغم قيادة هذا الأخير للحرب على ما سمّاه "الإرهاب" في كل من أفغانستان والعراق بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، هذه الحرب هدرت ملايين الدولارات من الاقتصاد الأمريكي، لكن تداعياتها لم تظهر بعد في تلك الفترة، بل تأجلت إلى الولاية الثانية مع إلحاح "بوش الابن" على ضرورة الاستمرار في حربه على الإرهاب وغزو العراق.

في تلك الفترة، كان الطّلب على اليد العاملة في أمريكا قد وصل إلى أوْجِه، فخرجت أبحث عن العمل، خرجت أمني النفس في إيجاد عمل يحررني من سجن جدران الشقة، كما أمني النفس في عمل أُلهي به نفسي من كثرة التفكير في الديار، فخرجت حاملاً وثائقي أبحث

عن عمل في المطاعم المنتشرة بكثافة بكل الشوارع، فالمطاعم هي أنسب مكان لعمل المهاجر الجديد، ففيها يرتقي مع مرور الوقت حسب كفاءته، والمطعم كذلك هو المكان الذي قد يجد فيه المهاجر عملاً في أسرع وقت، خصوصاً في هذا الوقت الذي صادف نهاية عطلة فصل الصّيف، حيث يعود الطّلبة والتّلاميذ من عمالة المطاعم إلى مدارسهم، ويطلب أرباب المطاعم عمالة تعوض شغور مناصب هذه الفئة.

كان التواصل بين مدراء المطاعم والمهاجرين الجدد الراغبين في العمل غاية في الصّعوبة، فالإنجليزية التي درسناها سنوات معدودات في الثانوي لا تربطها أي علاقة بالإنجليزية التي يتحدث بها الشارع الأمريكي، فهذه الأخيرة سريعة بشكل لا تتضح الحروف في حديث المتكلم بها، فالمواطنون الأمريكيون لا يفهمون حديثنا نحن المهاجرين الجدد، عندما نحاول الحديث معهم بالإنجليزية مهما بذلنا من مجهود لنطقها بطريقة سليمة، وما صعّب المأمورية علينا مع هذه اللّغة الصّعبة، هو كون حروف الإشارة في إنجليزية الشارع الأمريكي يتغير نطقها من كلمة لأخرى.

عادة ما يكون الحديث بين المهاجر الجديد الرّاغب في العمل ومدير المطعم شبيه بحوار الطّرشان، يتكلّم المدير فيومئ المهاجر بإيماءات توحي كذباً "للإرضاء" أنه يستوعب حديث المدير، وينقلب الدّور عندما يتكلم المهاجر ويستمع إليه المدير، لكنه في بعض الأحيان تكون لغة الإشارة هي ملاذ كلا الاثنين لحل سوء تفاهمها بسبب اللغة، وغالباً ما ينتهي الحوار بينهما بأن يحتفظ المدير بطلب العامل واعداً إياه بمهاتفته حال وجود مركز شاغر، وأن يهاتفه بالفعل فذلك متوقف على نوع هذا المركز الشّاغر، إذ سيكلمه لا محالة في حالة حاجته إلى غاسل أطباق أو عامل نظافة، وهما المنصبان اللذان لا يحتاجان إلى إتقان اللّغة، بينما يتضاءل الأمل في الاتصال به كلّما كان المنصب الشّاغر يحتاج إلى الحد الأدنى من التواصل باللّغة الانجليزية.

ملأت استمارة العمل في العشرات من مطاعم أرلينغتون و في المنطقة المحاذية لهذه المدينة من واشنطن، و التي أصلها مشياً على الأقدام، ولم يمض وقت طويل حتى تلقيت تطمينات من مدير مطعم "بابا جونز" المتخصّص في البيتزا، وهو مصري، و الذي وعدني بمهاتفتي في غضون أيام للعمل في ذلك المطعم، وهو ما حدث بالفعل بعد ثلاثة أيام، حيث التحقت بالمطعم في اليوم المعلوم، وهناك وجدت هذا المدير الذي يدعى "أنيس" مع أحد العمّال وهم بالكاد فتحوا أبواب المطعم. أمرني المدير أن أتبع خطاه نحو المكتب، كان المطعم صغير المساحة يتوسطه فرن كبير بطابقين، مررنا بجانبه لندخل مكتبا ضيّقاً بالكاد يكفي لجلوس شخصين، جلس المدير بعدما قدّم لي كرسيّاً وأمرني بالجلوس، ليبدأ تلاوة زبورٍ من القوانين الخاصّة بالتّشغيل في ذلك المطعم باللّهجة المصريّة، ولسوء الحظ فلست من متتبعي المسلسلات المصرية لأستوعب لهجته، وكذلك الأمر عندما أتحدث بدوري معه باللّهجة المغربية، حيث يجد هو الآخر نفس الصعوبة في الفهم، رغم أن أغلبيّة العمّال في هذا المطعم كانوا من المغاربة، لكنهم تخلوا عن لهجتهم فتمصْرنوا معه في الحديث.

أخبرني ما فهمته بصعوبة أنه يتعين علي القيّام بتدريب لمدة ثلاثة أيام قبل بداية العمل معه بصفة رسمية، واقترح عليّ القيام بهذا التدريب في مطعم آخر تابع لنفس الشركة عند مغربي يدعى "يونس" حتى أستطيع التواصل معه بكيفية أفضل، على أن أعود لاستئناف العمل في هذا المطعم بعد إتمام أيام التدريب الثّلاثة.

بعدما أفرغ المدير "أنيس" كل ما في جعبته بخصوص أمر تشغيلي في مطعمه، سلمني عنوان المطعم حيث سأتدرب، فلمّا أردت الانصراف أمرني أن أنتظر قليلا، فانصرف وعاد مسرعاً وفي يده علبة من الورق المقوّى، وسألني قبل أن يفتحها إن أردت أن أشاركه البيتزا.

عندما فتح العلبة أمامي، ظهرت العروس فجأة في أبهى حلة، خبزة مستديرة ومسطحة زينت بالخضر والزيتون الأسود ولحم الدّجاج، ومغطّاة بالجبن الأبيض النّاصع، سالت لها لعابي وتلمّظت لها شفاهي في صمت لجوعي الشّديد ذلك الصباح، وتمنيت لو كنت وحيداً أطلق العنان للساني كي يتمطّق بهن. كنت أنظر بعينين جاحظتين لهذه "البيتزا"، وتمنيت لو لم يشاركني فيها مضيفي، ألتهمها وحدي، وإذ بي في الأخير أكتفي بأكل شطيرتين !ليس شبعاً فيها أو كرهاً لها، لكن مخافة أن أظهر أمام من سيشغلني بمظهر الجائع الأكول، ويتراجع عن تشغيلي مخافة أن ألتهم ما ينتجه مطعمه وأوصله إلى حالة الإفلاس .!اكتفيت إذن بأكل شطيرتين، وقطعت وعداً مع نفسي أن لا أغادر هذا المطعم حتى أشبع من البيتزا حدّ التعفف من أكلها.!

التحقت في اليوم التالي بالمطعم الذي يديره المغربي "يونس" ب" فولس تشيرش" غرب "أرلينغتون" . كان هذا المطعم كذلك ضيّقا ككل مطاعم البيتزا، لأن أغلبها لا يستضيف الزبائن، بل يقوم عوض ذلك بتوصيل البيتزا إلى منازلهم أو إلى مقرات أعمالهم، والمطعم كذلك يتوسّطه فرن ضخم يعمل بشكل آلي، حيث إذا وُضعت البيتزّا الجاهزة للطبخ في أحد جانبيه على سكة خاصة، تخرج بعد دقائق من الجانب الآخر من الفرن مطهوّة وجاهزة للاستهلاك، ثم تعبّأ بعد قطعها في علب من الورق المقوى، لتوضع في رفوف يتم تسخينها بلوالب "الريزيستونس"، بانتظار أن يوصلها السائق إلى الزبون .بالقرب من الفرن وبمحاذاة الحائط، توجد منضدة معدنية طويلة نصفها مخصّص لتدوير العجين وتجهيزه على صفائح معدنية غربالية دائرية، والعجينة لا يتم تحضيرها في المطعم، بل تأتي جاهزة من مصادر تموين المطعم. النصف الآخر من المنضدة مخصّص للأواني المملوءة بما تجهز به البيتزا، من خضر ولحوم وجبن، وكل هذه الأشياء تأتي كذلك من مصادر التموين معبأة وجاهزة للاستعمال، ولا يكلف العامل إلاّ بتسوية العجينة على الصفيحة وغمر سطحها بالصّلصة، وتزيينها بالخضر واللحم، ثم رشها بالجبن وإيداعها بالفرن.

كان الطّلب على البيتزا في تلك الأيام الثّلاثة مدة تدريبي قليلاً، ما جعلني أستفيد من الوقت الكافي للتّعلم على يد "يونس" الّذي حرص بدوره على تعليمي كل صغيرة وكبيرة، ولا تخلو طريقته في تدريبي بعض الأحيان من كلام جارح واحتقار ظاهر، كأنه يعبّر بذلك عن رغبة جامحة في إفشالي!. فالمدير "يونس" ورغم أنه مكث سنين في أمريكا، إلاّ أنه بقي وفيّاً للتّكبر والاستعلاء الذي يطبع المغاربة الرؤساء الذين ينظرون إلى مرؤوسيهم نظرة متعالية ويحبّون أن يعاملوا من طرفهم بجرعة زائدة من التوقير والاحترام ! لكنه في أحيان أخرى تنقلب قسوته إلى رحمة، ونصحه العنيف إلى إرشاد لطيف .

في اليوم الثالث، وعند انتهائي من آخر حصة تدريب، أمرني "يونس" أن أكرم نفسي ببيتزا كبيرة لآكلها مع أصدقائي في المنزل عند المساء، حيث أمرني قبل أن أبدأ في تحضيرها أن أتبع خطاه نحو منضدة التحضير، كأن شيئا مهما خطر بباله، فقال لي مشيرا بسبابته:

- لا تضع هذا وهذا وذاك وذلك في البيتزا !

وكان كل ما أشار إليه بسبابته لحوماً، ظننت أول الأمر أنها غالية الثّمن، فلا داعي لاستعمالها في تحضير بيتزا مجّانية ! إلاّ أن الأمر ليس كذلك، فاللّحوم التي أشار إليها يونس هي لحوم الخنزير المحرّمة، تم تحضيرها بطرق مختلفة من مختلف مناطق جسم الخنزير، والطامة الكبرى أنني طوال مدة التدريب كنت أتذوق منها دون أن أدري أنها لحوم محرّمة !.

كان مطعم "بابا جونز" بـ" كورثهاوس" الذي يديره المصري مشغولاً جداً بالمقارنة مع المطعم الذي يديره المغربي "يونس" بـ" فولس – تشيرش" حيث تدربت. ولحسن حظي فإن كل العمال المشتغلين مع المصري هم مغاربة وتونسيون وجزائريون ثم سودانيون، ومن بين المغاربة هناك السوسي "لحسن" وهو رجل في الخمسينيات من عمره، يتكلّم الأمازيغية بطلاقة وهو من سيعمل إلى جانبي في المطبخ.

بدأت العمل إلى جانب "لحسن"، الذي يبذل مجهوداً مشكوراً عليه في تعليمي كيفية تدوير العجينة باحترافية وتسويتها على الصفيحة في ظرف قيّاسي، والحقيقة أنّه كان يجيد الأمر بطريقة لا أتخيل أن أصل مستواه في يوم من الأيام مهما اكتسبت من تجربة في هذا المطعم، فهو يقوم بغمس قطعة العجين في الدقيق حتى لا تلتصق بيديه، ثم يقوم بتدويرها على الطاولة بسرعة مذهلة وبمنتهى الإتقان، بعدها يقوم برميها في الهواء ليجعلها تسقط وهي تدور على قبضة يده كبهلوان السيرك. ودوران البيتزا على قبضة يده ليس استعراضياً أو عبثيّاً، بل هو جزء من عملية تحضير البيتزا، لأن هذه العملية هي أسهل الطرق لتمديدها وجعل قطرها أكبر حتى يتساوى مع قطر الصفيحة حيث ستوضع، والبيتزا لا تتمزق بسهولة وهي تدور بعنف ويزداد قطرها في الهواء، لأن العجين الذي يحتوي أصلاً على مادة "الغلوتين"، يتم تطعيمه بجرعة زائدة من هذه المادة التي تجعله مطاطياً صعب التّمزق!.

بعد تدويرها يقوم "لحسن" بقلبها على الصفيحة الغرباليّة الدائريّة، ويجعل حوافها متناسقة مع حواف هذه الصفيحة، ثم يمرّر عليها أسطوانة مسنّنة لثقبها حتى لا تنتفخ في الفرن، يدهن سطحها بالصلصة، ثم ينظر نحو شاشة الكومبيوتر أعلاه التي تُظهر ما يرغب الزبون فيه لتزيّن به البيتزا التي طلبها، بعدها يقوم برشّها بالجبن لتوضع في الفرن.

المطعم أنيق ومعتنى بنظافته، حيث تُمسح جدرانه وحتى سقفه دورياً بالمناشف، أما الفرن الذي عمّر في هذا المطعم أكثر من خمس سنوات فيظهر برّاقاً من كثرة العناية به وتنظيفه، أمّا العمّال فلا يلمسون شيئا، ولا يُقبلون على تحضير البيتزا حتى تُغسل أيديهم جيّداً بالصّابون، وتفرك المنطقة بين الظفر واللحم جيداً بفرشاة خاصّة ! وهم كذلك ملزمون بارتداء القبّعات حتى لا تسقط شعيرات من رؤوسهم على البيتزا!.

بعد مرور شهر على بداية عملي في ذلك المطعم، بدأت اكتشف واقع حال أمريكا شيئاً فشيئاً، وبدأت أعي مقولة "لحسن" خلال أوّل لقاء بيننا في هذا المطعم، حيث قال لي بالحرف حينها "إن أمريكا صنفان، التي نشاهدها على التلفاز وأمريكا الواقع حيث نحن الآن" وهو قول بليغ لا يعرف بلاغته إلاّ من حطّ الرّحال وطال به المقام هنا، والذي سيرغم مع مرور الوقت بحكم التجربة على نسيان الصورة النّمطية التي كوّنها عن أمريكا من خلال أفلامها السينمائية، فإمّا العمل الدّائم دون توقف أو العودة من حيث أتى!!.

مع مرور الوقت أصبحت أجيد تحضير البيتزا بطريقة مهاريّة أبهرت المدير نفسه قبل العمّال والسّائقين، كوني أصبحت ألعب بالعجينة وأطاوعها كما أشاء، إلى درجة اقترح أحدهم عليّ أن أمثل هذا المطعم في مسابقة عروض تحضير البيتزا التي يتنافس فيها محترفوها على مستوى التراب الأمريكي، تحمّست للفكرة في أول الأمر، لكن هذا الحماس سرعان ما تبخر بمجرد أن شاهدت عينة من الفيديوهات لمحترفين وهم يقومون بحركات بواسطة العجينة بشكل أقرب إلى الإعجاز، فصرفت النظر عن الفكرة كأنها لم تكن.

قلّت أخطائي في المطبخ وأصبحت نادرة، ما أثار نقمة السائقين عليّ، الذين تعوّدوا على أكل البيتزا "الخطأ"، حيث إن كل بيتزا نسيت لها شيئا مما يرغبه فيها الزبون، أو أضفت لها شيئا مما لا يرغبه فيها، أو صنعتها في حجم غير الذي طلبه، أكون ملزماً على تحضير بيتزا أخرى لهذا الزبون تكون تماماً كما طلبها، ويكون مصير البيتزا "الخطأ" هو بُطُون السائقين، عوض طرحها في النفايات، فبعدما قلّ الخطأ وبقدر ما أفرح المدير، فقد أصبح هؤلاء السّائقون يطلبون منّي سراّ أن أتعمد الخطأ لينالوا فرصة الأكل من جديد مادام الخطأ وارداً!.

إن أول شيء اكتشفته في هذا المدير المصري الذي يدير هذا المطعم، هو أنه كان مسلماً منافقاً بامتياز، ولو أنه كان يقوم بالصلاة أمامي في وقتها، ويصوم رمضان، ويكثر على

مسامع العمّال البسملة والصلاة على النبي والحوقلة والتسبيح، إلاّ أنه كان يمثل أنموذجاً حيّاً في حب المال والتضحية في سبيله، ويسعى وراءه بكل الطرق، ولو على حساب أرزاق عمّاله، فكنت من بين ضحايا رغبته القبيحة تلك، حيث كانت أجرتي كما حدّدها في الحد الأدنى للأجور بولاية فيرجينيا ! ولم أجد حرجاً في أول مرة علمت فيها بالأمر، فقلت لا بأس، فأنا جديد هنا وقد يزداد أجري مع مرور الوقت ومراكمتي للتجربة . لكن مع مرور الوقت راكمت التجربة وأبليت بلاءً حسناً في العمل، ومع ذلك بقي الأجر على حاله.

جشع المدير بحق العمال وبحقي لم يقف عند هذا الحد، فعندما تأكد من إتقاني الجيّد للعمل، وسرعتي في الأداء، واحترامي لمواقيت العمل، قرر التخلص من "لحسن"، ليس لتقصيره في العمل، ولكن لكونه يكلف عشرة دولارات في الساعة، فقرر التّخلص منه بطريقة ماكرة، بدأها بتقليص ساعات عمله بجرعات، إلى أن أحسّ "لحسن" بدسيسة المدير فرحل طوعاً. رحل فسُرّ المدير لرحيله، فأصبحت أعمل في المطبخ وحيداً أؤدي فيه عمل شخصين وبنفس الأجر البخس، أجر لا يتناسب مع عمل لا أجد فيه حتى وقتاً لارتياد المرحاض!.

المدير الذي كان يتقاضى ألف دولار عن كل أسبوع، بالإضافة إلى نسبة من الأرباح والعلاوات السنوية، أوتي من الجشع ما لا حدود له، جعله يغض الطرف عن أرباحه الطائلة، فأصبح ينظر عوضاً عنها إلى جيوب عمّاله لإفراغها في جيبه ليزداد غنىً على غناه .! كان يقوم بتقليص الأجور ليرفع بذلك أرباح المطعم التي تزيد من نسبة نصيبه من تلك الأرباح !! وما خفيّ من حيله ومكره في سبيل الاغتناء غير المشروع كان أعظم وأجلّ، وتلك واحدة من صور نفاق أغلب المسلمين في أمريكا التي سأتطرق إليها بتفصيل فيما بعد.

بذلت جهداً بدنياً أكثر في المطعم بعد مغادرة "لحسن" في حين بقي راتبي كما هو، ما جعلني أفكر جدياً في تغيير الأجواء والبحث عن عمل أحسن تصان فيه كرامتي وأعامل فيه معاملة لائقة، وزادني إصراراً تشجيع السائقين لي على المغادرة، حيث حزّ في نفوسهم استغلال المدير لعمال المطبخ الجدد وأنا لست أولهم، بل عاينوا مثل وضعيتي مرّات عديدة، وأكثر السائقين تعقلاً هم من نصحوني بالبحث عن عمل بديل قبل مغادرة هذا المطعم، حتى لا أبقى عاطلاً من جديد بانتظار إيجاد عمل بديل. ولحسن حظ سائق أي مطعم، أن المدير لا يتحكم في الجزء الأكبر من أجرته التي تخضع لسخاء الزبون ورضاه عن الخدمة المقدمة له من طرف السائق عند تسليمه طلباته، كما أنّ الأجرة القارة التي يحصل عليها السائق هي شبه موحدة بين جميع المطاعم في المنطقة، إضافة إلى أن من يتخذ السيّاقة مهنته، فهو مطلوب جدّاً من طرف أي مطعم فوق التراب الأمريكي، لهذا فالمديرون يتحاشون المشكلات معهم خوفا من مغادرتهم وصعوبة ملء فراغهم.

إبتسم الحظ لي بعد بضعة أيام دون أن أبذل جهداً في البحث عن عمل جديد، فقد اتصل بي في وقت متزامن مطعمان أودعت لديهما طلب عمل منذ أول مرة كنت أطوف فيها حول المطاعم بحثا عن العمل، أحد المطعمين لحسن الحظ يوجد بالقرب من الشقة حيث أسكن، و تماماً في منتصف المسافة بين الشقة ومطعم "بابا جونز"، وفيه سأعمل في وقت الغذاء خمسة أيام كل أسبوع. أما المطعم الآخر فيوجد في واشنطن على بعد خمسة عشر دقيقة بالحافلة، وفيه سيقتصر عملي على عطلة نهاية الأسبوع. عرض علي مالك المطعم الأول العمل كطباخ بينما المطعم الآخر فسأعمل فيه كمساعد للنُّدل، وأمام هذا الحظ الباسم، لم أستعجل مغادرة المطعم الذي يديره المصري، بل تريّثت حتى أستأنس بالأوضاع في المطعمين الجديدين و بعدها أغادر بشكل انتقامي.

كان المطعم حيث سأعمل مساعد ندُل في واشنطن يحمل اسم "بيتزيريا أونو"، يُشغّل عدداً هائلاً من العمّال، أحسست بالغربة لأول وهلة بينهم .ويدير هذا المطعم إيراني ونعم الرّجل، كان اسمه "بوبي" وهو اسم هجين حيث غير اسمه الأول بعد التجنيس كما يفعل معظم الإيرانيين في أمريكا!، وقد كان إحساسي بالغربة في المطعم قد تلاشى في الأيام الأولى من بدايتي للعمل، وذلك بفضل استئناسي بالأجواء، ومعرفتي السريعة لكل النُّدل الذين أشتغل تحت إمرتهم، رغم أن من يمتهن مهنة النّادل في هذا المطعم يغادرون في أجل أقصاه أربعة أشهر، لأن هذا المطعم منخفض الأثمان، وخفض الأثمان يغري البخلاء من النّاس لارتياده، وهذه العينة من النّاس بخيلة مع نفسها فما بالك مع غيرها، والنادل راتبه من بقشيش وإكراميات الزبائن، لهذا فهم يغادرون هذا المطعم بحثاً عن مطعم آخر حيث يوجد الكرماء من الزبائن.

المطعم الثاني حيث سأعمل طباخاً، هو مطعم صغير يملكه يهودي أمريكي ويديره في الوقت نفسه وينوب عنه في الإدارة مدير آخر كولومبي الجنسيّة يدعى" ويلسون"، وهو مهاجر غير شرعي بدأ العمل منظّفاً لموائد مطاعم هذا اليهودي وماسحاً لزجاج نوافذها ليرتقي مع مرور الوقت إلى طبّاخ ثم مدير. ففي هذا المطعم كانت الأجواء أكثر من رائعة، ابتدأت روعتها عندما أخبرني المدير بأجرتي التي تفوق ما يكافئني به المصري في مطعمه، مع الزيّادة فيها تبعاً لأقدميتي معه!. إنّه الموقف الذي اكتشفت فيه جشع المدير المسلم، وطمعه في مال أخيه المسلم، في مقابل المعاملة الرّاقية والإحساس بالإنسانية من يهودي تجاه مسلم يكن له العداء ويدعو عليه كل جمعة : "اللهم رمّل نساءهم ويتّم أطفالهم وشتّت شملهم! . "

تقع مدينة "أرلينغتون" حيث أسكن مع أصدقائي بمحاذاة العاصمة واشنطن، ولا يفصلهما سوى نهر "بوطوماك"، وتربط المدينتين سبعة جسور عملاقة خاصة بالعربات، وجسر خاص بالقطار، بالإضافة إلى أربعة خطوط ميترو الأنفاق. والمدينتان تشبهان في قربهما من بعضهما

البعض مدينتي الرباط وسلا المغربيتين اللّتين يفصلهما كذلك نهر "أبي راقراق"، إلاّ أن تشابههما هو تشابه من حيث القرب الجغرافي فقط وحدودهما التي يرسمها النهران، أمّا من حيث المستوى الحضاري والعمراني وكذا البنية التّحتية، والنظام السائد فيهما، فأمام الرباط وسلا قرون طويلة للوصول إلى مستوى المدينتين الأمريكيتين.

كنت أعمل ستين ساعة في الأسبوع، موزعة على ثلاثة مطاعم، اثنين في أرلينغتون، والثالث في واشنطن، أعمل ساعات معدودة هنا في الصباح، وساعات أخرى معدودات في المساء هناك في مطعم مختلف، ما وفر علي الضغط الذي يسببه العمل لساعات طوال في مكان واحد، وكنت أنتقل بين المطعمين والمنزل في أرلينغتون مشياً على الأقدام، أمّا التحاقي بمطعم واشنطن فيكون بالحافلة، حيث ألتحق به في وقت أقصاه ربع ساعة، وأستطيع أن أقول بأنني سأكون في وضع مادي مريح لو اقتصرت على العمل في مطعمين بدل ثلاثة، لهذا قررت مغادرة المطعم الذي يديره المصري، لكن قراري أرجأته إلى ما بعد إنذاره بنية مغادرتي أولاً، فإما أجرة تناسب مجهودي في العمل أو المغادرة. فقررت لأجل ذلك أن أفاتحه بالموضوع قبل اتخاذ أي قرار.

إلتحقت صباح ذلك اليوم بالعمل مبكّراً لأفاتح المدير بموضوع الزيّادة، وبالفعل، وبعدما أخبرته بضرورة رفع راتبي أو لن يكون لي من خيار سوى المغادرة، فكر مليا قبل أن يشير إليَّ بإيماءة برأسه مصحوبة بنصف ابتسامة صفراء تفيد الرفض، بعدها استأنفت عملي بشكل عادي كأن شيئاً لم يكن، مصمّماً بأن يكون ذلك آخر يوم عمل لي في ذلك المطعم، وهو الأمر الذي فاتحت فيه بعض السائقين وودعتهم، ليستعجل بعضهم إخبار المدير بأن لدي عملين إضافيين.

انتظر المدير حتى موعد هبوط وتيرة العمل فألح عليّ أن أتبعه إلى مكتبه، كان المسكين يظن أنني ضائع من دون عمل في المطعم الذي يديره، وأنّني سأقبل العمل بالحد الأدنى للأجور لعدم وجود بديل، لكنّه لما علم بأمر اشتغالي في مطعمين غير مطعمه، فقد أدخلني إلى مكتبه ليتقمّص نفاقا دور المدير الكريم والرّحيم بعمّاله الذي يضع مصلحتهم فوق كل اعتبار، فأطال كيل المديح لي، يذكرني بإخلاصي وإتقاني للعمل، واستطرد بعدما أسمعني قصيدته في مدح شخصي أنّه سيكافئني بزيادة دولارين اثنين عن كل ساعة عمل، أخبرته بدوري أنني لن أقبل بأقل من ثلاثة دولارات زيادة، وبإضافة عامل آخر يحل محل "لحسن" . رفض زيادة ثلاثة دولارات، مؤكداً أنه سيدرس إمكانية إضافة عامل جديد في المستقبل ! فانصرف بعدما أمرني باستئناف العمل !.

خرجت فعلاً من مكتبه كي أستأنف العمل، وأنا عاقد العزم على أن أنتقم منه لنفسي على الأربعة أشهر من الإذلال والاغتناء غير المشروع على حسابي، فكان أن تركته حتى مساء الجمعة حيث يحقق المطعم غالباً أعلى المستويات في المبيعات.

كان الجو في تلك الجمعة حيث قررت الانتقام ماطراً، ما يعني أن صدمة الانتقام ستكون قوية على المدير الانتهازي، حيث إن سوء الأحوال الجوية ترغم الناس على ملازمة منازلهم ومنها يطلبون توصيل العشاء من المطاعم في الخارج، ما ينذر بمبيعات قيّاسية في كل المطاعم بما فيها مطعم هذا المصري.

تخلّفت عن الذهاب إلى العمل تلك اللّيلة عن سبق الإصرار، إنتقاماً لي ولمن سبقني من ضحايا جشع ذلك المدير الذي كان في العادة يعمل في فترة الصّباح، أما في المساء فينوب عنه مساعده .ولأنني قد كنت الوحيد الذي يقوم بتحضير البيتزا في الفترة المسائية، فقد اكتملت مساوئ الورطة بغيابي، ليقع المطعم إثر ذلك في مشكلة مع الزبائن، حاول معها

مساعده الذي ينوب عنه في الفترة المسائية الاتصال به، باعتباره المسؤول الأول عن ذلك المطعم كلما حلّ به طارئ، فكان التحاقه بالمكان سريعاً حتى يتفادى المشكلات بينه وبين الشركة الأم .التحق بالعمل على وجه السرعة فاتجه مباشرة لتحضير البيتزا دون أن تكف شفتاه عن سبّي والحلف بأغلظ الإيمان أنني سأكون آخر مغربي يشتغل عنده.

إلتحقت بذلك المطعم في اليوم التالي صباح الاثنين لأتسلم "شيكين" بدل أتعابي لأسبوعين، كان هناك سائق مغربي يقوم بصنع علب تعبئة البيتزا في الوقت الذي كان فيه المدير يشتغل على الكومبيوتر، ما أن شاهدني حتى تغيّر لونه وجفّ ريقه، فهرول مسرعاً نحوي مخاطباً إيّاي بلغة الوعيد والتهديد:

– ماذا تريد ؟؟ أنت لم تعد تعمل هنا !

– أتيت من أجل الشيك وإلاّ...

أجبته بازدراء.

– وإلاّ ماذا ؟؟ أجاب وهو ينظر إليَّ باحتقار.

– الشّرطة مثلاً!

هرول مسرعاً نحو المكتب فأحضر أحد الشيكين وسلّمه لي قائلاً:

– سأرسل لك الشيك الآخر عبر البريد، لا أريد أن أراك هنا بعد الآن، ولا تحاول أن تبحث لك عن عمل في سلسلة هذه المطاعم، فقد برمجت رقم ضمانك الاجتماعي في حاسوب الشّركة كرقم غير مرغوب فيه!! .

أجبته بسخرية:

– الأرزاق بيد الله، أيها العفن، و لا ترتبط بمطعمك ولا بسلسلته.

إزدادت حدّة غضبه، فبدأ يسب سباباً مصريا وإنجليزياً، فقابلت سبابه بسبه باللّهجة المغربية، ما جعل السائق المغربي يستدير ليخفي ابتسامته.

تفرغت للعمل أيام الأسبوع في وقت الغداء بمطعم "جيريس" في أرلينغتون، مع العمل يومي عطلة نهاية الأسبوع في "بيزيريا أونو" في واشنطن، وقررت ملء الفراغ الذي تركه مغادرتي لمطعم "بابا جونز" بالتسجيل في مدرسة تعليم الإنجليزية للبالغين القريبة من منزلنا، بانتظار أن تتحسن أوضاعي نحو الأحسن.

II

أن تكون مهاجرا أعزب في الولايات المتحدة الأمريكية، معناه أنك حرّ وملك لنفسك، تتصرف في حياتك كما يحلو لك بعيدا من مراقبة محيط عائلتك ومعارفك، وبعيدا من عيون الفضوليين والوشاة .الأجر المحترم الذي تجنيه من عملك يمنحك القدرة على تلبية رغبات هذه الحرية، وأكثر الناس الذين تستهويهم الحياة في أمريكا هم المدخنون ومعاقرو الكحوليات الذين سئموا من المراقبة الصارمة من قبل محيطهم العائلي، فبمجرد وصولهم إلى أمريكا، ترى السيجارة الشقراء في متناول أيديهم، والبيرة الراقية كذلك، يقبلونها هبة من قدماء المهاجرين "عُشرائهم"، بانتظار أن يلجوا سوق العمل فيتكلّفوا بمصاريفها بأنفسهم.

فبعدما كان من ابتلى نفسه بالتدخين وشرب الكحوليات يُسكت صداع الرأس بنيكوتين سجائر "كازا" الرديئة، وفي أحسن الأحوال بسيجارة "ماركيز" في خوف تام من وصول خبر تدخينه إلى وسطه العائلي، أصبح في أمريكا يدخن السيجارة الراقية "مالبورو لايت"، إسوة بالمدخنين الأمريكيين ذوي الدخل الفاحش. أما الخمور، فبعدما كان لا يشرب في

الديار إلاّ خلسة وفي المناسبات المحددة طوال السنة لغلائها وحظرها بالنسبة الى المجتمع، فقد أصبحت الآن في متناوله وبثمن بخس، كما أن استهلاكها لم يعد في حكم المحظور بالنسبة الى المجتمع الأمريكي.

المحيط العائلي الذي كان يمارس عليه رقابة صارمة بخصوص التدخين ومعاقرة الخمور، أصبح بوجوده في الاراضي الأمريكية نائياً عن هذا المحيط المزعج آلاف الكيلومترات، ما أتاح له فرصة التدخين بكل أريحية وهو ممدّد على الأريكة يشاهد ما استجد من الأفلام السينمائية الأمريكية، يشعل سيجارته بولاّعة ثمينة، وينفض رمادها في منفضة تحفة، ثم ينفث دخانها في الهواء قبل أن يرتشف رشفة من بيرة "بادوايزر" الأمريكية الفاخرة والرخيصة في آن، وكثيرون ممن بالكاد يتذوقون البيرة في المغرب لغلائها، أصبحوا بعدما تكدست جيوبهم بالأوراق الخضراء مدمنين عليها إدماناً مرضياً.

"رشيد" الذي أتقاسم معه الشقة نفسها بالإضافة إلى ثلاثة أصدقاء آخرين، كان التحاقه بهؤلاء الأصدقاء في تلك الشقة قبل وصولي الى أمريكا ببضعة أسابيع، حيث عانى قبل ذلك من ويلات أوضاعه كمهاجر غير شرعي، جرّب معها كل المهن الوضيعة رغم أنه راكم الديبلومات وأتقن إلى جانبها لغات عدّة. وكان قبل أن يلتحق بهم يعاني من عطالة طويلة الأمد، فكانوا فأل خير بالنسبة اليه، إذ وجد عملا كنادل في أحد مطاعم المنطقة في أسبوعه الأول من إقامته معهم.

كان يبحث عن رُفقة، فوجد في شخصي خير رفيق، لكنه رفيق بعيب واحد كما يدّعي، وهذا العيب أنني لا أدخن ولا أشرب مثله ! وبفضل هذه الرفقة تعرفت كثيرا على بعض خبايا أمريكا، كما تعرفت على الكثير من أصدقائه بفضل جولاتنا بسيارته. كان مدمناً لجعّة "الباد لايت" ويدخن بشراهة سيجارة "المالبورو لايت" الطويلة، يقضي كل الليل في المناوبة

بين السيجارة والرشف من قنينة الجعة وهو يدردش مع الفتيات في موقع "فرانس أميتيي"، فكانت له بحكم ذلك صديقات عديدات في العالم الافتراضي، يسهر معهن عبر الدردشة حتى ساعات الصباح الأُوَل لينام بعدها سويعات قليلة قبل أن يستيقظ ويستحم، ثم يخرج وفي يده كيس بلاستيكي مملوء بقوارير الجعة الفارغة ليتخلص منها ويرميها في القمامة قبل أن يستأنف طريقه نحو العمل.

كانوا ثلاثة، فأصبحوا أربعة بالتحاق "رشيد" بهم، ولنصبح خمسة بوصولي، ما جعل تلك الشقة الصغيرة الرائعة في آن غير قادرة على استيعاب خمسة أفراد، فقررنا الرحيل إلى شقة أرحب في شارع "كولومبيا بايك" المعروف، كانت هذه الشقة الجديدة رائعة كسابقتها وشاسعة أيضاً، لكنها بعيدة عن مطعم "جيريس" حيث أعمل بخمسة كيلومترات، فبعدما كنت ألتحق بهذا المطعم مشيا على الأقدام وأصله في مدة خمس دقائق كأبعد تقدير، أصبحت ملزماً بركوب "الباص" لثلاثين دقيقة حتى ألتحق بالعمل في الوقت المحدّد، أما الالتحاق بعملي في مطعم "بيزيريا أونو" في واشنطن فيلزمني ركوب خطين في "الباص!".

ثلاثة ممن أسكن معهم في الشقة نفسها لم تكن لديهم مشكلة في الالتحاق بالعمل في الوقت المحدد لامتلاكهم السيارات، وبقينا نحن الاثنين تحت رحمة "الباص"، ولحسن حظنا أن هذا الأخير دقيق في مواعيده، وفي حال عطبه يتم تدارك الموقف باستبداله بآخر ! ورغم تلك الدّقة في المواعيد فانتظاره شيء مملّ، فاقتنيت دراجة هوائية لأستعملها في الذهاب إلى مطعم "جيريس" بـ" أرلينغتون" بانتظار أن يتحقق حلمي بامتلاك سيارة تسهل مأموريتي في التنقل بين البيت والعمل. والحقيقة أن امتلاك السيارة لم يكن في يوم من الأيام حلماً يراودني، كما كانت لأقراني أيام المراهقة، ففي مجالسنا عندما كانوا يطلقون العنان لأحلامهم ويصفون السيارات التي يودّون امتلاكها في المستقبل، كنت أكتفي بالحلم بدراجة نارية

فخمة بأربعة مواسير العادم "شاطمات" بعدد فصول السنة، يكون ضجيجها قويا ليسمع من مسافة كيلومترين قبل أن أصل بلدتي، بحيث يكون هذا الضجيج إنذارا لسكان البلدة كي يقوموا بإخلاء الطريق لي، وفرصة للنسوة كي يلتقطن صغارهن من قارعة الطريق حتى لا أصدم أحدهم بسبب رعونتي في السياقة!.

وقد ظل هذا الحلم يراودني حتى وصلت إلى أمريكا، حينها أحسست أنني قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هذا الحلم، خصوصاً عندما أصبحت أرى رأي العين دراجات نارية في المعايير نفسها للدراجة التي كنت أحلم بها ! إلاّ أنه مع مرور الوقت تخليت عن هذا الحلم مرغماً لسببين، أولهما أنني عندما اشتريت دراجة هوائية لأتنقل بها إلى مطعم أرلينغتون، تفاجأت ذات صباح بسرقة كرسيها وعجلتها الأمامية بينما كانت مربوطة بسلسلة حديدية مع عامود معدني، والثاني هو الزمهرير القاتل في هذه المنطقة في فصل الشتاء، حيث تصل درجة الحرارة أحياناً إلى خمس وعشرين تحت الصفر !. وأمام هذين الإكراهين اللذين أرغماني على التخلي عن حلمي في امتلاك دراجة نارية فخمة، فإنني اتجهت بحلمي شطر السيارة التي ستكون حلا ملائما لهذين الإشكالين.

إستشرت في شأن شراء السيارة "ويلسون" مديري في مطعم "أرلينغتون"، الذي كان بمثابة الأخ والمستشار الذي أثق فيه وأستشيره في كل صغيرة وكبيرة تهم الحياة في هذه البلاد الغربية، وذلك لأقدميته التي راكم من خلالها التجربة بخصوص العديد من الأمور المتعلقة بالحياة في هذه البلاد، فكنت لا أناقش رأيه اعتقاداً مني أنه هو الصواب، وفعلا فقد كان كذلك في العديد من الحالات . وهكذا اقترح عليّ "ويلسون" أن أجتاز امتحان الحصول على رخصة السياقة كخطوة أولى، على أن أُرجأ فكرة اقتناء السيارة سنة أو سنتين ريثما أراكم ثروة معقولة، ويكون لي حساب بنكي بقيمة محترمة.

الحصول على رخصة السياقة في أمريكا يمرّ عادة عبر مرحلتين، أولهما اجتياز امتحان "الكود" بنجاح، يحصل حينها المترشح على بطاقة "سائق متعلم"، ثم في المرحلة الثانية والأخيرة يتم اجتياز امتحان القيادة الذي يمنح المترشح رخصة السياقة النهائية في حالة اجتيازه بنجاح، وكلا الامتحانين في غاية التبسيط في إجراءات اجتيازهما، أما كلفتهما المادية فكلاهما يكلفان آنذاك عشرة دولارات كرسوم عن كل مرحلة ، وهو مبلغ زهيد ورمزي مقارنة بمتوسط دخل الفرد الأمريكي.

يملك المرشح عدداً غير متناه من الفرص لاجتياز امتحان "الكود"، حيث كلما فشل يمكن أن يكرر المحاولة بعد عدة أيام، أما امتحان الحصول على رخصة القيادة النهائية، فالسقوط في هذا الامتحان لثالث مرة معناه ضرورة اجتياز امتحان "الكود" من جديد كشرط لامتلاك الحق في اجتياز امتحان القيادة من جديد أيضا!.

كانت أولى الخطوات التي قمت بها لاجتياز امتحان "الكود" هي تخصيصي لبضعة أسابيع لمراجعة كُتيب مُخصص لهذا الغرض، والحقيقة أن هذا الكتيب لا يحتاج إلى كل هذا العناء لولا مشكل اللغة، لأن فهمه يقتضي من شخص مبتدئ في تعلّم الإنجليزية مثلي فك شفرة اللغة أولا للوصول بعدها إلى المعنى، وبعد إحساسي أنني قد استوعبت فحوى هذا الكتيب، قررت اجتياز الامتحان على سبيل التجربة، ليس لأنني مستعد بما فيه الكفاية، بل فضولاً مني في معرفة نوع الأسئلة المطروحة تحضيرا لليوم الذي أرغب فيه باجتياز الامتحان بجدية ما دامت تتوفر لدي الكثير من الفرص.

الحصول على رخصة السياقة في أمريكا ليس بمثل الحصول عليها في المغرب، فإذا كان الحصول عليها في أمريكا يخضع لمسطرة بسيطة وبدون تعقيدات إدارية، وتستوجب دفع رسوم رمزية، كما يتم استخلاصها في اليوم نفسه الذي قُدم بشأنها الطلب حال اجتياز الامتحان

بنجاح، فإن الأمر يختلف في المغرب إذا تعلق الأمر بالرخصة نفسها، حيث إن استخلاصها يحتاج إلى صبر أيوب ومراحل ماراتونية، يكون توأما الزبونية والمحسوبية سيدي الموقف عند كل مرحلة، حيث لا تمر الواحدة منها دون أن يُشفط خلالها جيب المترشح جراء الرشاوي أو مختلف الرسوم المرتفعة ارتفاعاً فاحشا تختفي وراء واجب التنبر أو المصادقة أو تصحيح الإمضاء، وغيرها من العمليات التي وضعت مكرًا كقنوات إلى جيب المترشح المغلوب على أمره، كما أن الحصول على وثيقة ما مرتبط بالإدلاء بوثائق فرعية من مكاتب مختلفة !.

والغريب أن هذه المفارقة بين الإدارتين المغربية والأمريكية لا تقتصر على رخصة السياقة فحسب، بل تمتد إلى أي وثيقة إدارية ولو بسيطة، كما تشمل كل خدمة يقدمها مرفق عمومي أو خاص للمواطن. ومع ذلك، فالمشهد الذي يجمع الإدارتين المغربية والأمريكية هو وجود الطوابير. طوابير خاضعة لقانون العدالة بأمريكا، بمقابل طوابير خاضعة لقانون "الغاب "في المغرب. فالأشخاص المنتظرون في الصف للاستفادة من خدمة مرفق من المرافق، لا تخضع طوابيرهم في أمريكا للمكانة الاجتماعية للمواطن ولا لنفوذه للحصول على الأولوية للاستفادة من الخدمة، فرئيس الولايات المتحدة الأمريكية نفسه ملزم بالحفاظ على مكانه في الطابور حتى ولو كان صاحب الدور أمامه مهاجر غير شرعي، أو حتى لَقيط من دون مأوى!. أما الطوابير في المغرب، فهي خاصة لعامة الناس والمستضعفين منهم ... حدث ولا حرج، يصطفون أمام الإدارة، وما إن يحضر القوي ولو جاء متأخراً حتى يمشي من دون حياء على رؤوس هؤلاء المغلوب على أمرهم، ليقف في مقدمة الطابور في غياب تام لاحترام الأسبقية وحضور قوي للنرجسية والاحتقار!.

إجتياز امتحان "الكود" حتّم عليّ الاستيقاظ باكراً ذلك اليوم حتى أكون في مقدمة الطابور، وعندما حلّ دوري تسلمت ورقة كتب عليها رقم يحدد موعد دوري لتلقي الخدمة، فبعدما ظهر هذا الرقم على شاشة في الحائط وسُمع صدى صوت المناداة عليه منبعثا من مكبرات

الصوت المثبتة في زوايا القاعة، التحقت بالشباك فسلمت الموظفة بطاقة التعريف وبطاقة الضمان الاجتماعي وظرفاً يحمل عنواني البريدي لتأكيد إقامتي في المنطقة كما طلبت، ثم قامت بإدخال معلوماتي بجهاز حاسوب الإدارة، وأمرتني بعدها بإجراء فحص النظر من خلال منظار بجانبها، حيث طلبت مني القيام بقراءة بعض الحروف عندما وضعت عينيّ على عدستي ذلك المنظار، بعدها أمرتني بمواجهة عدسة كاميرا مثبتة في أعلى شاشة حاسوبها، وأصرّت أن أبتسم قبل التقاط الصورة وهي تقول مازحة: "اجعل نفسك في الصورة تبتسم لخمس سنوات !" بعدها أرسلتني إلى شباك الحواسيب لإجراء اختبار "الكود" .

فتحت الحاسوب وأنا أريد فقط أن أطلع على نوعية الأسئلة لاكتساب الخبرة من أجل المرة المقبلة عندما أكون جديا لاجتياز هذا الاختبار، لكن المفاجأة أنني تمكنت من الإجابة على القسم الأول من أسئلة الاختبار بنجاح، لأمرّ إلى القسم الثاني الذي اجتزته هو أيضاً بكل سهولة، ورُبّ صدفة خير من ألف ميعاد، بعدها أمرتني الموظفة بالانتظار في القاعة ريثما يتم طبع بطاقتي، لينتهي مسلسل الحصول على تلك البطاقة التي تسمح لي بالقيادة بمساعدة أي شخص يحمل رخصة السياقة في ظرف ساعتين، بانتظار امتحان السياقة مستقبلاً.

تخليت عن الدراجة الهوائية التي أقودها إلى مطعم "جيريس" بعدما سرقت عجلتها وكرسيها، واكتفيت بركوب" الباص"، وأحيانا قطار ميترو الأنفاق .كان أقسى ما في ركوب "الباص" هو عند انتظاره في البرد القارس أو وسط الثلوج، وتتضاعف المِحنة عندما أتأخر لثوان فيفوتني موعده، أُلزم على إثر ذلك بانتظار التالي في نفس الظروف الشاقة.

في واشنطن كما في كل المناطق الباردة في أمريكا، يتم الشعور بالبرد فقط في الشارع، أما في البيت أو العمل أو داخل عربة "الباص" وفي جميع الأمكنة المغلقة بصفة عامة، فإن المكيفات تجعل من هذه الأماكن معتدلة الحرارة طوال فصول السنة، ففي مكان العمل مثلاً، تكون

الثياب التي نعمل بها هي نفسها في قرّ الشتاء وفي حرّ الصيف، والشكوى من تقلّبات الفصول تكون من العمال الذين يشتغلون في الهواء الطلق.

كون معظم المهاجرين يعملون في المطاعم، وبإعتبار أن هذه المطاعم تفتح يومياً كل النهار ومعظم الليل، وبعضها يفتح على مدار الساعة، جعلها تعتمد على أفواج من العمال يعملون على فترات بالتناوب، هذا التقسيم هو الذي يدفع المهاجر للبحث عن عمل فترتين في مكانين مختلفين لزيادة دخله، وذلك لتعذر تجاوز عدد معين من الساعات في عمل واحد، وهو الأمر الذي يجعل المهاجرين الذين يجمعهم سقف شقة واحدة ناذراً ما يجتمعون في نفس الشقة دون غيابات، لاختلاف أماكن عملهم وتباين أوقات التحاقهم بذلك العمل، أو حتى لجمع أغلبهم بين عملين في مكانين مختلفين، وأحيانا قد تجمعك الشقة بأحدهم لكن لن تراه إلاّ نائماً على السرير!!، ويكون الهاتف هو وسيلة التواصل لمن تعذر عليهم اللقاء في الشقة لتسوية خلافاتهم، أو الإتفاق على كيفية أداء فاتورة الكهرباء وفواتير الاستهلاك، خصوصا أن المكالمات الهاتفية عبر المحمول مجانية داخل التراب الأمريكي!.

لحسن حظنا نحن الخمسة أننا نلتقي جميعا كل ليلة بعد العاشرة، نسهر جميعا حتى الساعات الأُوَل من اليوم التالي، ويحدث غالبا أن يلتحق بنا بعض الأصدقاء ممن يسكنون بالجوار، نقضي الليل نصفنا يحتسي الشاي، والنصف الآخر يحتسي الجعة والخمر، ومعظم حديثنا هو عن الشكوى من الغربة، فلو قدر لنا أن نجتمع في المغرب في مجلس كهذا زمن البطالة هناك، لكان حديثنا كله عن حلم الهجرة إلى الفردوس الأمريكي!، وها نحن نعيش الحلم الأمريكي في الواقع فقد انقلبت معه الآية رأسا على عقب، فأصبحنا نعيش على حلم العودة إلى الديار من جديد جراء شدة الحنين، وجراء شدة قسوة الغربة، والغريب أنه لو خير أحدنا بجدية في هذا المجلس بين البقاء في أمريكا أو مغادرتها نحو الديار لاختار البقاء في

أمريكا رغم شكواه منها، لأنه كالمدخن الذي ينصحك بالابتعاد عن السيجارة، وفي منتصف حديثه يشعل واحدة منها ويسترسل حديثه معك وهو يطيل في سرد أضرارها!.

هذا المجلس حيث يكتمل حضورنا، ناذراً ما يتحقق لمهاجرين آخرين يقتسمون نفس الشقة، وهذا المجلس هو متنفسنا الوحيد من معاناتنا النفسية مع الغربة، حيث تجد آذانا تستمع إلى صوت أنينك، وتَسمع فيه أنت كذلك صوت أنين غيرك ممن يتعايش مع نفس ظروفك بانتظار يوم جديد من العمل، وفي هذا العمل تُزهر معاناة المهاجر مع الغربة.

في مطعم "جيريس" في أرلينغتون أعتدت أن أعمل في أيام الأسبوع خمس ساعات في اليوم، وهي المدة التي تغطي كل الوقت المخصص للغداء عند الأمريكيين، هذه المدة التي أعملها تتضمن ساعتين ونصف هي وقت الذروة في العمل، حيث يصطف الزبائن في طابور طويل يرغمنا قانون المطعم على خدمتهم في أسرع وقت ممكن، حيث إن الزبون بمجرد أن يدلي برغبته، نكون ملزمين على تحضير طبقه في أجل أقصاه ستُ دقائق بالنسبة إلى السلطة والساندويتشات وعشر دقائق بالنسبة إلى البيتزا.

كنت مكلفا بطبخ الساندويتشات، فكان المالك" إيريك" والمدير "ويلسون" يطمئنان عندما أكون في مواجهة صفيحة الطبخ، حيث تكون في وقت الذروة أخطائي شبه منعدمة، وسرعتي في التحضير فائقة، وقدرتي على إتقان العمل مُرضية. الإطراءات التي يطلقها المالك والمدير على مسمعي أثناء وقت الذروة، تنقلب إلى دهشة وعتاب بعد هذه الفترة التي يقلّ فيها الزبائن، ورغم ذلك تكثر أخطائي وأسقط في شرود غريب !ساندويش في خبز القمح الصلب أضعه في خبز القمح العادي ! ثم ساندويتش بدون خس أحضّره بالخس ! وأحياناً يغضب "إيريك" لهذه الأخطاء ويجتهد في إخفاء غضبه بابتسامة صفراء، لأنه يعي جيداً أن إيجابياتي في العمل أكثر من سلبياتي. ومعلوم أن المطاعم الأمريكية تكون المنافسة فيما

بينها شرسة لكثرتها وتنوعها، حيث أينما وليت وجهك ترى مطعماً، والمنافسة بينها تكون إما بإغراء الزبائن بأثمان مخفضة، أو منح مأكولات ثانوية بالمجان عند شراء أي طبق رئيس، وكنتيجة لهذه المنافسة فالزبون يعامل من طرف المدير وعماله معاملة الملوك، حيث يتم استقباله باحترام زائد ويتم تحضير طلباته في أقصى سرعة، وطلبه هذا يجب أن يكون تماماً كما يريده دون زيادة أو نقصان، ففي حالة زيادة الطماطم مثلا لطبقه دون أن يطلبها، يكون مصير هذا الطبق هو إناء القمامة ويعوّض الزبون بطبق جديد في الحال مع الإعتذار له، وكل هذا التقدير الزائد للزبون هو من أجل الحفاظ على مداومته على هذا المطعم، و تمثل كل وجبة أو طبق "خطأ" خسارة للمالك، ورغم أنه لا يمر يوم واحد من دون أخطاء، فإن هذه الأخطاء تكون غير مرغوب فيها وعلى العمال تفاديها قدر المستطاع، لهذا كان عتاب المالك والمدير مشروعاً عندما أقع في خطأ غير مبرر، وقد حدث أن سألني "ويلسون" يوما عن السرّ في عدم شرودي وقت الذروة حيث الخطأ وارد في مقابل إستسلامي لهذا الشرود في وقت لا يجب فيه أن أخطئ؟!

والحقيقة أن هذه المفارقة التي وقعت في مطبّها غريبة لا تزول غرابتها إلاّ بمعرفة سببها، فارتباطي الشديد بمسقط رأسي جعلني دائم التفكير في بلدتي، بحيث لا تمر لحظة دون أن أستحضر موقفا حدث لي هناك، أو أتخيل ملامح شخص أعرفه هناك، أو حتى أن أتخيل نفسي واقفا في مكان ما هناك. هذا الحنين والشوق إلى البلدة مسقط رأسي وصلا إلى درجة مرضية، وزادني هوساً بها هذه الآلاف من الكيلومترات التي تفصلني عنها.

ففي أوقات الذروة في العمل عندما يصطف العشرات في مطعم "جيريس"، يقتضي الأمر منا كي ننال رضاهم ونجعلهم يثقون في هذا المطعم أن نخدمهم في أسرع وقت ممكن، وبديهي أمام هذا الحشد من الزبائن ومخافة الوقوع في خطأ يرغمني على إعادة العمل نفسه من جديد أن يكون تركيزي كله صوب صفيحة الطبخ، وتوالي الطلبات يجعلني لا أجد

وقتا لأشغل به بالي سوى الإشتغال على طلبات الزبائن، وهذا التركيز وزحمة العمل هما السّر في عدم سقوطي في فخّ الأخطاء أثناء وقت الذروة، وتنقلب الآية عندما يقل الزبائن، حينها ينفصم مخي شقين، أحدهما حاضر في المطبخ يلبي رغبات الزبائن والشق الآخر يسرح في عالم الخيال، خيال أحلام اليقظة حيث يسافر بي إلى بلدتي أجوب شوارعها وزقاقها، ما يفقدني التركيز في العمل وأقع في شرود وأخطاء ساذجة أعيد معها العمل نفسه ! "ويلسون" المدير الكولومبي الذي هاجر من بلاده عشر سنين وهي المدة التي قضاها في أمريكا كمهاجر سري، كان عذري مقبولا عنده بحكم تجرعه من نفس كأس قسوة الغربة، لكنه أحياناً يطلب مني أن أشكر الله على أوضاعي القانونية في أمريكا حيث بفضلها يمكنني زيارة بلدتي متى شئت .كما يخبرني أنني مجرد إنسان بالكاد اغترب، وأنني سأتعود على الحياة هنا مع مرور الوقت.

مع مرور الوقت وبزيادة مدة اقامتي تعودت على العيش قسراً في أمريكا، لكن بين الفينة والأخرى أزداد شوقاً وحنيناً لبلدتي، إلا أن انعدام الحيلة وكابوس البطالة الذي ينتظرني في المغرب لو عدت، جعلاني أستسلم للأمر الواقع وأرضخ لمشيئة الأقدار، رغم أن الحنين يمزقني وتزداد وتيرته في التمزيق كلما طال المقام بي هنا.

ثلاثة أشهر هي أقصى مدة قضيتها خارج بلدتي، وحدث ذلك مراراً لما كنت تلميذا في الصف الإعدادي في مدينة "ميدلت" وسط المغرب، وتكررت التجربة لما كنت طالباً بكلية الحقوق في "مكناس"، حيث لا تتاح لي فرصة العودة إلى الديار إلا مع حلول عطلة كل فصل، الآن، وفي أمريكا، مرت بالضبط خمسة أشهر على إقامتي فيها، وأمل العودة إلى الديار لقضاء بعض الوقت في بلدتي يتطلب مني المداومة على العمل لأكمل سنتين هنا على الأقل.

إشتقت إلى كل شيء في البلدة، حتى قطط الشارع والكلاب الضالة لها نصيب من هذا الشوق، وحتى الحمير بل حتى روث هذه الحمير المتناثر في الطريق الذي يشق البلدة اشتقت إليه أيضاً، وكم هي غريبة هذه البلاد، حيث الحمار هو رمز أحد عملاقي الحزبين اللذين يحتكران المشهد السياسي لهذا البلد ولم أشاهد ولو حمارا واحدا في الشارع طوال الستة أشهر مدة إقامتي أستأنس برؤيته وأحاول قدر المستطاع أن أتخيل فيه حمير الديار. لهذا عقدت العزم يوما كي أذهب إلى حديقة الحيوان في واشنطن لأرى هذا الحيوان الذي اشتقت لرؤيته. هذا الحيوان المقهور في بلادنا المحتفى به في هذا البلد، حيث وصلت به الحفاوة هنا إلى درجة اتخاذه رمزا لحزب الديمقراطيين، كون هؤلاء يَرَوْن في هذا الحيوان المعجزة رمزا للصلابة والصبر وطول النّفس، بينما نحن نرى فيه البلادة والغباء والتعطش لممارسة الجنس ولو على بني جلدته من الحمير الذكور!. وأول ما فعلته بمجرد ولوجي بوابة حديقة الحيوان وسط العاصمة واشنطن أنني ذهبت مباشرة إلى إحدى الخرائط المعلقة على الحائط التي تبين تصميم الحديقة وأماكن الحيوانات فيها، لأبحث عن وجود الحمار ومكان وجوده.

الحديقة وكغيرها من الأماكن العمومية في هذه البلاد الأنيقة، تظهر أناقتها أينما أدرت وجهك فيها. مطاعم صغيرة في زاوية هناك، مراحيض متفرقة هنا وهناك، صنابير الماء البارد الصالح للشرب في كل مكان، وخرائط تدلك على مكان وقوفك وأنت تقرأها، كل هذه العناية من أجل راحة الزائر الذي لا يكلفه الدخول إلى هذه الحديقة سنتاً واحداً!.

وصلت إلى مكان تواجد الحمار، كان حماراً وحيدا في مكان أنيق، لا يشبه من فرط العناية به أكلا ونظافة حمير الديار، وقفت غير بعيد عنه أرمقه بنظرات كلها عطف وحنان وشفقة منّي على الظلم الذي يلاحق بني جلدته في بلادنا، أطلب الصفح منه في سري على الإحتقار الذي لحقه منا، والذي ورثناه أباً عن جد.

وقفت نصف ساعة أنتظر متى ينهق أو يتمرّغ في الأرض ليفجر صندوق الذكريات في ذاكرتي دون جدوى، حيث ظل منتصبا لا يتحرك من جسده غير أذنيه وذنَبه، ولما فقدت الأمل في نهيقه وثورته على الأرض التي يقف عليها ليتمرغ فيها، تركته فانصرفت أتجول في الحديقة أشاهد باقي الحيوانات، لأعود إليه مرة أخرى معتصماً بجواره عله يجود عليّ بنهيق أو تمرّغ، فبقيت أنتظر ذلك لنصف ساعة أخرى دون أن يحرك ساكنا، لأطرح السؤال :أوليس هذا الحمار من فصيلة الحمير الموجودة عندنا في الديار؟! أوَ ليست كل الحيوانات تتصرف تصرفا فطرياً موحدا بغض النظر عن الوطن الذي توجد فيه؟ هل الحمار الأمريكي يعي المكانة التي يحظى بها في هذا الوطن بصفته رمزا لحزب عملاق فتنصّل من النهيق احتراما لتلك المكانته كنوع من الالتزام تجاه من وثق به واتخذه رمزاً لحزبه؟! أم أن صوم حمير أمريكا عن النهيق نذير خلوها من الشياطين ؟!، ونهيقها في بلادنا دليل تعايش الشياطين بيننا التي لا نراها ويراها هذا الحيوان المظلوم، ونتعوّذ من الشيطان بعد كل مرة ينهق فيها كما يشرح لنا الحديث الشريف ويأمرنا أن نفعل.

السلوك المختلف الذي تبديه بعض الحيوانات من الفصيلة نفسها بين أمريكا والديار لا تقتصر فيه ملاحظتي على الحمير، بل تمتد حتى إلى الطيور، فقد شاهدت أيضاً أن عصفور "الدّوري" في الشارع وهو الذي يجعل في بلادنا مسافة بينه وبين بني البشر، بينما في أمريكا يتخلص من الخوف فيقترب منك حتى يأكل فُتات الخبز بين رجليك بكل أريحية !فأين يكمن سرّ هذا الاختلاف؟!. هل في البشر أم في الحيوان ؟!

* * * * *

خطرت لي يوماً فكرة للتخفيف عن قلبي من وطأة الغربة، وترتكز على ضرورة تدبر أمر شريط فيديو مطول لبلدتي ويستحب أن يكون لأحد الأعراس، أعيش من خلاله بعضاً من لحظات الزمن الجميل، أتخيل من خلالها نفسي حاضرا في البلدة!، وحتى أصل إلى هذا المبتغى فقد اتصلت ب "موحى" صديقي ورفيق الدراسة بمكناس، الذي يتوفر لديه أسطوانة لأحد الأعراس، وقد حَسُن ظني فيه لما رحب بالفكرة، لكن العملية ستكون صعبة حيث يوجد في تلك الأثناء بمدينة الناظور، والأسطوانة توجد في البلدة أكثر من ست مئة كيلومتر جنوباً، والمهاجر المكلف بتسلمها بالنيابة عني يوجد في الدار البيضاء، وأمام هذا الأخير أقل من أسبوعين ليعود إلى أمريكا!

كان الصديق "موحى" عند الموعد ومناسباً للموقف، ونعم الصديق من يقدم تضحيات في سبيل إسعاد صديق آخر، خصوصا إذا كان هذا الاخير يعيش مثل ظروفي في هذه الغربة القاسية .رحب هذا الصديق بالفكرة، وقررنا تنفيذها خصوصا انه لم يلج بعد سوق العمل، اتفقنا على أن أتكلف بمصاريف الرحلة وفي المقابل يتحمل معي "موحى" مشقة الطريق، حيث لم يتردّد في الاتجاه جنوبا نحو البلدة وأنا لا أكف عن الاتّصال به أقتفي أثره حتى وصلها، ومنها عاد الكرّة شمالاً نحو الدار البيضاء، وفيها سلّم الرسول أسطوانتين لعرس واحد، وكان اللقاء بينهما والتسليم في مقهى "فرنسا" الشهير.

عاد الصديق من حيث أتى وهو لا يدري حجم المعروف الذي صنعه لي. تحمل مشقة السفر يومين لإسعادي شهرين!. وقد يسخر منّي البعض حول هذه الجلبة من أجل أسطوانتين، كما قد تذهب ظنون البعض إلى التسرع بالحكم عليهما بأنهما بلا قيمة، وقد يستغرب البعض الآخر كل هذا الماراثون من أجل فيلم عرس قديم. إلا أن الأمر لا يبدو بتلك الغرابة لغريب في بلاد الغير أوصله الحنين إلى بلدته حد المعاناة النفسية المرضية، ويرى بما يشبه اليقين أن مشاهدة هذا العرس سيعمل كمُسكن لألم هذه المعاناة ولو إلى حين!.

وقد انتظرت الاسطوانتين على أحر من الجمر، وتمنيت لو يأتي الرسول في الحين ليسلمهما لي فيعود من حيث أتى ولو بدون رجعة!.

لما تسلمت الأسطوانتين، أعارني أحدُ الأصدقاء الأوفياء من مدينة "طاطا" جهاز تلفاز مركب يحتوي على جهاز ڤيديو مثبّت أسفله، ووعدته بأن أعيده له في أجل أقصاه شهران، بعدها قمت بتثبيت الجهاز في طاولة صغيرة بالقرب من سريري بحيث توجد شاشة التلفاز مباشرة في مواجهة وجهي وهي بالقرب من إحدى رجلي!. كانت سعة كل أسطوانة ثلاث ساعات، عندما أدخلت إحداهما في الجهاز، لم أخرجها منه إلاّ لإحلال الثانية محلها، وظللت أتناوب بين مشاهدتهما شهرين كاملين دون ملل.

أدمنت الفرجة على هذا العرس أكثر من إدماني على شرب الماء، وكان وقت المنام ووقت الاستيقاظ مثاليين لمشاهدته، فكنت بمجرد أن أتمدد على السرير للنوم، أضع وسادتين وراء النصف الأعلى من ظهري ومؤخرة رأسي حتى يتعامد وجهي مباشرة مع شاشة التلفاز التي أشعلها بإبهام الرجل لأبدأ مشاهدة العرس بخشوع الصلاة، أسبح بخيالي في عالم الأحلام العسلية، أحاول أن أعيش تلك اللحظات الجميلة في زمانها، حيث كنت حينها من بين المدعوين لحضور ذلك العرس. كنت أحيانا أتعمد إيقاف الصورة على الشاشة لأتعرف على كل شخص ظهر فيها، ثم انتقلت إلى التركيز في جمادات الفيلم من بنايات وشجر، وحتى أعمدة الإنارة! وبقيت على هذه الحالة أتفرج على العرس من دون كلل أو ملل، كأنني عطشان أروي عطشي من ماء مالح! حتى بدأت ألوم مصوِّر الفيديو على عدم استدارته لأرى منزل فلان أو الشجرة تحت بيت فلان، ألومه لماذا لم يترك العرس ليقوم بجولة بالقصر يصوّر من خلالها زقاقها وجبالها ثم حقولها، إنه جنون الشوق الذي أعيشه ويعيش على إيقاعه أغلب المهاجرين وبدرجات متفاوتة، ولا يستثني منهم إلا من يرى في المال كل شيء وبه وحده تتحقق السعادة الدنيوية!.

وحتى ننصف أبناء بلدتي وكل البلدات النائية في المغرب الذين اغتربوا في الخارج في التسعينيات وما قبلها، فإنهم بلا شك قد تذوّقوا من عذاب الغربة ألواناً، ولا يمكن بأي حال قياس معاناتنا اليوم بمعاناتهم في زمن اغترابهم، حيث إنه بمجرد مغادرتهم باتجاه المهجر، تنقطع صلتهم بوطنهم انقطاعا شبه تام، حيث ينعدم الهاتف في المناطق المغربية التي غادروها مكرهين نحو ديار الغربة، وفي الضرورات القصوى التي تمثلها حالة الوفاة دون غيرها، يقصد أقرباؤهم في المغرب إحدى المدن لإخبارهم بهذا المستجد، أما إذا تعلق الأمر بموت شخص آخر من غير معارفهم فإنهم لا يعرفون بهذه الوفاة حتى تتحول جثة المتوفى تحت الأرض إلى رميم وينبت العنّاب على قبره!، أما باقي الأخبار والمستجدات، فيتم تبادل تفاصيلها برسائل البريد التي لا يتم تسلمها إلاّ بعد أسابيع طويلة! كما كان العرف في تلك الفترة يقتضي توديع المهاجر إلى خارج أرض الوطن وداع الميت، واستقباله عند عودته استقبال المولود الجديد، فكان عزاؤنا الوحيد نحن المهاجرين الجدد في هذه التكنولوجيا التي قزّمت المسافة بيننا وبين أوطاننا. فنحن على الأقل نستفيد كما يستفيد مهاجرو الوقت الحالي من التطور التكنولوجي الذي جعل العالم كقرية صغيرة، حيث أصبحت الهواتف متوفرة بأثمان في المتناول والمكالمات بدورها أضحت رخيصة الكلفة، لتكاثر شركات الاتصال ومنافستها الشرسة بين بعضها البعض، فالميسنجر والهواتف الذكية جعلا من المكالمات الصوتية شيئا تقليديا، فبفضلهما أصبحت المكالمات مباشرة بالصوت والصورة! كل هذا جعل المسافة بيننا وبين الوطن قصيرة جداً، حتى إن بعض الأخبار تصلنا من أصدقائنا موثقة بالصورة وحتى بالفيديو قبل أن يعمّ الخبر في البلدة!. في انتظار تكنولوجيا أكثر تطورا، تتيح لنا تسلّم كأس شاي مباشرة من يد مخاطبنا على الشاشة وهو في الديار!.

ورغم هذا التطور الذي خفّف عن المهاجرين من وطأة الغربة خصوصاً المغتربين منهم في الديار الأوروبية، فإننا نحن المهاجرين في الديار الأمريكية نعيش وضعاً خاصاً، فحتى و لو

اعترفنا بدور موجة التكنولوجيا في التخفيف عنا من هذه القسوة، إلا أن صعوبة الغربة تنال منا رغم ذلك، بحكم أننا نعي جيداً طول المسافة وحجم المحيط الذي يفصلنا بالديار، إضافة إلى نمط الحياة الغريب في أمريكا، والذي يحتاج إلى وقت طويل للتأقلم معه، فأمريكا ترغم المهاجر على الانخراط في حياة الأمريكيين التي لا يعلو فيها شيء عن العمل ولا شيء غير العمل، لتسديد الفواتير العديدة والمترددة شهريا والتي لا ترحم الكسالى .فروتين العمل في هذا البلد لا يعرف التوقف حتى في عطل نهاية الأسبوع، لأن فرصة زيارة الديار من جديد، تتوقف على القدرة على تحمل التكاليف المادية المرهقة في أمريكا، إلى جانب القدرة على توفير قدر من المال الذي يسمح بهذه الزيارة، وهذا القدر من المال يقدر بالملايين من السنتيمات التي فرضتها هذه المسافة الطويلة التي تفصلنا عن الديار، وزيارة الديار في أحسن الأحوال تكون نادراً كل سنة، وعادة كل سنتين، وقد تزداد المدة أكثر مع الزواج الذي يرفع تكاليف الحياة إلى سقف يجعل توفيرها حرباً حقيقية مع الزمن الذي لا يرحم.

* * * * *

بكل صراحة، فقد كنت أرتاح للعمل في مطعم "جيريس" ب"أرلينغتون" للعلاقات الجيدة التي تربطني بالمالك والمدير وباقي العمال، ولكون زحمة العمل تكون فقط لساعتين أو ثلاث تعقبها فترة راحة شبه تامة، أما المطعم الذي أشتغل فيه عطلة نهاية الأسبوع في واشنطن، فرغم روعة مديره الإيراني وإنسانيته التي تفوق كل تصور، فقد قررت مغادرته بحثا عن الأفضل، لأن العمل فيه يحتاج إلى جهد بدني عال، لكون إيقاع العمل هو نفسه طوال ساعات الشغل، وزاد الأمر تعقيدا كون هذا المطعم يقع في ثلاثة طوابق، ويوجد مطبخه في القبو، وعليّ بحكم طبيعة عملي أن أقطع كل هذه المسافة ذهاباً واياباً لساعات طوال! ورغم أن أجرة المطعم رائعة إلاّ أن لكل شيء رائع دائماً شيئاً أروع منه!. وقبل أن أغادر فقد قررت البحث أولا عن عمل بديل.

يعمل البعض من أصدقائي في مطعم "ماجيانوز" ذو الطبخ الإيطالي الأمريكي، ومنهم "عصام" الذي أقاسمه السكن في الشقة نفسها، هو أحد المطاعم التي كنت أحلم بالعمل فيها آنذاك، للأموال الكثيرة التي يدرّها على العمال فيه مقارنة مع جهدهم المبذول في ذلك العمل، وهو مطعم كباقي المطاعم الكبرى في أمريكا، يخضع للزبونية في تشغيل العمال الجدد فيه، لكنها ليست تلك الزبونية بمفهومها المغربي، حيث أن مدير المطعم غالباً ما يسأل عماله في حالة حاجته إلى عمال جدد إن كانوا يعرفون أحدا يستطيع العمل في ذلك المطعم، وهي طريقة يضمن بها هذا المسؤول الحصول على عمّال قدمت بشأنهم ضمانات من طرف أصدقائهم الذين يعملون تحت إمرته، وأيضاً هي طريقة تضمن لهذا المسؤول تجنب تشغيل عمال جدد بصفة عشوائية، فيكتشف أثناء عملهم أنّ التجربة تنقصهم أو لا يتحملون الجهد البدني الذي يقتضيه القيام بذلك العمل.

وعدني يوماً "عصام" بأنه سيبذل قصارى جهده ليشغلني في ذلك المطعم، والذي يعمل فيه أربعة أيام في الأسبوع، فاحتفظ بذلك الوعد لي حتى اليوم الذي أراد فيه الالتحاق بمدرسة الراغبين في الحصول على رخصة سياقة الشاحنات، فتعذر عليه بعد تسجيله في تلك المدرسة الجمع بين الدراسة إسوة بالعمل في ذلك المطعم يومي الأحد والاثنين، حينها أخبر "عصام" مديره بأمر المدرسة وبأمر إمكانية إحلالي محله في العمل.
رحب المدير بالفكرة بعدما اشترط عليه أن يقابلني أولا على سبيل الاختبار ومناقشة بعض الجوانب المرتبطة بالعمل، كما اشترط عليه أن لا يغادر حتى أخضع للتدريب على يده ثلاثة أيام.

بعد طول تفكير قررت الاستمرار في العمل بمطعم "جيريس" في أرلينغتون والتخلي عن العمل في مطعم "واشنطن" لأعوضه بالعمل في "ماجيانوز" الذي يوجد هو

الآخر في العاصمة "واشنطن" وبالضبط في شمالها الغربي بمحاذاة حدودها مع ولاية "ماريلاند" والذي يبعد عشرون كيلومتراًعن مقرّ سكني بأرلينغتون.

كان قرار التخلي عن العمل في المطعم الذي يديره الإيراني في واشنطن صعبا عليّ بحكم العلاقة الجيدة التي تربطني معه، وصعبا عليه لأنني منذ بداية عملي في ذلك المطعم لم أخلق أيّة مشكلة، كما لم أتغيب لساعة واحدة، ومحترما لمواعيد العمل بدقة، فأصرّ على بقائي مع مكافئتي برفع الأجرة، وهو الأمر الذي شكرته عليه ورفضته في الوقت نفسه، واعداً إياه بالبحث عن عامل جديد يعوض رحيلي، فكان أن احتلّ "الحسين" ابن بلدتي والذي بالكاد وصل إلى أمريكا مكاني في ذلك المطعم.

مطعم "ماجيانوز" هو مطعم عملاق، تملك الشركة التي تسيّره في ذلك الوقت قرابة تسعين فرعا من هذه المطاعم موزعة على مختلف ولايات أمريكا، وتقوم بافتتاح مطعم جديد أو اثنين كل سنة.

يقع فرع مطعم "ماجيانوز" لواشنطن العاصمة في شمالها الغربي على بعد أمتار قليلة من مدينة "باثيسدا" التابعة لولاية "ماريلاند" وهو عبارة عن بناية من طابقين، الطابق الأرضي خاص لعموم الناس من أصحاب الحجز والمارة على السواء، ويتكون هذا الطابق من قاعة فسيحة جدا وزاوية يشغلها "بار" ثم مطبخ فسيح، أما الطابق العلوي فمخصص لأصحاب الحجز المسبّق لأجل عقد الاجتماعات أو الاحتفالات، وهو مكون من عدة قاعات فخمة غالبا ما يرتادها رجال السياسة ورؤساء الشركات لعقد اجتماعاتهم فيها.

يعمل في المطعم عشرات العمال من مختلف الجنسيات، ويديره مدير رئيس وثلاثة مديرين مساعدين، والشيء نفسه ينطبق على الطابق العلوي، وأغلب عمال المطبخ هم من المهاجرين

السريين لصعوبة إقناع ذوي الوضعية القانونية بالعمل في المطبخ لمدة طويلة، و"ماجيانوز" كغيره من المطاعم الأمريكية، ولأن هذا المطعم تعمل فيه عمالة من جنسيات مختلفة، فقد يحدث أن يكون زميلك في العمل من قُطر لم تسمع به أُذنك قط !فأمريكا هي بلد المهاجرين بامتياز، ليس مستبعداً أن يوجد بها مواطن عن كل جزيرة من جزر أرخبيل "المالديف .!" كنت أتمنى لو يتاح لي مقابلة هذا الكم الهائل من مختلف المهاجرين يوم كنت مولعا بجمع العملات والطوابع البريدية، حيث ستكون في متناولي طوابع بريدية وأوراق مالية عن كل دولة من دول المعمور!.

تتجاوز مبيعات المطعم ثلاثين ألف دولار في اليوم، أما رقمه القياسي فحققه في أحد أعياد الأم حيث وصلت المبيعات حينها إلى مئة واثنين وأربعين ألف دولار في يوم واحد! ويسهر على خدمة الضيوف عدد كبير من النّدل ومساعديهم وحاملو الأطباق والساقي "البارتاندر " ومساعدو هذا الأخير، ويؤدي المدير ومساعدوه دور "الجوكر"، حيث يملؤون فراغات باقي الخدم. وكما هو الأمر بكل المطاعم الأمريكية، فعندما يلج الضيوف مطعم "ماجيانوز" يكون في استقبالهم مضيف المطعم الذي يدلهم على مائدتهم، ويقدم لهم بمجرد جلوسهم حول المائدة لوائح المتوفرات لدى المطعم، ثم ينصرف لحال سبيله فاسحاً المجال أمام النادل ليكمل عمله بخدمتهم، هذا الأخير يرحب بضيوفه ويشكرهم على اختيار هذا المطعم، ثم يضع نفسه رهن إشارتهم، يلتقط الرغبات منهم ليدونها في ورقة ويجيب عن كل استفساراتهم بخصوص الأطباق والأثمان ثم يقترح عليهم أطباقاً ذات أثمنة خاصة، وفي الوقت نفسه الذي يسجل فيه رغبات هؤلاء الضيوف يقوم مساعده بملء كؤوسهم بالماء المثلّج.

ينصرف النادل بعد أخذ رغبات ضيوفه نحو زاوية من زوايا المطعم حيث توجد الحواسيب اللوحية التي يستعمل أحدها لإدخال محتوى الورقة التي دوّن فيها تلك الرغبات، إذ يقوم أولا بفتح صفحة " البار" لإدخال طلبات المشروبات الكحولية والعصائر وكذا المشروبات الغازية،

ثم صفحة المطبخ التي تتفرع بدورها إلى صفحة الأطباق الرئيسة وصفحة السلطات والأحسوّة، ثم صفحة الفواكه والحلويات، وعندما تكون اللائحة كاملة يقوم بمراجعتها قبل النقر على خانة "إرسال" حيث ترسل هذه الطلبات على شكل أوامر الكترونية منفصلة يرسل بعضها نحو البار وبعضها الآخر نحو المطبخ حيث توجد بجانب كل طبّاخ آلة طبع صغيرة تطبع له أوامر النادل بخصوص ما هو مختص بطبخه دون غيره!.

بإنتظار جاهزية الأطباق، يمدّ النادل ومساعده ضيوفهما بالمشروبات الغازية والخمور والجعة التي طلبوها، ثم صحن زيت الزيتون والزبدة والخبز لفتح الشهية. وعندما تكون الأطباق جاهزة، يقوم حامل الأطباق بحملها كاملة نحو المائدة حتى لا يأكل بعض الضيوف وينتظر البعض الآخر أطباقهم، وفي حالة كثرة الضيوف حول المائدة، يساعد حامل الأطباق زميله في هذه المهنة، وقد ينظم إليهما النادل ومساعده، وحتى المدير ورئيس المطبخ إذا اقتضى الحال. و إلى هنا يكون عمل النادل قد انتهى، فيكتفي بزيارة ضيوفه دوريا ليسألهم إذا رغبوا في المزيد أو يحتاجون الى مساعدة، أما مساعده فيقوم بجمع الأطباق المفروغة منها، ويملأ كؤوس الماء الفارغة كذلك.

يدفع الضيوف نقداً أو ببطاقة الائتمان البنكي، ويكونون ملزمين بمكافأة النادل على عمله بإكرامية حددها القانون في حدود العشرين في المئة من قيمة الفاتورة، يمكن أن يتجاوزها الضيف حسب كرمه، ولا يحاسب إن رفض دفعها، لأنها حتى ولو كانت قانونية فلا يعاقب على عدم منحها، لأنها من صميم الأشياء التي ترتبط بضمير هذا الضيف. هذه الإكرامية التي تسمى البقشيش، تنقص وتزيد حسب تقييم الضيف لعمل وكفاءة النادل، يدفع عليها النادل الضرائب لأنها تمثل حصة الأسد من دخله، كما يقوم النادل باقتطاع جزء منها كمكافأة لمساعده وحامل الأطباق والساقي ومعد القهوة، أما الطباخون فلهم أجرة خاصة

ولا يدخلون في إطار المستفيدين من البقشيش، بينما المديرون ومساعدوهم ورؤساء المطبخ، فلهم أجر سنوي قار يكون في معظم الحالات مصحوبا بالمكافآت والعلاوات.

في هذا المطعم سأعمل أول الأمر ليومين مكان "عصام" كمحضر لأنواع القهوة، باستعمال آلة تحضير مركونة في زاوية المطبخ، تتيح لي مراقبة ما يجري داخل المطبخ وما يجري في قاعة الضيوف على السواء، يومين كلّ الأسبوع بانتظار انضمامي لأعمل كمساعد نادل لأيام إضافية في القريب العاجل.

باستثناء المدير الرئيس وبعض الندّل والنادلات، فكل العمال من دول العالم الثالث، أمريكيون لاتينيون في المطبخ، وأمريكيون لاتينيون أيضا وأفارقة وآسيويون كندل ومساعدوهم، ورغم وجود قانون صارم ينظم سير العمل داخل المطعم يسهر المديرون على تطبيقه خوفا من كبار مراقبي الشركة الأم، فهذا لا يمنع عمال المطعم من دول العالم الثالث من الوفاء لعادتهم في حب الاغتناء من دون سبب وبأي طريقة، خصوصاً منهم النّدل الذين تمر عبر جيوبهم أموال المطعم بصفتهم يمثلون صلة الوصل بين هذه الأموال المدفوعة من طرف الزبائن والمطعم، ولا يمنعهم من السرقة إلاّ صرامة القانون وجدّية تعامل المديرون مع أيّ خروج على هذا القانون، والذي رغم وجوده ورغم الأموال التي يجنيها هؤلاء النّدل من هذا المطعم والتي ينافسون بها أموال قارون، فإن أغلب من طُردوا من هؤلاء قد تم طردهم على خلفية التلبّس بالسرقة .وإذا استثنينا النّدل الذين يمثل غالبيتهم كبار اللصوص، فإن باقي العمال الذين لا تصل أيديهم أي أموال بإمكانهم سرقتها يقومون في الغالب بالنشل، نشل المناديل وستائر الموائد والصحون والملاعق والشوكات والكؤوس وحتى زيوت الزيتون والزبدة ! كما تمتد أيدي بعضهم إلى ما نسيه الضيوف من أغراض شخصية بعد المغادرة، والتي غالباً ما تكون عبارة عن أجهزة إليكترونية، كالهواتف الخلوية وأجهزة

موسيقية وكاميرات رقمية!!. أما طرق النّدل في السرقة فهي عديدة، أشهرها هي إلغاء موائد الضيوف الذين دفعوا نقداً ! فكيف ذلك؟.

في إطار خدمة النادل لضيوفه، فوارد أن يخطئ أحيانا في اختيار طبق الضيف، أو يطلب من المطبخ شيئا لم يطلبه الضيوف لسوء تفاهم وقع بينه وبين أحدهم، هنا يتوجب عليه القيام بإلغاء الطبق وتعويضه بآخر، والعملية تتم عبر تصحيح الفاتورة أولا في الحاسوب، وبديهي أن يكون المدير هو من يتكلف بأي تغيير أو حذف شيء في تلك اللائحة عن طريق رقم سري مثبت في بطاقة مشفرة يمررها في قناة موجودة على حافة شاشة الحاسوب، وتمرير هذه البطاقة يمنح للمدير الضوء الأخضر لتغيير اللائحة وحذف ما يريد الضيوف إلغاءه منها، وهذه الطريقة في حصر تعديل اللائحة على المدير دون غيره، هي ضمانة كي لا يتصرف النّدل في اللوائح بما يرضي الزبائن، كتقزيم فاتوراتهم لنيل أقصى قيمة من البقشيش !لكنه قد يحدث في العديد من الأحيان وبالضبط في وقت الذروة أن يكون المدير مشغولا جدا بما هو أهم من ترك عمله المهم لمجرد حذف طبق من فاتورة، وهنا يعمد إلى تسليم بطاقته للنادل ليقوم بالحذف عوضاً عنه، في ثقة يجب أساسا أن تكون بين المدير ومستخدميه، لكنه يحدث أحيانا أن يخون النادل هذه الثقة فيقوم بحذف فاتورة كاملة لمائدة سابقة دفع ضيوفها نقداً وإلغائها نهائيا من نظام الحاسوب لتستقر أموالها في جيب هذا النادل، ولحسن حظ هذه العينة من النّدل عديمي الضمير، أنه في حال ضبطهم أو اكتشافهم متلبسين بإتيان هذا الجرم، يتم فقط طردهم دون متابعتهم قضائياً كما يجب أن يكون أصلاً!.

بعض النّدل وللأسف الشديد من بلاد المغرب الكبير، يعمدون إلى طريقة أكثر مكراً لأكل أموال الناس بالباطل في هذا المطعم، وذلك باستدراج مضيف المطعم من طرف النادل الجشع وإقناعه بالرشوة أو بغيرها من الوسائل، مقابل أن يمنح هذا المضيف موائده ضيوفاً يظهر أنهم

كرماء ومن علية القوم، أو ضيوفا بأعداد كبيرة حتى يستفيد من أكبر قدر ممكن من البقشيش، وأكل أموال الناس بالباطل بهذه الطريقة يظهر في التوزيع غير العادل للضيوف بشكل يستفيد منها النادل الأناني الجشع على حساب النادل الخجول المستسلم لقدره!.

كانت "ستيفاني" نادلة أمريكية شقراء، ابتلاها الله بما ابتلى به عباده من مهاجري دول العالم الثالث، الذين ابتلاهم بمرض الجشع وانعدام القناعة .فابتكرت طريقة أكثر دهاء ومكرا في سرقة نقود المطعم، حيث تنتظر عادةً حتى تنتهي من العمل، فتبدأ في العويل والصراخ مدعية أنها فقدت كل أموالها بما فيها أموالها المخصصة لفواتير دراستها الجامعية التي اصطحبتها معها للعمل! فتبكي في مشهد سينمائي متقن التمثيل، فيأتي المدير الذي انطلت عليه الحيلة ليهدّئ من روعها ويخبرها بإلغاء فواتير ضيوفها، فتنال هي كل تلك الأموال ببقشيشها كاملا دون خصومات منها لمساعدها وآخرين ممن يستحقونها بدعوى أن فاقد الشيء لا يعطيه، وقد قامت هذه النادلة بتطبيق هذا المقلب مرة ثم مرة أخرى، حينها فطن المدير لمقلبها فقام قبل إلغاء فواتير زبائنها في المرة الثالثة أن همس في أذنها بأنه لن يفعلها المرة المقبلة، وإن حدث وفقدت المال فعليها أن تدفع من جيبها أموال المطعم!.

تعرفت في هذا المطعم على العديد من الأصدقاء من مختلف الدول خصوصاً التونسيين منهم، وأذكر منهم " بن حسين" ابن مدينة "جربة" الذي مكث في هذا المطعم نادلاً لعشر سنين بطريقة غير قانونية إلى أن غادره نهائيا إلى تونس جراء حنينه إلى مسقط رأسه وهو من يستحق العمل على أعلى مستوى، لثقافته الواسعة ولإتقانه الجيد للإنجليزية والفرنسية والألمانية إتقاناً كأنه قد عبّ من كأسها، ومازلنا إلى اليوم نتواصل عبر الفايسبوك، حيث يعمل كنادل في أحد اليخوت الراقية التي تربط بين أوروبا وأمريكا اللاتينية.

في هذا المطعم كذلك يعمل الجزائري "أحمد" الذي يشتغل في "البار" مساعداً للسّاقي، وهو الذي يقيم كذلك في أمريكا بصفة غير قانونية حيث ادعى أنه أتى إلى أمريكا مختبئاً في باخرة شحن جاءت من ميناء "وهران" واستغرقت شهراً للوصول إلى ميناء "بالتيمور!". ويعتقد كل من في المطعم أن قصة "أحمد" هذه هي مجرد هذيان شخص كثير المبالغة، ولكن حسب تجربتي معه، فقد أثبت في أكثر من مناسبة أنه لا يعرف للطموح حدوداً، فهذا الشخص الذي بالكاد يستطيع أن يكتب اسمه بصعوبة باللغة العربية فما بالك باللاتينية لكونه انقطع عن الدراسة في سنته الثانية ابتدائي، ارتقى في العمل إلى حيث لا يمكن لشخص في نفس ظروفه أن يرتقي!. فقد حدث بما يشبه الإعجاز أن تسلح "أحمد" بالعزيمة والإرادة فارتقى من مساعد "الساقي" إلى نادل، رغم أن مهنة النادل تشترط القراءة والكتابة بالإنجليزية لتدوين رغبات الضيوف على الورقة أولاً، ثم القدرة على التعامل مع الحاسوب بسلاسة لإدخال محتوى الورقة فيه ثانيا، فكيف ارتقى صديقنا "أحمد" إلى مكانة لو علم المدير بأمّيته ما سمح له بالرقي إليها!.

ولج "أحمد" هذا المطعم كمساعد نُدل، ومنه ارتقى ليصبح مساعدًا للسّاقي الذي يتفوق على مساعد النّدل في قيمة البقشيش، وهناك في "البار" استطاع أن يتعلم الانجليزية ويتحدثها بطلاقة بفعل احتكاكه الدائم مع الزبائن الثرثارين بمفعول الكحول، فأتقن الانجليزية نطقاً بفضلهم دون استطاعة أن يقرأها أو يكتبها!. وفي "البار" كذلك قدّم عربون ذكائه الخارق، حيث يقوم بتهريب قناني الخمر الفاخر عن طريق وضعها في صندوق النفايات للبار الذي يخرجه كجزء من عمله من الباب الخلفي للمطعم حيث توجد الحاوية الكبيرة للنفايات المركونة بجانبها سيارات العمال بالمطعم، فيقوم بعزل القناني المهربة ووضعها في سيارته قبل التخلص من النفايات، ليعود الكرّة لاستئناف عمله!.

مع توالي السنين، قرر أن يدخل تحدِياً جديداً اعتبرته شخصياً مستحيلاً، حيث ارتقى إلى مرتبة نادل دون أن يدري المديرون بأمّيته. كان يستقبل ضيوفه بكل ثقة ويشرح لهم الأطباق بكل تفاصيلها، يسألهم ويدوّن في كُتيب صغير رغباتهم، ولأنه أُمِّي فإنه يدونها على شكل رموز كأنه يكتب بالكتابة المسمارية القديمة!. و بعدها ينادي أحد النّدل من أصدقائه ليساعده في إدخال طلاسيمه التي دونها بمذكرته في الحاسوب، وعندما يبدأ النادل الذي تطوع لمساعدته بفتح الصفحات على شاشة الحاسوب، يركّز معه "أحمد"، فيحفظ خطواته في تعقب الصفحات لانتقاء ما يرغب فيه ضيوفه، فعندما يفتح النادل الذي يساعده الصفحة الرئيسة، تظهر له عناوين الصفحات الفرعية، وبفتح واحدة منها تظهر محتوياتها على شكل خانات عددها بالعشرات، كل خانة يكتب فيها اسم المشروب أو الطبق، ولم تمر ثلاثة أشهر حتى تعرف "أحمد" على محتويات كل صفحة على الشاشة من حدة النظر وقوة الذاكرة، استطاع بعد هذه المدة أن يعتمد على نفسه في إدخال رغبات الضيوف في الحاسوب دون مساعدة، ليس فهما لما هو مكتوب في كل خانة من خلال قراءته لها، بل لتذكره الجيد لمحتوى كل خانة من خلال موضعها في هذه الصفحة! إنه الشخص الطموح الذي لا يعرف معنىً لكلمة مستحيل ولا يعرف للطموح آفاقاً تحدده.

III

صورة أمريكا من خلال أفلامها السينمائية، هي صورة كاذبة يكتشف زيفها من خبر واختبر الحياة على أرضها، ورغم هذه المفارقة بين واقع أمريكا وحقيقة الصورة التي يتم تسويقها لها من خلال أفلامها، فهناك حلقات تربط بين الاثنين فتجعل من بعض المشاهد في السينما الامريكية واقعاً معاشاً في حقيقتها.

الشرطة الأمريكية، كما تظهر في الأفلام السينمائية، هي صورة طبق الأصل لحال الشرطة في الشارع الواقعي لأمريكا. فالشرطي كما يظهر في هذه الأفلام، هو كذلك في واقع الأمر. شخص في لباس أنيق تظهر الشارة المعدنية البراقة بارزة على صدره، مدجج بأنواع من الأسلحة الخفيفة المثبتة جنبا الى جنب حول حزامه، يحمل مسدسين وخرتوشي تعبئة إضافيين، أصفاداً، عصا قابلة للتمدد، قارورة رذاذ حار، وأحيانا مسدساً إضافياً في جراب

مثبت حول الركبة ! وعلى كتفه جهاز إرسال لا يكف عن إصدار التعليمات ولو كان هذا الشرطي في استراحة!.

يرتدي الشرطي الأمريكي قبل خروجه للعمل سترة معدنية واقية من الرصاص، تلفّ جسمه من حزامه حتى كتفيه، ولا ينسى أن يضع بندقيته الكبيرة في الصندوق الخلفي لسيارته! وكلها احتياطات تنذر بمواجهة الشرطة لبعض المواقف الصعبة في بعض الأحيان، وذلك لانتشار تداول الأسلحة بصفة غير قانونية، خصوصا بين أفراد العصابات وأباطرة المخدرات ما يقتضي مواجهة هذه المواقف بحزم.

وحتى أتفه الأشياء تتعامل معها الشرطة الأمريكية كذلك بجدية. فقد حدث يوما وأنا أقوم بعملي داخل مطعم "جيريس" أن دخل مختل عقلي قبيل وقت الذروة فطلب ساندويتشا، ليقف بعدها بمحاذاة الجدار القصير الذي يفصله عن المطبخ يراقب تحضير طبقه. بعد ثواني، دخلت امرأة مفرطة البدانة، طلبت هي الأخرى ساندويتشا ثم بدأت تجيب عن أسئلة العامل وراء شاشة الكومبيوتر حول ما ترغبه بأن يكون بساندويتشها، حيث اشترطت كمية مضاعفة من "المايونيز" الأمر الذي جعل المختل الذي وقف بقربها يسخر منها مخاطباً إياها : " أنت أصلاً بدينة فلماذا هذه الكمية المضاعفة من المايونيز!!؟؟ " اندهش من في المطعم لتهوّر هذا الفضولي المائق، فتدخل المالك بغضب فأمره أن يطلب منها الاعتذار أو يتصل بالشرطة، أما المرأة البدينة فقد انفجرت بدورها غضباً وهددته بما لا تحمد عقباه أو الاعتذار.

أصرّ المختل على رفض الاعتذار، وهو ما حدا بالزبونة أن طلبت من المدير أن يتصل بالشرطة. ومركز شرطة "أرلينغتون" لا يفصله عن مطعم "جيريس" سوى ساحة فسيحة عبارة عن مرأب سيارات. فبمجرد أن اتصل بهم المالك ووضع السماعة مكانها التحق بالمطعم على وجه السرعة شرطي وشرطية، وعلى طريقة الأفلام السينمائية، أمر الشرطي الرّجل المختل أن

يقف منتصباً ويرفع يديه نحو الأعلى، فأخذ يفتشه من الأعلى نحو الأسفل بعدها ارتدى زوج قفاز أزرق لاصق بحثا في جيوبه عن أي شيء محظور، لأن حالته غير العادية ربما تكون بمفعول الماريغوانا أو إبر التخدير. وبينما هذا الشرطي يقوم بتفتيشه، وقفت الشرطية زميلته وراءهما منتصبة وجاعلة مسافة بين رجليها ويدها اليمنى فوق المسدس على طريقة المبارزات الثنائية في أفلام "الويستيرن !". كان المختل يقف تماما في منتصف المسافة بيني وبين الشرطية الواقفة وراءه على أهبة الاستعداد لإخراج المسدس من جرابه، ومن هول هذا المشهد الذي ألفته فقط في الأفلام، وخوفا من أن يُطلق عليه النار فينحني فيما يشبه المراوغة فتخطئه الرصاصة فتخترق جسدي الذي نهشته أصلا حمم بركان الغربة، فقد انصرفت خلسة إلى زاوية بعيدة حتى لا أكون هدفاً لرصاصة طائشة.

بعدما تم تفتيشه، قام الشرطيان باقتياده نحو خارج المطعم دون أن تعطى له حتى فرصة تسلم وجبته الجاهزة. حينها سألت المدير حول ما إذا كانت الشرطية جدية في إخراج المسدس والضغط على الزناد ليلعلع الرصاص في مكان عام كهذا، ليبدد مخاوفي مذكراً إياي أن المسدس المراد استعماله من طرف الشرطية، هو مسدس الصّعق الكهربائي الذي يستعمل عادة لشلّ حركة المتّهم في حالة عصيانه للأوامر أو حاول الفرار. على أيّ، فقد كنت محقا عندما تواريت في زاوية معزولة خوفاً من المسدس، فالرصاصة الحية والصعق الكهربائي سيان، وحتى السكاكين والثعابين السامة كلها أشياء بديهي أن يخاف منها الإنسان.

تضع المراكز الأمنية في أمريكا الحالة الأمنية للبلاد في سلم على شكل ألوان، كل لون يرمز للحالة الأمنية التي تعيشها البلاد، حيث تتغير الألوان من الأخضر نحو الأحمر طبقا لارتفاع احتمال وجود ما يهدد أمن البلاد، وتتعامل كل الفروع الأمنية الأخرى مع كل حالة رصدتها

هذه المراكز بجدية كبيرة. فعندما يتم رفع التأهب مثلا إلى الدرجة القصوى التي يجسدها اللّون الأحمر، يتم التعامل مع أي شبهة ولو تافهة بمنتهى الجدية.

فقد حدث يوما، وفي ساحة مرأب السيارات التي تفصل مبنى الشرطة ومطعم "جيريس" أن توصلت الشرطة بإنذار مفاده وجود سيارة مشبوهة مركونة في ذلك المرأب، وفي رمشة عين تم تطويق هذا المرأب حيث توجد تلك السيارة المشبوهة، ليتحول معها ذلك المكان إلى ما يشبه عشّ الدبابير لشرطة "أرلينغتون" بمختلف تلاوينها، حيث تم استقدام حتى شرطة علم الاجرام والمختبرات المتحركة، وتم تحليل السيارة لستّ ساعات متواصلة، بحيث لم يغادر رجال الشرطة ذلك المكان كما لم يسمح لأي كان بإخراج سيارته من ذلك المرأب حتى تم التأكد أن الإنذار كان كاذباً!!.

* * * * *

التغوّط والتبول في الشارع وفي الأماكن العامة، سلوك حيواني يعاقب عليه الفرد في أمريكا في حالة ارتكابه !فحتى الحيوانات المستأنسة خصوصاً منها الكلاب، خصصت لها أكياس خاصة تباع وتعطى بالمجان تستعمل لجمع فضلاتها في حالة تغوّطها في الأماكن العامة لتوضع في حاوية من حاويات القمامة المنتشرة أينما وليت وجهك، ويعاقب مالك الحيوان بالغرامة إذا أهمل جمع مخلفات حيوانه، وتسهر الشرطة على تطبيق مقتضيات هذه القوانين.

وقف أحد أصدقائي المنحدرين من إحدى القرى القريبة من "مركز ألنيف" يوماً بسيارته تحت جسر ليتبول حتى يستريح من فرط الألم الذي أحس به، ولم ينقطع صوت خرير بوله جراء ارتطامه بحائط الجسر حتى وقفت وراءه سيارة شرطة التي خرج منها شرطي وأمره بالإدلاء برخصة سياقته، ومنها أخذ عنوانه وانصرف دون أن يطيل معه في الحديث،

وبعد بضعة أيام وصلت صديقي برقية من مصلحة الضرائب تكرمه بأمر دفع خمسة وعشرين دولاراً هي ثمن إفراغ مثانته في الشارع العام!.

لرجال الوقاية المدنية، كذلك نصيب من الحفاظ واستتباب الأمن في هذا البلد، لدورهم في إنقاذ أرواح الناس والحيوان على السواء، بالإضافة إلى الممتلكات، بحيث لا يمر يوم دون سماع دويّ قوي لصفارات الإنذار الصادرة من مكبرات الصوت لسيارات رجال الوقاية المدنية العملاقة، تنذر العربات المستعملة للطريق بضرورة إخلائه لفسح الطريق أمامها للوصول إلى البؤرة مصدر تلقيها للإنذار في أسرع وقت ممكن، وهذا الإنذار الذي تلقته قد يكون كاذبا، كما قد يكون من أجل قط عالق أو عجوز مذعورة لسبب تافه، وفي كلتا الحالتين يتم التعامل مع الأمر بمنتهى الجدية.

وكيفما كانت نوعية الحالة التي من أجلها أُصدر الإنذار، فسيارة الوقاية المدنية تتحرك صوب المكان المحدد تتبعها سيارة الإسعاف، وفي حالة جدية الإنذار ووجود الأضرار، تلتحق بالمكان دوريات أخرى من مختلف مراكز الوقاية المدنية المنتشرة في المنطقة التي لا يبعد بعضها عن بعض سوى أقل من ثلاثة كيلومترات في الأماكن المأهولة بالسكان.

ولي أيضاً نصيب من اهتمام رجال الوقاية المدنية بأرواح المواطنين في هذا البلد، حيث قصدت يوما مصحة خاصة للقيام بعملية جراحية بسيطة لتصحيح خلل في منبت ظفر إبهام الرِّجل، أخبرتني الطبيبة بمصدر هذا المشكل وعلاجه الذي يقتضي نزع طرف من الظفر وإماتة عروقه حتى لا ينمو من جديد. بعدما أخبرتني تلك الطبيبة بالمراحل التي ستقطعها الجراحة بدأت فعلياً في إجرائها برشّ إبهام الرجل بماء بارد جداً، ثم أخذت في حقن جوانب الظفر بالمخدر، أتتني على إثر الوخز إغماءة شديدة دامت طويلاً، عندما استفقت منها وجدت جيشا من رجال الوقاية المدنية حولي! أخذ أحدهم يطلب مني أن أجيبه عن بعض الأسئلة ليتأكد من

إدراكي لمكان وجودي وسر وجودي في ذلك المكان، و بعدما اطمأن إلى وعيي بما حولي، أصرّ على ضرورة نقلي إلى المستشفى لإجراء بعض الفحوصات، حيث تم نقلي برفق على سرير أنيق نحو سيارة الإسعاف، التي ركنها رجال الوقاية المدنية في حالة تأهب في المرأب خارج المصحة، فانطلقت مسرعة في مشهد ألفت رؤيته فقط في الشارع الأمريكي دون أن أتصور يوما أنني سأكون طرفاً من هذا المشهد المثير، بل ها أنذا أصبحت بطل هذا المشهد !وفي الطريق إلى المستشفى، أحسست بأهميتي في هذا البلد رغم أنني مجرد مهاجر ينحدر من قرية مجهرية في المغرب المنسي، تابعة لإقليم الراشدية المهمش، ورغم وجود سكان في الراشدية نفسها لا يعرفون بوجود هذه القرية!.

أشعرني هذا الكم من رجال الوقاية المدنية النصارى من حولي بآدميتي وبقيمتي التي تفوق المتصور !حيث على طول الطريق بين المصحة ومستشفى مدينة "الإسكندرية"، ظلت سيارة الإسعاف تجري بسرعة جنونية، تطلق دويّا بمكبرات الصوت إنذارا لمستعملي الطريق بإخلائه لمرور موكب "النكرة كحل الرأس محمّاد أوبرهي!" وتنصاع السيّارات العادية والفارهة للأمر، فتتنحى إلى جانب الطريق حتى يمر الإسعاف، ينصاع الأستاذ والطبيب والوزير والسيناتور، وكذا رئيس شركة عملاقة تأخر عن اللّحاق بمكتبه، بل وحتى رئيس أمريكا نفسه، لو مر في نفس الطريق سينصاع للأمر بإخلاء الطريق للإسعاف!.

داخل سيارة الإسعاف، ظل رجل وامرأة من رجال الوقاية المدنية ينهشون في جسدي بالإبر، يجمعون في قوارير صغيرة دمائي الملوثة بخبز الشعير والتمر الجاف الذي غزته مختلف أنواع الحشرات قبل أن أنهل منه بلذة عندما كنت في البلدة. الخبر السار الذي حمله لي أحدهما قبل مغادرتي تلك السيارة صوب المستشفى، هو ثبوت عدم إصابتي بالسكري، وهو خبر انشرحت له أساريري واطمأن له فؤادي، فأنا لست مستعداً بعد للمداومة على الحمية الغذائية القاسية،

وأكره الشاي بدون سكر، كما أرتعش من حقن الأنسولين اليومية ومن "غارغارينا" الأطراف التي لا يوقف زحفها إلا البتر.

تناوب على فحصي في المستشفى أطباء خمس نجوم وفي غرفة خمس نجوم كذلك، ممرضون وممرضات، أطباء وطبيبات، كل من قصد غرفتي منهم يجتهد في إبداء ابتسامة عريضة، كأنهم يعالجون عزيزاً عليهم أو قريباً لهم .وقد خضعت على يدهم للعديد من الفحوصات لدرجة تخيلت أنني لاعب مهم يخضع لفحوصات الإنضمام لنادي مشهور!.

أخيراً، جاء الطبيب وبيده ملف ضخم هو حصيلة تلك الفحوصات، أخبرني أنني في صحة جيدة وأن الإغماءة سببها قشعريرة زادت عن حدها بفعل الحساسية المفرطة من الوخز بالإبر التي أكرهها أصلا، فكان على إثرها الإغماء !! فحمدت الله على السلامة.

* * * * *

كعادة جل العمال الجدد في أمريكا، وحتى القدماء منهم، فإن تقسيم أوقاتنا بين عملين في مكانين مختلفين، يجعل ممارساتنا لهواياتنا الترفيهية أمراً صعباً، أملت صعوبته إكراهات العمل وضيق الوقت، إذ أصبحنا كالروبوتات لا نكترث إلاّ للعمل ولا شيء غير العمل، والمحظوظ منا هو من ينعم بيوم راحة في الأسبوع. والغريب أن هدفنا الذي من أجله كنّا نعيش عندما كنّا في الديار والذي هو الحلم بالذهاب إلى الخارج، أصبح بتحققه حلماً معكوساً، بحيث أصبحنا نحن المهاجرين الجدد نعيش على حلم متى يحين موعد الزيارة ولو خاطفة الى الديار بعد غياب سنتين، خصوصاً أن الإحساس في الزيارة الأولى إلى الديار لن يضاهيه أي إحساس بعدها، أما القدماء من المهاجرين الذين زاروا الديار مراراً، فقد ارتقى حلمهم إلى حلم التفكير في إنشاء مشروع في الديار للاستقرار فيها نهائياً!.

غالباً ما تكون وصايا المهاجرين القدماء للجدد أمثالي، إما الدراسة للوصول إلى عمل يدرّ مال قارون، أو العمل يوميا من دون انقطاع لبضع سنوات لجمع رأسمال والعودة نهائياً من هذا البلد للاستقرار في الديار كحل لغربة أمريكا القاسية والحقيقة أن النصح هو مجرد كلام في الهواء، وحتّى لا يكون كذلك فيجب على الناصح أن يكون عارفاً وملماً وعلى قدر النصيحة، فالكل ينصح بمتابعة الدراسة أو بالعودة إلى الديار برأسمال معتبر، لكنه في الحقيقة يمكن رصد نسبة ضئيلة جداً من المهاجرين الذين نجحوا فعلاً في تجسيد أحد الخيارين، وهذه القلة وصلت الى مبتغاها بسبب ظروفها الخاصة التي لم تتوفر للغالبية العظمى من المهاجرين.

إن معظم المهاجرين من المغرب نحو أمريكا هم من الطبقات الفقيرة الذين وفّروا مصاريف التأشيرة ومستلزماتها وكذلك تذكرة الطائرة ومصروف الجيب عن طريق الإقتراض، وهو ما يجعل كل واحد منهم يضع نصب عينه بمجرد أن تطأ قدماه أرض المهجر، العمل وأيّ عمل من أجل سداد قرضه الذي يعد ببضعة ملايين من السنتيمات، إلى جانب التخفيف من أعباء عائلته التي تركها وراءه، وعندما يسدد القرض كاملاً، يتردد في استئناف دراسته، لأن الدراسة تعني التضحية بعدة ساعات من العمل، وما يعنيه ذلك من تقليل صبيب الأجرة لأجل الدخول في مغامرة غير مأمونة النتيجة بنسبة كبيرة بعد بضع سنوات!. أما جمع رأسمال لإقامة مشروع في الديار، فهو وإن كان سهل التطبيق من حيث القدرة على جمع هذا المال، إلاّ أن ما يعيقه هو التحويلات التي تتم دوريا نحو العائلة، والتردد الذي يصيب المهاجر بخصوص إدخال ما جناه من مال لسنوات في مغامرة قد لا تصيب الهدف!.

إن الهدفين موضوع نصائح المهاجرين القدماء للجدد، لا تتوفر شروطهما إلا للمهاجرين من أسر ميسورة بالمغرب أو للمتزوجين والمتزوجات من مواطنين أمريكيين ومواطنات أمريكيات

ميسورين وميسورات أيضاً. فأغلب الذين أعرفهم وأكملوا دراستهم على أعلى مستوى، أو عادوا من حيث أتوا لغير رجعة لا يتجاوز عددهم ثلاثة أفراد!.

إلا أن ما تجدر الإشارة إليه خصوصاً في أمريكا بالذات، هو أن الحصول على الديبلومات الدراسية على أعلى مستوى، ليس دائماً شرطاً لجني أكبر قدر من المال، فهناك حالات عدة لمهاجرين بالقرعة نصبوا على هذه القرعة بشواهد مزورة، استطاعوا رغم مستواهم التعليمي المتواضع أن يرتقوا في عملهم إلى أعلى المناصب، حيث أصبحت أجورهم وما يجنونه من مال في مجال عملهم يتساوى أو حتى يتجاوز أجور المتعلمين ذوي الشواهد العليا من جامعات مرموقة في أمريكا!، فتجد مثلاً مهاجراً شبه أُمِّي دخل مطعماً كغاسل صحون ثم ارتقى إلى مساعد نادل، فنادل ثم مدير بأجر سنوي ضخم، وهناك أيضاً عدة حالات لتقنيين في مختلف المجالات، وبنائين عملوا كأجراء عند غيرهم، وبعدما راكموا التجربة أسّسوا لأنفسهم شركات خاصة تدرّ عليهم أرباحاً خيالية مع إمكانية التهرب الضريبي بسبب صعوبة تحكم مصالح الضرائب في رصد قيمة دخلهم، والذي يخضع في هذه الحالة لضمائرهم أثناء التصريح بالدخل لدفع الضريبة .إنها أمريكا، بلد الأحلام والمتناقضات، بلد العمل ولا شيء غير العمل لمواجهة إكراهات الحياة التي لا ترحم الكسلاء، بلد يجعلك تعيش فيه مرغماً على إيقاع نمط حياته المعقد سواء راقك الأمر أو لم يرق لك!.

تغيرت أوضاع أصدقائي الذين أقاسمهم الشقة نفسها في العمل، فمنهم من غير عمله بعمل آخر، ومنهم من أضاف عملا إلى عمله الأول، أما أنا، فبعدما كنت أعمل في مطعم "جيريس" في أرلينغتون خمسة أيام وقت الزوال ويومي نهاية الأسبوع في مطعم "ماجيانوز"، وأضفت لهما ثلاثة أيام أخرى أعمل فيها كمساعد نادل في هذا المطعم نفسه، الأمر الذي لم يترك لي فرصة للحصول على يوم راحة في الأسبوع، فأصبحنا لا نلتقي كلنا كمجموعة كاملة الأفراد داخل الشقة كما كان متاحاً لنا بالأمس، فاتسعت المسافة بيننا

حيث لا نلتقي إلا نادراً رغم السقف الواحد الذي يجمعنا، فمنّا من يعمل في الصباح الباكر، ومن يعمل وسط النهار، ومنا كذلك من يعمل ليلا حتى الساعات الأول من صباح اليوم التالي !! أما جيراننا من معارفنا وأصدقائنا، فقد أصبحوا بالنسبة الينا في حكم من تركناهم وراءنا في الديار، لا نلتقي بهم إلا صدفة في الشارع، فأصبحت اللقاءات الكروية الرسمية التي يجريها المنتخب المغربي في كرة القدم على قلتها هي المناسبة التي قد تجمعني مع البعض من هؤلاء في أحد المطاعم التي تمنح لنا فرصة متابعة تلك المباريات.

وهكذا استطاعت أمريكا أن ترغمنا على التخلي عن العديد من عاداتنا وتقاليدنا مجبرين على عادات الحياة فيها .فمن جراء كثرة العمل، أصبحنا نأكل في المطاعم أو نطلب منها الإيصال إلى حيث نسكن، أما مطبخ شقتنا فلا نستعمله إلا لتحضير القهوة والشاي، وكذلك بعض الأطباق المغربية فيما ندر. هزُلت أجسامنا جراء طول ساعات العمل وإدمان السّهر، أما هواياتنا التي نمارسها في الديار، فلا وقت لنا لممارستها هنا، رغم توفر كل شيء يجعل ظروف ممارستها مثالية .اختفت كرة القدم التي كنا ندمن ممارستها في الديار ونعشقها بجنون، رغم أنه في أمريكا تنتشر وبشكل متقارب منتزهات وحدائق نموذجية تتوفر فيها ملاعب خمس نجوم لبعض الأنواع من الرياضات بما فيها كرة القدم، التي يُعتنى بعشبها بشكل لن تجد في بطولتنا الوطنية ملعباً يضاهي في عشبه أحد ملاعب الأحياء هنا! .

المنتزهات والحدائق هي أماكن مألوفة في المدن الأمريكية، ولا يسمح باستغلالها في مشاريع البناء. تخترقها ممرات إسفلتية مخصصة لممارسي رياضة الجري وركوب الدراجة. وممارسة الجري في هذه الممرات، يجعلك تجمع بين متعة ممارسة الرياضة، ومتعة رؤية مختلف تفاصيل الطبيعة العذراء. تحلق بك رومانسية المكان في الأعالي عندما تمر فوق قنطرة خشبية صغيرة يمر تحتها جدول ماء عذب، تتحسر بمشاهدته على جداول مياه الواد الحار المكشوفة التي تخترق مدننا.

كل هذه الأماكن المغرية لممارسة شتى أنواع الهوايات والرياضات لا نرتادها إلا مرات معدودات في السنة من أجل حفلات الشّواء. أما أوقات فراغنا التي هي بالضبط الوقت الفاصل بين نهاية العمل الأول وبداية العمل الثاني، وكذلك الأوقات التي نسهرها على حساب الراحة التي يوفرها لنا النوم، فغالباً ما نقضيها وراء شاشة الكومبيوتر الذي وضعناه في زاوية الشقة، يستعمله من حالفه الحظ في الخروج باكراً من العمل، والأنترنيت التي تمثل بحق موسوعة معرفية في كل المجالات لمن يرغب في تثقيف نفسه وإغناء رصيده المعرفي، لا نستعملها إلا في شقها التافه، وهو فتح غرف الدردشة لبدأ مسلسل الإفك والبهتان مع فتيات العالم الافتراضي، حيث يتم اجترار نفس الحوار من فتاة لأخرى، أو حتى فتىً لآخر إذا تقمص أحد الذكور الثعالب دور الفتاة!

- السلام عليكم .
- وعليكم السلام.
- شكون معايا؟؟!
- محمد من ليزيطازوني!
- وايلي على تفلية عاود!
- والله العظيم إلا معاك بالصّح.
- خدّم لاكام نشوف .....ها الرابوس موراك فالحيط شكون جاب الرابوس لميريكان؟؟!
- الوحشة دالبلاد هي اللي خلاتنا نعلقوا أي حاجة منها باش نبقاو ديما نتفكروها!!
- دير لاكام فالشرجم ...... وايليييي شحال زينة ميريكان !!! أجي بعدا منين نتا فالمغرب.
- واحد القصر فالراشدية سميتو "ملاعب."
- الله اعمرها دار ولاد الراشدية، شتّي جداتي راه الأصل ديالها من شي قصور دالراشدية، أو أنا أصلا شلحة غي كبرت فالمدينة!!.
- ياك ؟؟!

- والله العظيم !!... أجي بعدا شحال فعمرك؟!

هكذا كنّا نجمع وراء شاشة الكومبيوتر بين المتعة الكاذبة مع مجهولة، والإتصال بشكل متزامن مع الأهل والأصدقاء المشتتين في مختلف أرجاء المعمور!.

اختفت الأعياد الوطنية المخزنية في حياتنا، حيث قُطعت صلتنا بثورة الملك والشعب، عيد الشباب، عيد الاستقلال ... والتي لا نفرح لها في المغرب لرمزيتها أو لحمولتها التاريخية، بقدر ما نفرح لها لأنها فقط تمنح لنا فرصة عدم الذهاب الى المدرسة!. غاب إذن حضور كل هذه الأعياد في حياتنا ليحل محلها عيد الشكر، الكريسماس، الرابع من يوليو، يوم كولومبس، يوم المحاربين القدامى... وغيرها من الأعياد الرسمية لهذا البلد حيث نقيم، وهي أعياد لها مكانة في نفوسنا كمهاجرين يطمحون لزيادة الدخل، حيث تمنح لنا فرصة هذه الزيادة، خصوصاً للمهاجرين أمثالي من عمال المطاعم الذين يعتمدون في عملهم على البقشيش والإكراميات في دخلهم.

أما الأعياد الدينية، فقد خمد حماسنا في انتظارها، كونها فقدت ملحها في المهجر. فرمضان أصبح يرهقنا في العمل، حيث أصبحنا بحلوله ننتظر مواعيد الإفطار على أحرّ من الجمر، وعندما يحين موعدها، بالكاد نجد دقيقة واحدة لالتهام قطعة خبز أو أكل كعكة وشرب كأس ماء وقوفاً وعلى عجلة من أمرنا بانتظار إتمام الأكل في المنزل والذي قد يصادف موعده ما بعد منتصف الليل! بعض النصارى والوثنيين والضالين وكذا الملحدين من زملائنا في العمل، لا يتجرؤون على الأكل أمامنا ونحن صيام، احتراما منهم للجوع الذي أملاه علينا معتقدنا!. العيدان كذلك تجردا من كل قيمة يحملانها، و لم يتبق لنا منهما إلاّ ركعتان نصليهما على عجلة في المسجد لنعود إلى العمل كأي يوم عادي.

في موعد أول عيد للأضحى أصادفه في أمريكا، اتفق أننا استيقظنا فجر ذلك اليوم ، فتحملنا عناء السفر ستين كيلومتراً شمال فرجينيا حيث توجد الضيعة، لنكتشف بمجرد وصولنا إليها أن صاحبها يتوفر فقط النعاج دون الأكباش، وبعد بحث جديد عن ضيعة بديلة عن طريق الاتصال بأشخاص نعرفهم والذين قصدوا على خلافنا ضيعات أخرى، ولينا وجهنا شطر الجنوب نحو ولاية "ماريلاند" حيث توجد ضيعة مغربي أكد لنا بعض الأشخاص هناك توفر صاحبها على الأكباش.

كان طريقنا طويلاً جداً للوصول إلى هناك، حيث توقفنا في منتصف الطريق لأكل وجبة الغذاء، وأمام طول هذا الطريق، فقد تساءل أحد الظرفاء البيضاويين الذي كان معنا في السيارة بسخرية حول ما إذا كان تغيير أنثى الكبش بذكرها يستحق السفر كل هذه المسافة، وهل مجرد قرنين بارزين على الرأس وخصيتين متدليتين أسفل البطن يستحقان كل هذا العناء؟! قبل أن يرتشف من سيجارته نفساً عميقا، نفث دخانه في النافذة وأكمل بعدها مزحته فقال: "سالينا مع الحولي ولِّينا نقلبوا على الحمار! ..."

لم نعد ذلك اليوم أدراجنا نحو البيت حتى التاسعة ليلا ! حيث أقمنا حفلة شواء بسيطة، ليبقى بعدها لحم الخروف شهوراً في الثلاجة ينتظر من منا يملك الوقت الكافي لتحضيره وطبخه !! منذ ذلك الحين تخلينا عن إعادة الكرَّة مرة ثانية واكتفينا بالتصدق بأموال الأضحية للمحتاجين في الديار، إيماناً منا بأن عيد الأضحى وكل الأعياد الدينية الأخرى، تفقد قيمتها بعيداً من الأهل والأحباب.

IV

عندما تفصلني بضعة أشهر عن موعد العودة لزيارة الديار، تصبح الثواني أياماً، والأيام شهوراً، لأن مخيلتي أنشأت مع اقتراب هذا الموعد باحة بين ثناياها مشغولة على مدار الساعة بمهمة العد العكسي لموعد هذه الزيارة .والرحلة كما قررت لها، لن تكون مباشرة من أمريكا نحو المغرب، حيث قررت التوقف لأسبوع في فرنسا قبل استئناف السفر إلى المغرب، كفرصة أغتنمها لأقف بعيني على حقيقة ما سمعته أذني عن الماما فرنسا.

تبددت مخاوفي بشأن صعوبة مساطر الحصول على التأشيرة من القنصلية الفرنسية، وذلك بمجرد ولوجي مبناها و بيدي رزمة من الوثائق القليلة والضرورية لطلب الحصول على هذه التأشيرة، والتي حصلت على لائحتها من موقع القنصلية على الإنترنيت. كانت نصف

ساعة هي المدة التي استغرقها مني الدخول إلى القنصلية والخروج منها بالتأشيرة، ولم أنتظر بعدها حتى شهر يوليو موعد السفر لكي أشتري التذكرة، بل إنني قمت بشرائها منذ شهر مارس، حتى يطمئن قلبي لحجز مكان لي في الطائرة.

مع اقتراب الموعد، أصبحت أعيش على وقع حلم جميل، فليس بالأمر السهل أن أغيب عن بلدة عزيزة على قلبي سنتين، حتى أصبحت مجنونا بعشق كل شيء فيها. فكل هذا الزمن الطويل الذي قضيته في بلاد الغربة، نما معه شوقي إلى تلك البلدة. والى كل البلدات المجاورة لها، إلى حد أنني عندما أخلد للنوم، أقضي الوقت بين غمض العينين والاستسلام للنوم العميق في ترويض ذاكرتي على تذكّر تفاصيل جغرافيا بلدتي ومحيطها، واستحضار ملامح أبنائها الذين تركتهم هناك مرغما .أُروّض ذاكرتي لأجعلها متمرسة في الاحتفاظ بكل تفاصيل ذلك المكان وقومه، تماماً كما يفعل فقيه المسجد الذي يقرأ يوميا ما تيسر من الذكر الحكيم حفاظا عليه في ذاكرته من النسيان .يسرح بي الخيال في المنام ليلاً ليطوف بي في زقاق القصر القديم، وفي مختلف ممرات الحقول وأخاديد مناجم "أوسبطان"، وكم كنت بارعا في تذكر كل التفاصيل لتلك الأماكن شبرا شبراً، أتذكر منطقة "تادمرانت" بشكل أستطيع معه رسمها على الورقة بجزئيات سهت عن الموقع الشهير "غوغل إيرث !" كل متر مربع من "الواد"، بمجرد أن أستحضر معالمه في ذاكرتي، إلا وأيقظ فيها مختلف الذكريات الجميلة والسيئة التي عشتها في نفس المربع .أستطيع ان أقول مزهواً، أنني قد أكون المهاجر الوحيد الذي يكتب لائحة أماكن معينة تعد بالعشرات، أقطع وعداً مع نفسي بزيارتها عندما أحلّ ببلدتي، وذلك حتى لا ألوم نفسي عند عودتي على السهو عن زيارة شجرة عزيزة، أو لمس حائط مقدس في وجداني. فلا يمكن أن أزور البلدة وأعود أدراجي إلى بلاد المهجر دون أن أشرب من ماء جوف أخدود "أوسبطان"، أو أن أتخلف عن زيارة أطلال حوض "الرّابوب" حيث كدت أموت غرقا هناك أكثر من مرة أيام الصبا، ويظل "أساكَم" و"الدّاو تازيتونت" ركنين من أركان الحج إلى تلك البلدة، لا يصح هذا الحج وهذه الزيارة دون زيارتهما رغم قساوة التجربة، لأن ذكرياتي فيهما

عديدة، ومما لا شك فيه، أنني عندما أقف أمام هذين المكانين بحضور ذاكرتي القوية، فحتما ستختنق أنفاسي من شدة التأثر، كما ستنكسر قاعدة "الرجال لا يبكون !." ورغم هذا الشوق وهذا الحنين للبلدة، فقد قلت في نفسي أنه لا بأس من زيارة فرنسا لأسبوع، لأرضي رغبتي في حب الاستطلاع، وأكتشف بلاد الله الواسعة، ما دام ختامها مسكاً! حيث سينتهي بي المطاف أخيرا في البلدة.

إحساس جميل، ذلك الذي ينتابني وأنا داخل التاكسي بإتجاه مطار "دالاس واشنطن"، لأنني بصدد السفر إلى بلدة لم يمر يوم واحد، بل ساعة واحدة، طوال السنتين دون أن أتذكرها، ودون أن أستحضرها وأنا أتجول أزقتها في خيالي .وداخل التاكسي تيقنت أنه لا حاجة لي بعد الآن إلى ممارسة هواية السفر إليها عبر الخيال، لأنني سأكون في ضيافتها بعد أيام قليلة، حينها سيُصبِح كل الخيال الذي كنت أسبح فيه حقيقة مطلقة !! وسأعيش من جديد فوق أرضها وتحت سمائها، أقضي فيها شهرين بعيدا من العمل الذي كنت عبده وتحت سيطرته، وبعيداً من دقة مواعيد الحافلة وقطار الميترو اللذين يُرغماني على احترام هذه المواعيد بضرورة الحضور قبلها.

كلما اقترب موعد الإقلاع تزداد اللهفة ويزداد الشوق، وَمَع حلول لحظة تسليم الحقائب واجتياز الجمارك للجلوس في القاعة حيث أرى الطائرة من النافذة الزجاجية، جعلني أتذكر المشهد نفسه في الدار البيضاء قبل سنتين عندما أردت الإقلاع نحو أمريكا. فما أشبه اليوم بالأمس، بل ما أقرب الأمس من اليوم، وما أقصر السنتين رغم الدراما المتسلسلة الصعبة التي عشتها خلالهما.

لم يغمض لي جفن طوال ثمان ساعات مدة الرحلة بين واشنطن وباريس، أتخيل كيف ستكون هذه "الماما" فرنسا التي صدَّعوا بها رؤوسنا، وأحيانا أشغل نفسي بمشاهدة أحد

الأفلام على الشاشة اللوحية التي توفرها الخطوط الفرنسية حتى في الدرجة الإقتصادية للرحلات الطويلة، أما الوجبات، فإنني ألتهمها بشراهة وأتأسف على قلتها !.

عند الخروج من الطائرة في مطار شارل ديغول لركوب الحافلة باتجاه جناح الجمارك، بدأ الاختلاف يظهر جلياً أمام عيني بين العالم الذي تركته قبل ساعات وهذا العالم الذي أنا أمامه الآن. وعند اجتيازي للجمارك، لم أنس أن أسأل أحد رجال الأمن عن مكان وجود محطة القطار، حيث سأبدأ رحلتي نحو مدينة "نانسي" أرشدني رجل الأمن إلى حيث توجد محطة الميترو في المطار، واستدرك أن أشار إليّ بالتوقف في "محطة الشمال" حيث سأستقل منها القطار نحو نانسي.

قطار ميترو الأنفاق في باريس الذي يربط المطار بمحطة الشمال، لا يحمل من الميترو إلاّ الاسم حيث ظل طول الطريق يسير مكشوفاً على الأرض إلاّ فيما ندر. مقطوراته مهترئة توحي أن الأيدي الطائشة عبثت بها من الداخل كما تظهر تلك الكتابات على كراسيه، والخدوش على زجاج نوافذه. وعلى طول الطريق، اكتشفت الهوة التي تفصل بين المدن الأمريكية الراقية وباريس المدينة العادية، قد يقول قائل بأن القطار يمر عبر هوامش باريس، والحقيقة أن الهوامش وضواحي المدن هما سر التفوق الأمريكي، حيث بؤرة المدينة رائعة، وضواحيها أكثر روعة وأكثر سحراً!

حتّم علي الوصول إلى المحطة المعلومة أن أسير بضع عشرات من الأمتار راجلاً، لألحق بمحطة الشمال للقطار، وقد اتفق أن وقف معي أحد المواطنين الكاميرونيين في صف الانتظار لشراء التذكرة، وهو يقصد كذلك الوجهة نفسها، وقد تحول مجرد سؤال سألني إياه إلى جلوس معه في ركن المحطة ساعة كاملة، وهي المدة الفاصلة عن موعد انطلاق قطارنا. ناقشنا عدة

مواضيع تهم وضعية المهاجرين الأجانب في كل من فرنسا وأمريكا، وقبل ثوانٍ من موعد الانطلاق، اكتشفت أنه مجرد محتال احتال عليّ ولحسن الحظ بخمسين أورو فقط ! حيث ادعى في آخر لحظة قبل انفصالنا أن زوجته كلمته عبر الهاتف تطلب شراء شيء لها من المحطة، على أن يعيد لي أموالي بمجرّد وصولنا الى وجهتنا. وللتقرب مني أكثر، وحتى يجعلني أطمئن إليه، ادعى أن زوجته تملك سيارة وستتكلف بإيصالي نحو "لودر"، وجهتي الأخيرة التي تبعد بضع كيلومترات عن نانسي المدينة.

على طول المسافة التي تفصل باريس بنانسي، بدأت تسقط الصورة الهلامية التي كونتها في خيالي عن فرنسا، حيث كنت أظن وأنا في أمريكا أن كل الدول الغربية سواء في عمرانها وبناها التحتية وأنها متشابهة في جميع مناحي الحياة الحضارية، لكن أثناء مرور القطار عبر الكثير من المدن والقرى، ظهر الفرق جلياً أمامي.

محطة القطار في نانسي هي كأي محطة أنيقة في المغرب. المسافة التي تفصل هذه المحطة ووجهتي المقبلة طويلة بما فيه الكفاية لأتعرف أكثر إلى هذه المدينة وأنا داخل التاكسي. المدينة جميلة حقاً، ولكن أقل جمالاً وأقل سحراً مما احتفظتُ لها في ذاكرتي، من خلال ما سمعت عنها من أبناء المهاجرين أصدقائي في البلدة، حيث ارتقوا بها في وصفهم إلى مرتبة المدن الأسطورية!، كما أن الفرق في انعكاسات الحالة الاقتصادية على المواطنين في كل من فرنسا وأمريكا، يظهر بجلاء من خلال السيارات الخاصة التي يملكها هؤلاء في كلا البلدين. ففي فرنسا، أصبحت الأنواع فرنسية الصنع، صغيرة الحجم والاقتصادية هي الأكثر ظهوراً أمامي في الشارع، مركونة نصفها على الرصيف والنصف الآخر على الطريق، بينما يقتني الأمريكيون السيارات الفخمة، كبيرة الحجم والمستهلكة للبنزين بشكل فاحش!.

الأيام السبعة التي قضيتها في تلك المدينة في ضيافة "عمّي"، كانت كافية لأتعرف إليها أكثر وعلى جل مناحي الحياة فيها، كما أتيحت لي من خلالها فرصة زيارة كل الأحياء التي كانت تتردد على سمعي من خلال أصدقائي أبناء المهاجرين في تلك المدينة، جارفيل، فاندوفر، هوت دوليبفر، لودر... حتى ملعب الكرة لنادي نانسي قمت بزيارته، والذي تخرج منه الأخوان "حجّي" و ابن المنطقة "وادّو"، وخلوّ محيط هذا الملعب من المارة عندما قمت بزيارته جعلني أقوم عمداً بالتبول في مرأبه كنوع من الإمضاء على زيارتي له!.

الجميل في مدينة "نانسي" هو هدوءها وتوقف أغلب عمالها عن العمل في عطلة نهاية الأسبوع. حينها تتاح الفرصة للمغتربين في تلك المدينة للقاء مع بعضهم بعضاً، عكس أمريكا حيث يصل العمل ذروته في هذين اليومين و يصعب أن تجد خلالهما مهاجراً في عطلة، إلا من كان منهم موظفاً لدى الدولة.

السبت والأحد في نانسي، هما مناسبة للاستراحة والتقاط الأنفاس بعد خمسة أيام من العمل المتواصل، ومناسبة أيضاً لشراء بعض الأغراض الخاصة خصوصا في السوق الأسبوعي الذي يقام في الهواء الطلق ب "هوت دوليبفر"، وهو سوق مغربي خالص، تغيب فيه كل المؤشرات التي تدل على أنك فوق الأرض الفرنسية، خيام بسيطة تعرض داخلها السلع من خضر وملبوسات وأغراض نسائية، بالإضافة إلى قوالب السكر، الزيتون، زيوت الزيتون وكذلك التوابل المغربية .وفي هذا المكان، تختفي الفرنسية ولا تسمع إلا من أفواه الصبيان المرافقين لذويهم للتبضع في هذا السوق، وفيه كذلك صادفت بعض شباب بلدتي الذين مرّ على لقائي بهم آخر مرة أكثر من عقد من الزمن .كما فوجئت بأحد الأطفال الصغار الذي كان مدمناً على لعبة "البليادرو" في المقهى الذي أديره في البلدة قبل أن أغادر نحو أمريكا، وهو يسلم علي، ثم بدأ يتحسّس جسدي بكلتا يديه قبل أن يتوجه بالخطاب نحو ابن عمه الذي وقف غير بعيد منه:

– إنه حقيقي!!

كان المسكين يظن أنني سأبقى نادلاً في مقهى البلدة حتى يحين أجلي.

عندما حان موعد رحيلي نحو الجنوب باتجاه المغرب، بعد رحلتي الاستكشافية تلك لمدينة "نانسي"، أبت الأقدار إلاّ أن تكون رحلتي تلك نحو المغرب أكثر متعة، حيث أصرّ "فهد" ابن البلدة ورفيق الدراسة في الجامعة، أن نسافر سوياً وعلى انفراد في سيارته. إنها الفكرة المثالية لسفر سياحي على البرّ، حيث تتيح لنا السيارة الشخصية أن نسافر بالطريقة التي تطيب لنا!.

انطلقنا مساء ذلك اليوم قبيل الغروب من مدينة "نانسي" في اتجاه الجنوب، ولم نتوقف طوال السبع مئة كيلومتر، أي حتى وصولنا مدينة "مونبلييه" في أقصى الجنوب الفرنسي، والتي ظهرت كذلك أمام بصري أقل بكثير من المدينة التي تخيلتها طبقاً لأوصاف أصدقائي من أبناء المهاجرين المقيمين فيها. و أمام التشابه بين الحي الذي دخلنا منه هذه المدينة وبعض أحياء المدن المغربية، حيث عشوائية البناء ووجود ورش غير مكتملة على الطريق وانتشار الحفر، وأمام ذلك الصمت الرهيب، وخلو الشارع التام من المارة لكون وصولنا صادف شروق الشمس، انتبه فهد إليَّ وأنا أكلم نفسي بصوت مسموع:

– هل هذه يثرِب! ؟ تبدو وكأنها قد خلت من أهلها!!.

انفجر "فهد" ضَاحِكاً وأمرني أن أتريث حيث وعدني أن يسوق السيارة في زقاق تشبه إلى حد بعيد أزقة مدينة تنجداد!. ووعده كانت فيه بعض المبالغة، ولكنني لا أنكر أن المكان الذي توقفنا وتركنا السيارة فيه لنمشي قليلا، كان أشبه بمكان وسط مدينة القنيطرة المغربية !.

بعد الظهر، استأنفنا المسير جنوبا نحو إسبانيا، فدخلنا برشلونة بعد العصر بقليل، وكان بانتظارنا أصدقاؤنا من أبناء البلدة، لكن لقاءنا بهم لم يتم بتلك السهولة، حتى قطعنا بالسيارة مدينة برشلونة طولا وعرضاً بحثا عنهم، ورب ضارة نافعة، فقد كانت كذلك مناسبة لاكتشاف هذه المدينة الصاخبة .وفي نفس الليلة وبعد وجبة العشاء، أصرّ "فهد" على ركوب المغامرة بإتمام الرحلة نحو الجنوب وهو من لم ينم قطّ طوال يومين، إلا أن أحد الأصدقاء من مضيفينا تلك الليلة كان على حق عندما رفض إعطاءه مفاتيح السيارة، لأن السياقة في مثل تلك الظروف مجازفة حقيقية بحياة كلينا.

في صباح ذلك اليوم، إستأنفنا المسير نحو "ألميريا"، ولم نتوقف إلا مرة واحدة من أجل وجبة الغداء والتزوّد بالوقود. وبوصولنا إلى تلك المدينة، نزلنا ضيوفا كذلك عند أحد ابناء البلدة الذين تعجّ بهم هذه المدينة. بانتظار الغد حيث سنستقل الباخرة باتجاه الناظور.

لم تكن "ألميريا" كذلك في مستوى المدن الهلامية، كما يبالغ "الحراگة" المقبوض عليهم في وصفها بعد إرجاعهم إلى المغرب، ومنهم "فهد" نفسه، الذي سافر يوماً متخفياً في باخرة "ترانسميديتيرانيا" فقبض عليه عند وصوله، ليتم إرجاعه إلى الناظور حيث انطلق، فوصف لنا تلك المدينة وصفاً كأنها "جنة عدن!!" والحقيقة كما سيتضح أن كل هؤلاء "الحراگة" معذورون في الوصف المبالغ فيه لهذه المدينة، لأنهم إذ فعلوا ذلك فللفارق الشاسع الذي عاينوه بين مدينة" الناظور "حيث انطلقوا ومدينة " ألميريا" حيث قبض عليهم.

ونحن في الباخرة قبل شروق الشمس، أصبحت "بني أنصار" و"الناظور" على مرمى حجر، وقد هالتني حينها بشاعة المدينتين من بعيد و اللتان تظهران كمدينتين في حالة هدنة بعد حرب، ولم ينقصهما ليكتمل مشهدهما البئيس إلا دخان متصاعد هنا وهناك، لتكتمل ملامح النسخة الكربونية لمدينتي "قندهار " و"كابول" الأفغانيتين أيام الحرب الأهلية!!. ويبتدئ

العالم الجديد الذي يجسده المغرب من مجرد الخروج من الباخرة في الميناء للوقوف أمام رجال الجمارك، الذين يفرضون إتاوات على المهاجرين لسبب أو بدونه، بعدهم مباشرة يصطّف المتسولون والمحرومون الذين يستنجدون المهاجرين من أجل بضعة دراهم، وحالة هؤلاء تمزق القلب، خصوصًا أولئك النسوة المرافقات للأطفال والرّضع.

الطريق الرابط بين ميناء بني أنصار والناظور، تُظهر بجلاء بشاعة المدينة المغربية التي يجسدها البناء العشوائي وضعف البنية التحتية وانتشار الأزبال. ومن خلال رحلتي الاستكشافية تلك، والتي ابتدأت من أمريكا نحو أوروبا وفي طريقها للانتهاء بالجنوب الشرقي للمغرب، أستطيع أن أقول إن المسافة التي تفصل عمران وجمالية المدن الأمريكية ونظيرتها الأوروبية، هي أضعاف مضاعفة للمسافة التي تفصل بين هذه الأخيرة ونظيرتها المغربية!.

أثناء مرورنا عبر العديد من المدن والقرى في اتجاه الجنوب، اكشفنا أن البشاعة وضعف البنية التحتية هي السمة المشتركة بين كل المدن والقرى التي مررنا عبرها. وتزداد الصورة تشوّها عند دخول المجال الصحراوي بدءًا من مدينة الريش، زادها قتامة ضبابية الأجواء الناتج عن تراكم الغبار العالق بفعل غياب الأمطار. وعلى طول الطريق، وفي مداخل المدن والقرى، عادة ما يستوقفنا رجال الدرك الذين يسيل لعابهم بمجرد رؤية لوحة سيارة مرقمة في الخارج. حينها يبدأ هؤلاء مسلسل الابتزاز بوجود مخالفة أو بغيرها، بشكل يجعلهم لا يختلفون عن الصعاليك وقطاع الطرق إلا في طريقة النشل، لكن لا أنفي مصادفتنا لبعض منهم في غاية اللياقة والأدب. يؤدون عملهم بكل مهنية، وهؤلاء يكرمهم مرافقي "فهد" بعلب السجائر الفاخرة، جزاء جرعة الأدب الزائدة فيهم نحونا.

عندما وصلنا إلى مدينة "گلميمة"، بدأت أشمّ رائحة البلدة، وأحس بسكانها من حولي. و بوصولنا إلى مركز "تنجداد"، بدأ القلب يدق أكثر من المعتاد، لكوننا ندرك أننا على مشارف

نقطة الوصول، ويظهر أننا سنصادف شروق الشمس في البلدة كأنها ترحب بقدومي بعد طول غياب دام سنتين.

كان شارع البلدة الرئيس شبه خال إلا من بعض الأفراد الذين ألفوا الاستيقاظ باكراً. وقد أجّج قطيع الماعز الذي كان يسير بمحاذاة الطريق مشاعري، وسافر بي إلى أيام الزمن الجميل، حيث يجمع أهل البلدة رؤوس ماعزهم في ساحة المسجد ليسرح بها راعي البلدة في الفيافي، وهي عادة مازال بعض الناس يمارسونها إلى اليوم!.

الجلوس بين أحضان العائلة من جديد جعلني أحسّ أنني لم أبرح المكان كل هذه المدة، وبدت معها كل الدراما التي عشتها في أمريكا مجرد حلم بالكاد استيقظت منه!. ساعات قليلة كانت كافية لأنفض عني غبار أمريكا، وأن أجعل نفسي أنساها لأعيش الحاضر حيث أنا، ولم أكن أحتاج إلى مدة للتكيف مع الوضع الجديد في هذه البلدة الفقيرة لأنني منها، وإليها عدت من جديد!.

كبر الصغار ونبتت اللحية في ذقن البعض الآخر، كما أصبح البعض يُدخّن في العلن. أما أصدقائي، فقد استأنفنا ما بيننا من صداقة ولم تضع هذه السنتان مدة غيابي أيَّ حواجز بيننا. أما اللائحة التي كتبتها عن الأماكن الضرورية لأزورها، فقد دشنتها بأن قمت مع أحد الأصدقاء قبل أول وجبة غذاء لي في البلدة بزيارة الحقول. قساوة الغربة والشوق إلى هذه البلاد، جعلاني أركز على كل موطئ قدمي وعلى كل شيء حولي، أستمع إلى حديث الصديق وأرى من حولي ما لا يراه، أو يراه ولا يكترث له، ومن شدة التركيز أصبحت أحلّل كل شيء وقعت عليه عيناي!. بعد زيارة الحقول ألححت عليه قبل العودة إلى المنزل بأن نقوم بزيارة المقبرة، حيث قمنا بجولة فيها قبراً قبراً للترحم على أرواح من مات من أهل البلدة في غيابي.

طوال الشهرين مدة العطلة التي قضيتها في البلدة، لم أتجاوز فيها مدينة "الراشدية" شمالاً، "تنغير" غرباً،" أرفود" شرقاً، و"ألْنيف" جنوباً. أنام ثلاث ساعات في اليوم، تبتدئ غالباً من طلوع الفجر، أملك أصدقاءَ عن كل فترة من فترات اليوم، إذ لدي أصدقاء الصباح الباكر، وأصدقاء المساء وما بعد العشاء، وكذلك أصدقاء ما بعد منتصف الليل، وهم في الغالب من المدمنين ! وحتى فترة الزوال، حيث الشمس الحارقة والنَّاس في سبات القيلولة، أخرج إلى الشارع لتمضية الوقت مع الأطفال الصغار ! وكل هذا حتى لا تفوتني لحظة واحدة دون الاستمتاع بوجودي في هذه البلدة التي أنا مغرم بها، وكذلك، حتى لا ألوم نفسي من جديد عندما أرحل إلى ما وراء البحار!.

غالباً ما تكون العطلة فرصة العديد من الناس للاستراحة إلا أنا، حيث أشذُ عن القاعدة ، فمن كثرة السهر ومن كثرة الرحلات إلى الأماكن المجاورة للبلدة، أحسست بالإعياء الشديد مع مرور الأيام، لم أخفف من شدته إلا بالنوم بضع عشرات دقائق إضافية في القيلولة، وقد قمت باستغلال وجودي في البلدة لأعود إلى هوايتي القديمة قبل الرحيل وهي ممارسة كرة القدم، التي عرَّت هذه المرة عن حقيقة لياقتي البدنية الهشّة، حيث أحسست في أول مقابلة لي بكم لعبت بعظامي ولحمي سنتين من الخمول والكسل وادمان استهلاكي لجبنة البيتزا!.

يبدأ العد العكسي للرحيل من جديد عندما تفصلني عشرة أيام عن موعد الرحيل، حينها أدخل من جديد في متاهات العذاب النفسي، ويزداد هذا العذاب مع معرفتي المسبّقة بحقيقة المهجر، وليس كالمرة الأولى عندما سافرت وأعيش على إيقاع أحلام أنني ذاهب إلى الفردوس الأمريكي !

الآن أصبحت على معرفة مسبقة بما سأعيشه هناك من حياة صعبة، لن تتوقف معاناتها إلا بعد سنتين موعد العودة من جديد إلى الديار، ولبضعة أسابيع لسوء الحظ ! لهذا كنت أحمل معي كاميرا رقمية صغيرة، لا تفارق جيبي، أستخدمها في عملية تصوير كل شيء أصادفه، حيث لم أترك مكاناً إلا صورته من كل الزوايا، كما كنت أنتقي الأشخاص الذين أرغب في تصويرهم، فألتقط لهم صورا، سواء بعلمهم او بدونه، ولم أتوقف عن جنون التصوير إلا بعد نفاذ أقراص "الديفيدي"، ولحسن الحظ أن آخر قرص فارغ تزامن مع آخر يوم لي في البلدة!
.

رغم قسوة الفراق، فراق الأهل والأحباب، وفراق المكان، فقد تجلّدت وحاولت الظهور في مظهر الشخص القوي، رغم أنني أخفي داخلي انهياراً رهيباً إلى درجة أنني استعجلت قدوم الحافلة التي ستقلني إلى "الدار البيضاء" لأستسلم داخلها لنوم الملل! وهو ما فعلته بعدما تجاوزت بنا الحافلة في مسيرها مدينة "كلميمة"، التي تمثل حدود المكان المقدَّس في وجداني! .

في مطار محمد الخامس في الدار البيضاء سيتكرر سيناريو سفري قبل سنتين، لكن مع مفارقة عجيبة، وهي أنني كنت في المرة الأولى أكاد أطير من شدة الفرح للمغادرة، أما الآن فقد اختفى ذلك الفرح والسرور، اختفى كلاهما بعدما قمت بسبر أغوار الغربة في المرة الأولى، خصوصاً غربة بلاد ما بعد بحر الظلمات، حيث لا عودة إلا بعد سنتين على الأقل.
في الممر نحو الطائرة، تتمزق الأحشاء وأكاد لا أحسّ أنني أقوم بجرّ حقيبة يدوية صغيرة ورائي. هواجس، كوابيس، أرق، وانقباض المعدة، تلك هي الأعراض التي تعايشت معها طوال الرحلة عبر محطتي "الدار البيضاء" "باريس"، ثم" باريس" "واشنطن" .

* * * * *

هبوط الطائرة واستعداد الركاب للخروج منها، جعلني أقوم مثلهم بجمع أغراضي في كسل وبطء شديدين، كأنني بصدد تمثيل لقطة بالعرض البطيء!!، وأمام رجل الجمارك، لم يطرح لدي نفس إشكال التواصل كالمرة الأولى، إذ تمت تسوية وضعيتي بكل سرعة، إلا أن تصريحي بوجود مواد غذائية في حقائبي، حتم علي المرور من الحاجز الثاني للجمارك المكلف بتفتيش الأمتعة، وهناك، قاموا بمصادرة كل شيء مرتبط بالاستهلاك وتم رميه في سلة النفايات، حيث تمت مصادرة السمن البلدي والقديد وعصير التمر... بدعوى انتفاء شروط السلامة في حفظها، لذا يجب التخلص منها "حفاظاً على سلامتي" يقول الجمركي.!

أحسست مع ركوب التاكسي، كأنني داخل نفس التاكسي الذي كان يريد إيصالي قبل شهرين إلى المطار لأسافر إلى المغرب ! حدث كل شيء بسرعة ليخال إليّ أن ذلك التاكسي قد استدار في منتصف طريقه إلى المطار وعاد بي الكرّة نحو بيتي بأرلينغتون دون أن أزور المغرب!. عياء شديد، صمت رهيب، وشرود ذهني، تلك هي حالتي طوال مدة السفر بين المطار والمنزل، وأكثر ما يؤرقني، هو أنني لا أملك إلا استراحة يوم واحد لأعود بعده لاستئناف العمل من جديد، وهي مدة غير كافية لالتقاط الأنفاس، والاستراحة جراء شهرين من قلة النوم، وغير كافية كذلك لتصحيح اضطرابات النوم الناتجة عن فارق خمس ساعات بين أمريكا والمغرب.

عندما استيقظت في أول صباح لي بعد العودة من الديار، تكون المرارة والإحباط الذي أحس بهما عندما أدرك أنني في أمريكا من جديد، بقدر حجم الغبطة والفرحة التي انتابتني في أول صباح لي في البلدة، عندما استيقظت حينها وأدركت أنني حيث أريد، لا عمل ولا حافلة ولا مواعيدها المضبوطة!!، أصعب ما في أمريكا بعد العودة إليها هي الأيام الأولى لاستئناف العمل، حيث لم أستوعب خلالها أنني غادرت البلدة، ففي نفس الوقت الذي أعمل فيه، أحس أنني ما زلت بجانب أصدقائي، نلعب الورق في المقهى ونتبادل أطراف

الحديث ! إنها المعاناة والوسواس الذي يعاني منه كل من عاد الكرّة نحو بلاد المهجر بعد قضاء العطلة في الديار، فيصاب بما يشبه الصدمة، صدمة فراق المكان حيث يرتاح الفؤاد.

ركوب الحافلة وقطار الميترو، هما بحقّ وقود نار الملل الذي أعاني منه في الأيام الأولى لعودتي، لأنني أحس عند انتظارهما بالملل، وبالوحدة عند ولوجهما، التي أعوم على إثرها في بحر من الخيال اللامتناهي، كما أن التنقّل اليومي بين البيت نحو مطعمين متباعدين، جعلني أبدّد من الوقت في هذا التنقل بالحافلة و قطار الميترو تماماً نفس المدة التي أشتغلها صباحا في مطعم "جيريس"، لذلك أحسست أن الوقت قد حان لشراء السيارة لربح الوقت والتخلص من إهداره بين الحافلات ومقطورات القطار. وهي الفكرة التي شجعني عليها مديري في العمل "ويلسون" وطمأنني بأنه سيعمل على إخبار صديقه الميكانيكي لانتقاء سيارة مستعملة لي.

قبل اجتياز امتحان السياقة، توجّب عليّ القيام بالتدريب لدى متخصص في سيارة التعليم، وهو ما قُمت به لساعتين فقط لدى مرخَّص له من أصول أفغانية، قبل أن يعلمني الصديق "عبد العالي" من "تنغير" لساعتين إضافيتين كيفية ركن السيارة، وهذه الأربع ساعات، هي كل ما بجعبتي من أجل اجتياز امتحان السياقة دون أي تجربة تذكر قبلها !! وقد يتساءل البعض عن عدم كفاية الأربع ساعات لاجتياز الامتحان، خصوصاً أن المتدرب على السياقة في المغرب يلزمه عادة أكثر من شهر من المداومة على التدريب في سيارة التعليم، لكن قبل طرح مثل هذا السؤال حول هذه المفارقة، وجب العلم أن أغلب السيارات في أمريكا هي سيارات أوتوماتيكية ذاتية تحويل السرعة، تحتوي فقط على دواستي السرعة والمكابح، ولا تحتوي على دواسة تغيير السرعة المعقد، ولا على ذراع التعشيق، وهذا ما يجعل السياقة بالسيارة الأوتوماتيكية، أسهل من نظيرتها التقليدية. حتى إن السياقة بالأولى "الأوتوماتيكية" لسنوات لا يعني بالضرورة القدرة على قيادة الثانية "التقليدية" بسهولة، لأن قيادة الأخيرة، يفرض نظامها المعقد التدريب على سياقتها ولمدة أطول.

اجتياز امتحان السياقة في أمريكا لدى الإدارة المختصة بسيط في إجراءاته، حيث قمت بالإدلاء ببطاقة "سائق متعلم" ليقوم الموظف بعد قيامه بتعبئة المعلومات على شاشة الكومبيوتر بمرافقتي نحو المرأب حيث توجد سيارة صديقي" عبد العالي" التي سأستعملها لأجتاز بها الاختبار، وبعدما تأكد هذا الموظف من سلامة هذه السيارة وعمل كل أضوائها، ركب بجانبي فقمت بجولة معه لم يتجاوز مداها كيلومترين، يكتفي فيها بإصدار أوامر تغيير الخط أو الاستدارة، وهو يراقب السرعة وطريقة تعاملي مع السيارة، وبعد الانتهاء أمرني بركن السيارة بمرأب الإدارة ليخرج منها قائلاً:

- هنيئاً !! اتبعني نحو الإدارة.

في أقل من عشر دقائق، تسلمت رخصة السياقة التي هي في الوقت نفسه بطاقة التعريف، بعد دفع واجبها المحدد بعشرة دولارات!!، وهكذا حصلت أخيراً على هذه الرخصة، فاشتريت بعد بضعة أيام أول سيارة لي من الميكانيكي صديق مديري "ويلسون"، كانت من نوع "هوندا سيفيك" خضراء اللون، عمرها تسع سنوات أُجبرت على ركوبها من محل هذا الميكانيكي بمدينة "سبرينگ فيلد" نحو أرلينغتون حيث أسكن، على مسافة عشرين كيلومتراً بمفردي !! اكتشفت من خلالها متعة الجلوس على كرسي مريح، وإحدى يدي على المِقود بينما الأخرى تعبث بشعري، ويكفي الضغط على دوّاسة السرعة برفق بواسطة رجلي اليمنى، ليتم عبرها اختزال مسيرة ساعات في دقائق !! والأجمل هو عندما تنضاف الموسيقى المنبعثة من الراديو إلى هذا الإختراع الآدمي، حيث تمتزج متعة القيادة بمتعة الانتعاش بالطّرب الموسيقي، وفي خضمّ هذه النشوة بدأت أكلم نفسي: "وداعاً أيها الميترو ! ووداعاً أيتها الحافلة ! وهنيئاً لي بمزيد من الوقت ينضاف إلى عمري عوضاً من إهداره في الشارع وداخل عربات الحافلة ومقطورات القطار!."

في ذلك اليوم عندما عملت في مطعم "ماجيانوز " ليلاً، تجاهلت خلالها رؤية الساعة في يدي، ولم أكترث للوقت الذي سننتهي فيه من العمل، حيث لم يعد يخيفني أن لا أنتهي منه قبل الحادية عشرة ليلاً بعد الآن، وهو موعد مرور آخر قطارات الميترو. فليستمر العمل إلى منتصف الليل أو بعده، لا أكترث، مادامت سيارتي مركونة خلف المطعم والتي بفضلها سأصل إلى البيت في غضون نصف ساعة على أبعد تقدير، وفي وسط الليل تطيب السياقة لمبتدئ مثلي، حيث الشوارع خالية بشكل يمنحني الفرصة للتعلُّم أكثر وكسب المزيد من التجربة، فأربع ساعات من التدريب على السياقة لم تكن كافية، وحتى شهر من السياقة لن يكون كافيا ليجعل مني سائقاً ماهراً، والأمر ينطبق على كل الحاصلين الجدد على رخصة السياقة، فكلهم مبتدؤون، واحتمال ارتكابهم للأخطاء وارد بنسبة كبيرة، لكن الطريق بكاميراته المخصصة للمراقبة وكذا دوريات رجال الشرطة الذين يعاقبون بالغرامات الضخمة، هم بحق أساتذة كل سائق جديد، كونهما يقومان بشفط جيب السائق بمقدار ارتكابه للخطأ، ومن الأخطاء والغرامات تُشحذ التجربة ويصبح السائق المتعلّم سائقاً ماهراً مع مرور الوقت.

الطرقات الأنيقة وإشارات المرور في كل مكان وتقسيم كل الطرق إلى اتجاهين متعاكسين،كلها أشياء تَجْعَل من السياقة في أمريكا سهلة وفي متناول المبتدئين كذلك، لكن هذا لا يمنع من وقوع حوادث السير الطائشة من فعل سائقين متهورين. وهو ما حدث لي بعد أسبوع فقط من شراء السيارة، حيث صدمت شاحنة من الوراء دون أن تتضرر هذه الأخيرة، في مقابل الضرر الشديد الذي أصاب سيارتي للأسف. أعدتها للميكانيكي صديق "ويلسون" الذي قبل بإصلاحها بثمن رمزي إشفاقا منه عليّ! فكان ذلك أول خطأ تفاديت من خلاله العديد من الأخطاء، ورب ضارة نافعة.

تتيح مصلحة العربات ذات المحركات في أمريكا المعروفة اختصاراً ب "دي إم .ڤي"، لكل من يمتلك السيارة حرية اختيار أي اسم أو رقم يضعهما في لوحة ترقيم سيارته، والمهاجرون دائماً ما يفضلون وضع أسماء مدنهم الأصلية، كتعبير منهم عن حجم الحب والشوق لتلك المدن حيث أتوا، أما الأمريكيون، فغالباً ما يفضلون وضع أسماء من يقاسمونهم الحب من الأشخاص !! والقاسم المشترك بين المهاجر والمواطن الأمريكي، هو أن لوحة الترقيم، هي تعبير عن حب و إخلاص لشخص أو مكان يشغل الفؤاد.

كنت أمني النفس أن أضع اسم بلدتي "ملاعب" في لوحة الترقيم، وكانت هذه الأمنية تراودني قبل امتلاكي للسيارة، حتى سبقني "عبد الصمد" لوضع هذا الاسم في لوحة سيارته، فما كان لي إلا ان عوضت ذلك الاسم ب "أمغى" التي تعني المنطقة حيث توجد القصور والبلدات التي تضم بلدتي "ملاعب"، كنوع من العرفان، وكنوع من الامتنان لبلدتي وللقرى المجاورة لها، وكعربون وفاء لعشقي لهذه البلدة ومحيطها، وسيبقى هذا الاسم في لوحة سيارتي، حتى ولو تخليت مستقبلاً عن هذه السيارة، فسأظل أحتفظ باللوحة كأيقونة تستحق الحفاظ عليها كما تُحفظ المقلتان.

تنتشر بين مهاجري المنطقة الجنوبية الشرقية للمغرب لوائح ترقيم السيارات بأسماء قرى تلك المنطقة، فنجد لوحات ترقيم تحمل أسماء من قبيل تنغير، ملاعب، أفانور، تيزگي، أمغى... وفي حال امتلاك أحد المهاجرين الجدد لسيارة، وسبقه أحد جيرانه في بلدته إلى ترقيم سيارته باسم هذه البلدة، فغالباً ما يجتهد في اختيار اسم بديل، حيث تنتشر اللوائح كذلك بأسماء : أمازيغ، تيفاوت، بيربير، تامآزغا...

عندما وقف "عبد الصمد" يوما بسيارته في الضوء الأحمر في طريق مأهولة بالعربات، انتبه إلى ضجيج بوق سيارة وقفت إلى جانبه، ألحّت عليه صاحبة السيارة بمجرد أن استدار إليها كي

يُنزل زجاج نافذته، فلماّ فعل، سألته عن ماذا تعني كلمة "ملاعب" المكتوبة في لوحة ترقيم سيارته، وحتى قبل أن يجيب فقد استرسلت في الكلام تحيطه علما أن ذلك الاسم إذا كان يعني لها شيئا، فليس سوى اسم بلدة صغيرة في الجنوب الشرقي للمغرب!!، فاندهش "عبد الصمد" لهذه المفاجأة، ليسألها من تكون؟. إنها اليهودية "كاتية"، التي أقامت ببلدتنا سنتين كدارسة للاجتماع، ولم تخرج من البلدة حتى أتقنت الأمازيغية كأهلها تماما! .

اشتعل الضوء الأخضر، فانصرف كلاهما في حال سبيله، دون أن تتاح لهما فرصة الحديث أكثر، خصوصاً وأن رجلا كان يركب بجوارها في السيارة، فلا يطيب الحديث لشخص أعزب مع متزوجة برفقة زوجها!.

V

معظم معارفي وأصدقائي في منطقة "واشنطن فرجينيا "هم من منطقتي "الراشيدية" و"وارزازات"، فقرعة اليانصيب الأمريكي لنيل البطاقة الخضراء أفرزت في هاتين المنطقتين استحواذ كل من "گلميمة"، التابعة إداريا "للراشيدية"، و"تنغير" التابعة إدارياً ل"وارزازات"،على حصة الأسد من عدد المهاجرين المنحدرين منهما. وتعتبر ولاية "فيرجينيا" و"واشنطن" معقل مهاجري "تنغير"، بينما تمثل "نيويورك" و"نيوجيرسي" مستقر القادمين من "گلميمة ". أما عن قريتي "ملاعب" القريبة من "گلميمة"، فلم يبتسم حظ الهجرة للكثيرين ممن حاولوا، إلا لي وَلعَبَد الصمد، وكان هذا الاخير أول الفائزين في مطلع الألفية الثالثة لأتبعه سنتين بعد ذلك، وبعدها بمدة قصيرة التحق بنا "الحسين" ثم جاء الدور على الظاهرة "حمّو"، وتبعه آخرون .

قرعة اليانصيب للحصول على البطاقة الخضراء التي تتيح للفائز فرصة الإقامة الدائمة في أمريكا، هي خطة اعتمدها مكتب الهجرة في هذه الدولة لإغناء التنوع الثقافي والإثني، إيماناً منه أن هذا التنوع هو مصدر قوة البلد. ويستفيد من هذه العملية منذ اعتمادها مواطنو البلدان التي لا يتجاوز عدد مهاجريها في أمريكا خمسين ألفا ، ومنها المغرب الذي تصل حصته السنوية الى ثلاثة آلاف بطاقة، تم رفعها بعد عشر سنوات من بداية نظام القرعة لتتجاوز ثلاثة آلاف ونصف الألف بطاقة، وكان حظ قريتي المجهرية فرداً عن كل سنة كمعدل منذ أول المهاجرين منها.

عندما اختار نظام القرعة الظاهرة "حمّو"، كان النظام الساري لمعالجة ملفات الفائزين قد تغير عما هو معمول به أيامنا، حيث كنّا نجتاز صباحا مقابلة مع القنصل بعد الإدلاء بالوثائق، ودفع قيمة التأشيرة، والتأكد من الإمضاء، ثم العودة بعد الزوال لتسلم التأشيرة مباشرة .هذه الخطوة الأخيرة تم إلغاؤها فيما بعد لدواع أمنية، حيث أصبح الفائز بعد اجتيازه لمقابلة الصباح يتم إخباره بأن تأشيرته ستكون جاهزة للتسليم بعد الاتصال به، وهو إجراء يمنح مزيداً من الوقت للدوائر الأمنية الامريكية لإجراء مزيد من البحث حول الفائز للتأكد أكثر من حسن سيرته، ومن خلو ماضيه مما قد يهدد الأمن القومي لأمريكا!! ، والاتصال عادة بالفائز يكون بعد أسبوع او أسبوعين أو حتى بضعة أشهر في بعض الأحيان.

عندما خضع "حمّو" لهذا الإجراء، بدا له أن انتظار جواب القنصلية لن يدوم أكثر من بضعة أسابيع، فانتظر صديقنا شهراً، فشهرين، فثلاثة، لكن جواب القنصلية لم يأت. بدأت الشكوك تراوده، وبدأت نفسه توسوس له أنني أنا مصدر هذا التأخير في عدم حصوله على التأشيرة بدافع الحسد ! فأخذ يتصل بي دورياً عبر "الميسانجر" يتوسل إليَّ أن

أتراجع عن وشايتي عنه لدى مكتب الهجرة !!! وضحت له مرات عديدة أنني غريب وأحب المزيد من الغرباء من بلدتي هنا، حتى يخف وطأ الغربة عليّ لِذَا فأنا أريده أصلا أن يلتحق بنا في أسرع وقت ممكن. مرت شهور أخرى و "حمّو" لم يتوصل برد، فأمطرني من جديد، بسيل من الرسائل الإليكترونية مرفوقة بالدعوات بطول العمر وحفظ الوالدين و ... متوسلاً إلي أن أسحب تأثيري على مكتب الهجرة!

نفذ صبر "حمّو" بعد مرور عام كامل، فاتجه نحو عائلتي يحدثهم عما يمليه عليه وسواسه. طلب منهم إقناعي بالتوقف عن عرقلة مسار هجرته، وهو ما وعدوه به، فما كان منه إلاّ أن اتصل بي في حضرتهم. وبمجرد جوابي على اتصاله حتى مرّر لي العمّ ليصمّ أذني نيابة عنه بشكواه !!! والغريب في الأمر، أنه بعد هذه المكالمة بثلاثة أيام بالضبط، توصل بمكالمة هاتفية من القنصلية تخبره بضرورة الالتحاق بالقنصلية لتسلم تأشيرته، وهو الأمر الذي جعله يتيقّن أن هواجسه وكل الوسواس الذي انتابه نحوي هو حقيقة واضحة وضوح الشمس في سماء صافية.

تسلم "حمّو" التأشيرة، واتخذ أول طائرة قادمة من الدار البيضاء نحو مطار واشنطن ! كنت مساء ذلك اليوم أعمل في المطعم حيث اتصل بي يخبرني أنه وصل مطار "واشنطن دالاس"، عاتبته على عدم إخباري مسبّقاً حتى أتمكن من أخذ يوم راحة، ولأن السيف قد سبق العذل فقد أخبرته بأنه يستحيل عليّ مغادرة مكان عملي حينها، وما عليه سوى انتظار حلول الساعة الحادية عشرة ليلا لألتحق به في المطار. كانت الساعة تشير إلى السابعة مساءاً لحظة ذلك الاتصال، بمعنى أنه سيكون مرغماً على انتظاري أكثر من أربع ساعات في المطار!

ما إن وصل عقرب الساعة إلى الحادية عشرة تماماً، حتى اتصل بي من جديد عن طريق الهاتف المحمول لأحد المارة بجانبه، كان المسكين يظن أنه بمجرد أن أنتهي من العمل في

الحادية عشرة، سأكون مباشرة بجانبه كأننا بقرية "ملاعب" حيث المقبرة جوار الثانوية والسوق جوار مكتب الجماعة، ومكتب البريد غير بعيد منهما، ولو كان في البلدة مطار لوجد مقرّه بجوار مقر البريد!. أخبرت المسكين أنني بالكاد انتهيت من العمل وللوصول إلى المطار أحتاج على الأقل نصف ساعة حالة خلوّ الطريق إضافة إلى الوقت المستهلك في البحث عنه في ذلك المطار العملاق، وتفادياً لهذا المشكل الأخير طلبت منه أن يقف خارج قاعة المطار بمحاذات الطريق بينه وبين المرأب.

أخيراً وصلت إلى المطار متأخراً جداً، لأنني أخطأت الطريق وخرجت في منعطف غير الذي أقصده وكان رجوعي إلى الطريق السريع صعبا للتعقيد الذي تتصف به الشبكة الطرقية الأمريكية، وكان "حمّو" طوال مدة انتظاره يهاتفني وأطمئنه تارة بوجود الشرطة على الطريق، وتارة أخرى بزحمة هذا الطريق.

وصلت إلى المطار، وأبطأت السير حتى أتمكن من رؤيته، ، بدا لي وجه "حمّو" الذي لم يتمكن بعد من رؤيتي، وقد تحول إلى وجه عجوز من شدة عبوسه، ولكثرة تجاعيد وجهه، ومن شدة العياء الذي أصابه جراء الرحلة الطويلة وطول انتظاره في المطار. وبمجرد أن ركنت السيارة بجانبه وخرجت منها لأصافحه تفاجأ ونطّ من مكانه .استعاد ذلك الوجه المنكمش، الشبيه بانكماش قارورة مياه معدنية عند تمريرها فوق اللهب، شبابه ونضارته، كأن هذه اللحظة أشبه بلحظة ميلاد جديد، فقد وصل حمو إلى مبتغاه الذي من أجله عاش الثلاث والعشرين سنة من عمره في تلك اللحظة.

اتجهنا حيث أسكن بـ"أرلينغتون"، كنّا طوال مسافة الطريق نحن الاثنين نتناوب على السؤال، وكانت أسئلتي تصب حول معرفة كل جديد عن بلدتي "ملاعب" وأناسها، أما دوره في

السؤال فيغتنمه للاستفسار عن المهارات التي اكتسبها كعامل في مدينة "الناظور"، وما إذا كانت ستشفع له في إيجاد عمل في أسرع وقت ممكن، كما كان يسأل عن الأجر اليومي وثمن الكراء وغيره.

استعجل "حمّو" في الأيام الأولى لوصوله في تسلم كل وثائقه ليلج سوق العمل، وبالفعل فقد دخل هذا السوق من خلال مطعم " البرانس" ب"جورجتاون" في واشنطن، وهو مطعم متخصص في الأكلات الشرقية و"الشيشة"، وسيعمل فيه "حمّو" كمساعد نادل، والغريب في الأمر أن مشغّله وهو مصري لم يشغّله لأنه يحتاج إليه فعلا كمساعد نُدل، بل إن هذا المدير الذي يواجه المشكلة مع العديد من زبائنه الذين يختلقون له الأعذار ليتجنّبوا دفع الفواتير هو الذي دفعه للبحث عن شخص مفتول العضلات ضخم الجثة ليعمل كحارس أمن يفرض على المشاكسين من الزبائن دفع فواتير استهلاكهم في المطعم بمحض إرادتهم أو بالقوة إذا اقتضى الحال، وبالطبع فقد ظن المدير من أول نظرة أن "حمّو" هو المناسب لهذا المنصب.

في هذا المطعم يعمل بعض المغاربة نُدلا، وهم في الغالب طلبة تخلوا عن الدراسة وأطالوا الإقامة في أمريكا كمهاجرين غير شرعيين، والمطعم يتكون من بابين، باب أمامي خاص بالضيوف وباب خلفي خاص بمطرح النفايات، وكان هذا المطعم بفعل كثرة المشكلات قد أصبح مزارا دوريا لرجال الشرطة. وحتى يتجنب المدير مزيداً من المشاكل مع عماله غير الشرعيين، فقد كان يوصيهم بالخروج من الباب الخلفي والذهاب إلى منازلهم بمجرد دخول رجال الشرطة من الباب الأمامي، وهؤلاء النُّدل هم من يعمل حمّو مساعداً لهم كعمل صوريّ دون أن يعلم أنه في نظر المدير يمثل– القوة –الساهرة على أمن هذا المطعم، وقد حدث يوما أن رفض ضيوف أداء واجب الفاتورة، واختلقوا لذلك أعذاراً واهية، حينها ذهب المدير إلى المطبخ وأمر "حمّو" أن يخيفهم ويهددهم بضرورة دفع مستحقاتهم للمطعم!.

إنها أول مهمة رسمية لـ"حمّو" التي من أجلها تم تشغيله في ذلك المطعم، فكيف لشخص يخاف سناجب الطريق أن يواجه ثمانية أمريكيين من أصل أفريقي مظهرهم مخيف ولا شك في إدمانهم أو حتى حيازتهم على الأسلحة النارية تحت معاطفهم، إنها المرة الأولى التي فكر فيها "حمّو" في التصرف كما يتصرف النّدل غير الشرعيين عندما تقتحم الشرطة المطعم، فقرر الانصراف من الباب الخلفي للمطعم متجها إلى المنزل في وداعٍ لا رجعة فيه لذلك المطعم المشؤوم لينجو بجلده قبل حدوث ما لا تحمد عقباه.

طرائف الجدد من ابناء منطقتنا الملتحقين بنا في أمريكا عديدة حيث لا تستثني هذه الطرائف أي أحد منهم بمجرد أن تطأ قدماه هذه البلاد الغريبة، ف"لحو بامغار" عندما فاز سنة 2005 بيانصيب القرعة الأمريكي، قرر الالتحاق بنا بولاية فرجينيا، وأوصيناه مرارا وتكرارا أنه عندما يتقدم لاقتناء التذكرة أن يخبر وكالة الأسفار في الدار البيضاء، أنه قاصد مطار "دالاس" بفيرجينيا، لأن عدد المطارات بولاية أمريكية واحدة يفوق بكثير عدد المطارات في المغرب كله، فما بالك بعدد المطارات في أمريكا كلها، أما إصرارنا أن يذكر "دالاس" مقرونة بفيرجينيا فمرده أن المدن والقرى في أمريكا باسم دالاس عديدة، لذلك ألححنا عليه بضرورة التخصيص.

طلب "لحو بامغار" ابن قصر" تاشعوفييت" بنواحي ألْنيف في استهتار لنصيحتنا له من وكالة الأسفار تذكرة إلى "دالاس"، هكذا مبتورة من الشق الثاني "فرجينيا". ولما وصل صديقنا هذا إلى وجهته في أمريكا وقام بتسوية أوضاعه القانونية في مكتب الهجرة في المطار، خرج إلى باحة المطار وهو يظن أننا على مرمى حجر! حيث أعطى أحد رجال الشرطة ورقة فيها عنواننا، ليندهش الشرطي، فصديقنا "لحو" لسوء تقديره وعدم أخذه بنصيحتنا أقلته الطائرة إلى "دالاس" عاصمة تكساس على بعد 2189 كلم منا !! أخبره الشرطي أنه بحاجة إلى طائرة أخرى تقله عائدا الى وجهته لبعد المسافة، لكن صديقنا ألحّ على الشرطي أن

يدله على محطة الحافلات، لأن المسكين كان يظن أن السفر بين حيث هو وحيث نحن هو بمثل السفر بين أي مدينتين متقاربتين في المغرب ! والشرطي الامريكي الذي تربّى على احترام رغبة الفرد على شذوذها، دلّه إلى حيث يريد. ليبدأ صديقنا "لحو" رحلته التي تصورها ستنتهي على أبعد تقدير في سويعات قليلة!

ظلت الحافلة التي أقلت صديقنا تقطع القفار والغابات تارة، والمروج و الجبال تارة أخرى، ولا تتوقف إلا في محطات خاصة كل ستّ ساعات لتغيير الحافلة والسائق، وإعطاء فرصة للركاب لأكل وجباتهم، وغير تلك الخمس والأربعين دقيقة مدة التوقف ، فقد تجلد "الحو بامغار" في كرسيه ثلاثة أيام وثلاث ليال على تلك الحالة ! شاهد خلال رحلته تلك كما قال لنا فيما بعد مناطق تشبه في جغرافيتها مناطق "ألنيف" حتى ظن أنهم أعادوه من حيث أتى !! ولما وصل منزلنا بفيرجينيا، كانت رجلاه متورّمتين جراء جلوسه المزمن على كرسي الحافلة، ويظهر من وقوفه ومشيته أنه يحتاج إلى الترويض ليسترجع قدرته على المشي بصفة طبيعية .المهم أنني أخبرته بضرورة أخد حمّام ثم الخلود للراحة، وبينما هو داخل الحمام، كنت مع "عبد الصمد" نتناول فطور الصباح، وإذ بِنَا نسمع دوي سقوط عنيف في الحمّام، ليتضح أن صديقنا "لحو" زلقت رجلاه في حوض الحمام فسقط سقطة عنيفة ارتجت لها أركان شقتنا، فهمس عبد الصمد في أذني قائلا:

– ألا يعرف سكان "ألْنّيف" حوض الحمّام؟!.

أجبته بكل جدية:

– لا هم ولا نحن نعرفه قبل الوصول إلى هذا المكان!!

كان أيضا "مبارك" ابن أحد القصور القريبة من أرفود، واحداً ممن استقبلناهم لحظة وصولهم لأول مرة، وقد التحق بنا في أمان ودون طرائف تذكر، لكن طريفته تأجلت الى يوم ارتباطها بمشاهدة الأفلام على التلفزة ، وترتبط قصته بشركة الاتصالات الأمريكية "ڤيرايزن" التي تتيح لمشتركيها خدمة الهاتف

الثابت والانترنيت والقنوات التلفزيونية، وهذه الأخيرة التي تسمى خدمة "الكابل" تتم عن طريق تثبيت جهاز يعمل بمثل نظام الصّحون المقعّرة لكن دون حاجته إلى هذا الصحن، وتكون أقساطه الشهرية بقدر عدد القنوات المشترك فيها، مع وجود قنوات اختيارية للأفلام المستجدة تضاف قيمة

مشاهدة أفلامها إلى أقساط الخدمة بمجرد اختيار مشاهدة شريط ما، وكل خصم إضافي على الأقساط الشهرية الثابتة يتم تحديد تفاصيله في الفاتورة كنوع الفيلم الذي تمت مشاهدته، وس اعة مشاهدته، وثمنه.

كانت أقساطنا الشهرية من هذه الخدمات محددة في مئة وخمسة وثلاثين دولاراً شهرياً ، لكنه حدث أن توصلنا بالفاتورة بعد شهر من إقامة "مبارك" معنا، فكان مبلغها مرتفعاً ارتفاعا فاحشاً أصابنا بالصدمة، أربع مئة وخمسة وثمانين دولاراً أي بزيادة ثلاث مئة وخمسين دولاراً عن المبلغ المعتاد والمتوجب علينا دفعه، بحثنا في الأوراق المرفقة بالفاتورة عن مصدر هذه الصدمة، واكتشفنا أن أحدنا اعتاد مشاهدة الأفلام الاباحية المؤدّى عنها بالدقيقة !! وازداد وقع الصدمة عندما علمنا أن من يدمن مشاهدة تلك الأفلام يعمل على تشغيلها في الثانية بعد الزوال أي بعد أن نغادر الشقة جميعاً ويبقى "مبارك" وحده في البيت !

إحمرّ وجه "مبارك" خجلاً، ولم يعلق على ذلك التحقيق بشيء، غير إيماءة برأسه تفيد أنه فعلاً هو من يشاهد تلك الأفلام وتعهّد أن يصلح الأمر بدفع الفارق بين الفاتورتين!!. الغريب في الأمر أن "مبارك" منذ قدومه وانضمامه إلينا كان خجولا لا يتحمل سماع كلمات عن "العورة " أو أي كلمة من القاموس الجنسي، فعندما نجتمع حول المائدة فأقول مثلا "الخصيتين"، يتوقف بفعل الخجل عن الأكل ولو احترقت معدته من شدة الجوع، وإذا تماديت وأضفت كلمة "ثديين" ينصرف في الحال ليتوارى عن الأنظار معتكفاً بالغرفة يصلّي، كأنه يستغفر الله عن دخول الكلام الفاحش أذنيه بغير إرادته !! فكيف لهذا العبد

الذي يخجل من مجرد كلمات خادشة للحياء أن يجد ضالته في مشاهدة الخدش بالحياء صوتاً وصورة!!؟. ولِحسن حظه أنه بدأ العمل بمجرد وصوله إلى أمريكا، وكان بمقدوره دفع ثمن الضرر الذي تسبب فيه بتهوره وسوء تقديره، ولو تورّط في مشاهدة برنامج ديني مؤدى عنه، لأشفقنا عليه وتضامنا معه في أداء الفاتورة، إيماناً منا أن السلوك والفعل المحمودين يستحقان التضامن مع فاعلهما، أما وقد تعلق الأمر بفعل فاحش عنوانه مشاهدة أفلام إباحية، فليس هناك من حرج في استباحة جيب الفاعل لتصحيح فارق الفاتورة!!

كان "مبارك" قبل مجيئه إلى أمريكا طالباً جامعياً ينتمي لفصيل "العدل والإحسان"، وصل إلى أمريكا، وهو مواظب على أداء فريضة الصلاة في وقتها، ورويداً رويدا بدأ يتكاسل عن أداء صلاة الصبح في موعدها، بعدها بدأ يجمع عدة صلوات في وقت واحد كأنه يفعلها عمداً لتركيز جزائها من الحسنات، ليتخلى عن الصلاة في آخر المطاف مكتفياً بأداء صلاة الجمعة ملجأ كل مسلم منافق يسعى للظهور أمام الناس في ثوب المؤمن الصالح، ومع مرور الوقت تخلَّى كذلك عن هذه الصلاة وتخلّص من "وزرها " أخيراً. كان خجولاً منذ وصوله، لكنه بعد حادثة الأفلام الاباحية تغيّر، فتطبّع بسلوكنا فأصبح بدوره يجهر بالكلام الفاحش حتى أصبح جوابه عن أي سؤال أسأله إياه يتضمن كلمات نابية:

– أوراتدّوت أديتسوقت (ألن تذهب الى السوق؟؟) سألته يوما.

– إمايتسكارت كي أبو وخنا (ماذا تفعل أنت يا صاحب المؤخرة!!) كانت اجابته.

* * * * *

يقتضي نجاح المهاجر الجديد في أمريكا أن يتحلى بقوة الشخصية حتى لا ينزلق في غياهب حياة الانحراف والإدمان، التي تتوفر كل مقوماتهما في هذا البلد، ويزداد احتمال انزلاق المهاجر الجديد واستسلامه لهما إذا أتى من بلد عانى فيه من الحرمان ألواناً .فالعديد

من المهاجرين، كما سلف الذكر، بعدما كانوا يدخّنون بضع سجائر رديئة ويقتصر وقت معاقرتهم للمشروبات الكحولية على المناسبات والأعياد المعدودة طوال السنة، أصبحوا بعدما وطأت أقدامهم أرض أمريكا مدمنين على العادتين القبيحتين إدماناً مخيفاً، حتى ان منهم من يروي عطشه بالكحول عوض الماء !!. والسقوط في متاهات الإدمان مرده إلى الإغراءات الثلاثة التي يوفّرها محيط أمريكا لمعاقري هذه الممنوعات– سيما الكحوليات منها– وهي ثمنها البخس، وجودتها، وغياب رقابة المجتمع!! .

الفرق في كيفية الإقبال على شرب الكحوليات بين مهاجري بلادنا ومواطني أمريكا، أن المواطن الأمريكي يشرب حتى يحسّ بنفسه قد وصل عتبة النشوة فيتوقف عن الشرب، أما العديد ممن أعرفهم من مهاجري وطننا المعاقرين للكحول، فشربهم شرب بليد، إذ لا يتوقف أحدهم عن الشرب حتى تخور قواه فيستسلم لوهن عضلاته ثم ينام بعدما يكون قد سبّ وقذف وغنّى وتبادل التهم مع من بجانبه، و يكون قد بكى بكاء الرضيع بعدما ثرثر وهو يعيد شريط ذكرياته المؤلمة على مسامع ندمائه من السكارى مثله، وغيرهم ممن أرغموا بفعل ظروف الأقدار أن يقتسموا السكن معه!.

في مساكن المهاجرين التي تضم ثلاثة أفراد وأكثر، عادة ما يكون أحدهم على الأقل معاقراً للخمور، وآخر على الأقل لا يقربه، وهذا الأخير بحكم هذه الغربة الغريبة أصلاً لا يرى حرجاً في أن يتوضأ وضوءه للصلاة فيجلس إلى جانب المدمن على مائدته يبادله الحديث إلى أن يحين وقت الصلاة فينصرف إلى عبادة الرحمان في زاوية من زوايا ساحة المنزل تاركاً صديقه يتمم صلاته مع الشيطان بكؤوس الرّاح، والغريب أن بعض المدمنين أنفسهم يواظبون على الصلاة فيترك أحدهم الشرب إلى ما بعد صلاة العشاء حيث يبدأ ليلته بالخمر والسجائر وعندما يستيقظ من نومه صباحاً يغتسل غُسل الجنابة ليدشّن يومه

الجديد بصلاة الصبح، كأن هذا الغسل يعمل في ذنوب الخمر عمل ممسحة المطاط في ما خطّه قلم الرصاص على صفحة ورقة بيضاء.

عندما يخرج المدمن باكراً من العمل، أو يكون في يوم راحة، غالبًا ما يقتني الخمر والجعّة وهو في طريقه إلى بيته، يقتني منها ما يُقدّره أنه كاف لليلته الحمراء، وعندما يبدأ بالشرب، يكتشف أن كل الغالونات من الكحول التي اقتناها غير كافية لإخماد قواه، فيسرع للإتصال بأحد "عُشرانه" الذي سيخرج من العمل قبل منتصف الليل موعد بداية حضر بيع الكحول، ليقتني له مزيدا من الخمور من محلات "سيڤن إليڤن" التي تفتح على مدار الساعة.

تحول "سعيد" ابن بلدة "تنجداد" من ذوّاق للكحول في بلدته إلى مدمن عليه في أقل من شهرين، عمر إقامته معنا في أمريكا، وزاده إدماناً عمله كمساعد ساقي في "بار" أحد الفنادق الفخمة في ضاحية "كريستال سيتي" القريبة مناّ، حيث اعتاد يوميا، قبل خروجه من العمل، أن يُهرّب قناني أجود أنواع الخمور ليقضي بها ليلته. ورغم إدمانه، فإنه على عكس أغلب المدمنين، حريص في البيت على عدم إثارة الانتباه إليه بالضجيج أو الثرثرة، لأنه ضيف ويعي جيداً حدوده في منزل مضيفه .يشرب "سعيد" عادة في صمت، ويعوم في خياله في صمت كذلك، يخرج يوميا بعد منتصف الليل من العمل ونحن نيام فيبدأ في الشرب لوحده في صمت تام حتى يلعب الخمر بمخه، فيحتاج الموسيقى، حيث لا يطيب السّكر للشارب من دونها. وحتى يحافظ على هدوء المكان، فإنه يعمد الى استعمال سماعات الأذن لسماع الموسيقى، فيرقص واقفاً حتى تتعب رجلاه، فيجلس ليستريح وليشرب المزيد، ثم يقوم ليرقص مرة أخرى، وهكذا دواليك حتى تخور قواه فيستسلم للنوم على الأريكة حيث كان يشرب، وغالباً ما أجده في الصباح نائما نوماً أشبه بالموت، وفاتحاً فمه بالشكل الذي يتمنى كل طبيب أسنان أن تُفتح به أفواه مرضاه!.

في تلك الآونة، لم يكن يمر شهر دون أن نستقبل فيه مهاجراً جديداً من معارفنا، أو حتى من معارف معارفنا في الديار، فقد التحق بِنَا كذلك "عزيز" وهو من منطقة "ألْنيف" وكان هو الآخر سكيراً معتدلاً، حولته أمريكا إلى مدمن على الشرب، وقد حدث أن تزامن وصوله مع وجود "سعيد" معنا، فأصبحا صديقين عزيزين، تزداد سعادتهما كلما جمعتهما في البيت طاولة المدامة، والغريب أن "عزيز" ثرثار بقدر صمت "سعيد"، فكان الأول يتكلم والآخر يكتفي بالإصْغاء طوال سهرة السُّكر، ولا يتوقفان عن الشرب حتى تخطف أحدهما أو هما معاً سكرة النّوم، وقد حدث يوماً أن ضبطت "عزيز" في منتصف الليل وهو ثمل يحدث نفسه في الحمّام وهو ينظر إلى وجهه في المرآة، يوبّخ نفسه بنبرة حادة : " ألا تخجل من نفسك؟ !هل نسيت الحرمان الذي تركت فيه عائلتك وراءك ؟ !أولست هنا لتخفف العبء عنها وليس من أجل جلسات الخمر والمجون أيها المجنون؟! ألم تستحِمن نفسك وأنت على تلك الحالة؟!...". وفجأة ترتفع لديه درجة الغضب فيبدأ في سبّ نفسه بإنجليزية ركيكة بالكاد تعلّم منها بضع كلمات، وأولها التي يتعلمها الإنسان من أي لغة جديدة "في مجتمعاتنا" هي السّباب والكلام البذيء، فيقول عزيز مخاطباً نفسه في المرآة والرّذاذ يتطاير من فمه : "يا من ضاجع أمه ! يا ثقب المؤخرة ! ألم تخجل من نفسك يا قطعة غائط !!! ... " ثمّ استدار فجأة نحو ثقب المرحاض ليتقيّأ، والقيء نذير إفراط في الشرب، لكنه يرفض الاستسلام فيعود إلى جانب صديقه "سعيد" ليشرب المزيد!! .

عاشرت منذ التعليم الثانوي مختلف أصناف المدمنين وعمالقة الحشّاشين، وسكنت مع بعضهم طوال السنة الدراسية، وفي أمريكا عاشرت كذلك العديد منهم ولسنوات عدّة، دون أن أتجرأ يوما على شرب ولو القليل من الخمر أو الجعّة، كما لم أجرب يوماً ثمالة السُّكر، وكان كل من عاشرتهم من مدمني الكحول يوصونني بعدم الاقتراب منه، أو حتى التذوّق منه، لأن شربه مرة واحدة على سبيل التجربة، قد يتحول معها الأمر إلى عادة ثم إدمان، وعدم سكري في يوم من الأيام جعلني دائماً أستغرب للعربدة التي يحدثها بعض السكارى في البلدة،

وسلوكهم الفاضح الذي يصل أحياناً إلى الصّراخ والعويل في الشارع العام، وكنت حينها أطرح على نفسي هذا السؤال : "هل صحيح أنّ ثمالة السُّكر تجرِّد الإنسان من ملكة التمييز وتجعل منه حيواناً؟ أم أن سلوك الثّمل هو مجرد تهريج وتمثيل ؟؟".

سألت أحد المدمنين من أصدقائي أيام كنت تلميذا في ثانوية الحسن الثاني بتنجداد عن إحساس السكارى حتى الثمالة، والذي نسمي فيه الإنسان عندنا وهو في تلك الحالة "حماراً !" وعن سرّ السلوك العدواني لهؤلاء؟ !حينها حاول الصديق واجتهد كي يقربني من الصورة أكثر، فشرح ذلك بكون الإنسان عند إسرافه المفرط في الشرب يكون عديم الإحساس وقليل الحيلة في رد الفعل حيث لو قدر له أن عُلّق فيها هذا الثّمل في السماء من رجليه ورأسه إلى أسفل، فإن لسانه سيتدلّى خارج فمه بفعل الجاذبية ! دون أن تكون له القدرة على إرجاعه داخل الفم بفعل التراخي الشديد الذي يصيب العضلات !! أما السلوك العدواني للثّمل أو حتى غبطته الزائدة، فهي كلها ردود فعل عن النية المبيتة في نفس هذا الشخص قبل السُّكر، فيعبّر عنها بإفراط أثنائها.

شاءت الأقدار يوما أن أرحل عن شقة "كولومبيا بايك" نحو شقة مستقلة اقتسمتها مع "مصطفى" أحد أبناء بلدة "الحارة" التابعة لتنغير، وتوجد هذه الشقة بالقرب من القاعدة العسكرية "فورت ماير"، وقريبة جداً من مطعم "جيريس"، وبعد أسابيع التحق بِنَا "إدريس" الذي ليس سوى أحد أصدقاء مصطفى، وينحدر هو الآخر من إحدى القرى التابعة كذلك لتنغير، وهو مدمن لكنه يستطيع التحكم في نفسه، حتى وإن شرب من الخمر براميل، ثم انضم إلينا "لحسن" ابن إحدى القرى المجاورة لبلدتي "ملاعب"، وقد أحدث هذا الأخير جلبة كبيرة، في الأيام الأولى لوصوله إلى "أمريكا" وحتى قبل أن يتوصل بأوراق الإقامة ويستأنس في المكان، إذ شرب حينها من الخمر ما أخرجه عن طبيعته، فخرج إلى الشارع ينهق على الطريقة "الملاعبية"، يسبّ ويشتم جهاراً قبل أن يجهش بالبكاء في مشهد غير

مألوف في الشارع الأمريكي، ما جعل السكان في الجوار يطلّون من نوافذ شققهم لرؤية مشاهد هذه المسرحية البليدة التي أغضبت "مصطفى" وجعلته لا يتردّد في الاتصال بي في العمل حيث خاطبني بنبرة حادة:

– أَدّود سْكْسْوْ مَاذْيَاغْن الزّنْبيل نْكْ هات إِسْكْرْ ديغ إِگّا أَغْيُولْ ؟!

(تعال لترى ما أصاب هذا "الزنبيل" لقد فقد صوابه مجددا بفعل السّكر!)

اشتدّ غضبي ولم أتردّد في استئذان مديري لأخذ استراحة قصيرة كي أصلح فيها ما أفسده من استضفته في بيتي الذي أقتسمه مع "مصطفى"، فأخذت من المطعم دلواً ملأته بالماء البارد وأضفت له مكعّبات الثلج وانطلقت في سرعة جنونية نحو الشُّقّة.

– مَانِي إِشْنْتِي (أين اللقيط؟؟ !) سألت "مصطفى" بغضب .

–هَانْ أَغْيُولْ گالبيت (الحمار في الغرفة) . أجاب بنبرة أكثر غضباً.

دخلت الغرفة فوجدته ممدّداً على السرير، ودون تردد أفرغت عليه سطل الماء المثلّج، وأنا أظن أن الماء البارد سيجعله يتعافى من التخدير، وآنذاك أُسمعه آخر إنذار، لكنه من فرط الشّرب لم يحرك ساكناً، لأعود أدراجي إلى العمل بعد اقتناعي أن لا جدوى من أي شيء سأفعله أمام شخص صحراوي لم يوقظه دلو ماء مثلّج.

في صباح اليوم التالي كنّا نحن الأربعة حول مائدة الفطور، حينها بدأت أوبّخ "لحسن"، أما مصطفى وإدريس فالتزما الصمت يراقبان الموقف، وبينما كنت أحدثه، أخبرته أنني وإن لم أتذوّق الكحول طوال حياتي، فإنني لو شربت نفس الكمية التي شربتها أنت بالأمس ما كنت لأتصرف بمثل ما تصرفت، ليجيب فجأة جواب الواثق من نفسه بلغة التحدّي:

– أتحدّاك أن تميز مشرق الشمس من مغربها بعد شرب قنينتين صغيرتين من الجعّة! .

– بزّاف عليك !! واجهته متحديا كذلك.

تدخّل "الفضولي" إدريس مؤكداً كلام "لحسن"، مصرًّا على عدم قدرتي على المحافظة على سلوكي الاعتيادي بعد استهلاكي لقنينتي جعّة. حينها صممت على شرب الخمر لأول مرة في حياتي، لأؤكد لهما وأتأكد بنفسي أن تصرف السكير سكراً طافحاً هو تصرف مصطنع يمكن أن يتجنبه، فاتفقنا أن أقوم بالشرب ليلة ذلك اليوم بعدما أخرج من العمل.

خرجت تلك الليلة من العمل، فأقتنيت كارتونة فيها إثنتي عشرة قارورة جعّة من نوع "باد لايت" وقنينة من الشامبانيا، فوجدت الثلاثة ينتظرونني لحسن وادريس ومصطفى الذي كان مواظباً على صلاة الصبح في حينها، وكان الأخير متحمساً لمجلس الشيطان الذي سأكون نجمه تلك الليلة، وبمجرد دخولي إلى الشُّقَّة، قصدت المطبخ مباشرة فقمت بتحضير أرز بالحليب، ملجئي إذا خسرت الرهان وتأزمت الأمور. فالحليب بالأرز هما من سيفرغان معدتي في حالة عدم تحمُّلها للكحول.

عندما وضعت الاثنتي عشرة قارورة من الجعّة وقارورة الشمبانيا على المائدة، بدأ "إدريس" يضحك فأخبرني ساخراً أننا لن نصل إلى قارورة الشمبانيا، حيث أصرّ أنني سأنام من فرط الثمالة في منتصف الطريق نحو إتمام شحنة الجعّة !! وقد اتفقنا أن يشرب كل منا وتزامناً من الجعّة قارورة قارورة، أشرب القارورة خاصتي بالإيقاع نفسه الذي يشرب به قارورته. أتممت بشق الأنفس شرب القوارير الستّة خاصتي، حيث شربتها مكرهاً لأنني لم أكن أتصورها بذلك العُلقم، بعدها سألته:

- " هل هذا هوّ السُّكر!! ؟؟ " لألتفت بعدها نحو "لحسن" :

- ألم تستطع أن تتمالك نفسك بالأمس وتحافظ على ملكة التمييز التي تميزك عن الحيوان؟؟!

لم يرض "إدريس" بعدما فشل في رؤيتي في الحالة حيث يريدني عليها، خصوصا بعدما شربت القارورة السادسة، فقرر فتح قارورة الشمبانيا، التي تناولناها مناصفة كأساً كأساً، إلى

أن أتينا على آخرها، لأتأكد من جديد أن عربدة السكارى مصطنعة، ونهيقهم متعمّد وليس بفعل السُّكر. أقول هذا في تلك اللحظة، لأنني أتكلم من نفس الموقع الذي يتصرفون من خلاله كالحمير، لا عقل ولا تمييز ولا ضمير، حيث تأكدت خلالها أن الكحول لا يُخفي كل تلك الملكات، ولكنهم يتعمدون تغييبها فيتهمون الكحول.

بالفعل فقد تراخت عضلاتي بشكل لا أقوى معه على بذل أي مجهود عضلي، وأصبحت الموسيقى المنبعثة من جهاز التلفاز أكثر إطراباً للسمع، أحسّ بنوتاتها تسبح في مخي ببطء، أنتشي لها، لأدرك تلك اللحظة لماذا يقولون إن متعة السُّكر لا تستقيم من دون موسيقى، أما "الأكواريوم" الموجودة في زاوية ساحة المنزل، والتي تسبح فيها ستّ أسماك، فقد أصبحت هي الأخرى أكثر جمالاً وسحراً، والغريب أننا نملك هذا الحوض المائي لأكثر من شهرين ولم أكتشف سحره وجماله وكذا مفعوله على العين إلا في لحظة سكر! إن سرّ هذا الجمال الأخّاذ في رؤية الأسماك تسبح، ونشوة سماع الموسيقى هما نتيجة للبطء الذي يعتري المخ في فك شفرتي الصوت والصورة بفعل التخدير، فيكون ذلك الوقت الذي يستهلكه هذا المخ لفك رموز تلك الشفرات كله نشوة ومتعة.

خاب ظن "إدريس" في إسقاطي مرة أخرى جسمًا بلا حراك، أما أنا، فباستثناء خمول عضلاتي وإحساسي بثقلها، فقد احتفظت بقدراتي العقلية بكيفية أستطيع معها في تلك اللحظة أن أتعامل خلالها مع "الدّالة اللّوغاريتمية" من مرحلة وضعها في مجموعة تعريفها حتى تخطيط منحناها في معلم منظم!!. وإحساس "إدريس" بالامتعاض لم يشجعه على الاستسلام وإعلان فشله، فحاول التغطية على ذلك بأن اقترح علي شرب المزيد، وهو طلب لم أرفضه له، فأنا أصلاً قد عصيت الله، فلا بأس من التمادي في المعصية، مادام أن إثم شرب الخمر يتساوى فيها شرب الرشفة بشرب بضع لترات! فاقترح علي الخروج معه الى أحد البارات بـ"جورج تاون"، وهو ما حدث بالفعل، حيث ذهبنا في سيارته حتى مبنى أحد "البارات" التي اعتاد الشرب فيها، ولأول مرة سأجلس في "الكونتوار" في مواجهة الساقي

ليقدم لي مشروبًا كحولياً بعدما اعتدت في السابق عندما أكون بصحبة أحد المدمنين من أصدقائي أن أطلب عصيرا أو قهوة.

لما جاء السّاقي ورحب بِنَا، غمزه "إدريس" فانحنى نحوه السّاقي ليهمس له بتمتمات في أذنه ليجيبه السّاقي بدوره: "أوكي"، كأنهما اتفقا معا على إرسالي إلى حيث يصعب العودة منه!!. وككل البارات في أمريكا، فإن الجدار الموجود خلف السّاقي عندما يكون هذا الأخير في مواجهة زبائنه، هو عبارة عن رفوف رُتبت فيها قوارير الكحوليات من مختلف الأنواع والأحجام، وبعدد يفوق المئة وأحياناً بضع مئات، مرتبة من الأسفل نحو الأعلى حسب تردد استعمالها من طرف هذا السّاقي، بحيث تكون القوارير الأكثر استعمالاً بالقرب منه، والأقل منها استعمالا في الرفوف العليا .هذا بالنسبة الى الخمور، أما الجعّة فتوجد في جانبه على شكل صنبور الضغط باختيارات عدة، بعدد أنواع الجعّة المتوفرة في ذلك البار.

وضع السّاقي أمامنا كأسين زجاجيين مقعّرين بقاعدة مسطحة وساق رقيقة، كأنّ السّباق إلى صنعه لأول مرة استوحى أنموذجه من وقفة اللّقلاق !! وضع في كل منهما بضع مكعّبات من الثلج، ثم وضع أمامه قارورة من الألومنيوم، حينها بدأ ينتقي القوارير من ورائه ليضع بعضاً من محتواها في تلك القارورة، وأحياناً كان يستعين بكرسي صغير للوصول إلى أعلى الرفوف حيث القوارير نادرة الاستعمال في ذلك البار، لغلائها بسبب قوّتها، أو حتى لندرة خام محتواها في الطبيعة!!، ولماّ انتبهت إلى إسرافه في تحضير مشروبنا، استدرت نحو "إدريس" فأخبرته مازحاً أنّ السّاقي لن ينتهي من صنع هذه "القنبلة" حتى يأخذ آخر قارورة فيها أشرس أنواع العقارب، فيقوم بعصر سمِّها مع ذلك الخليط.

أغلق السّاقي القارورة بإحكام، فقام برجِّها بعنف، ثم فتحها وقسّم محتواها مناصفة بين كأسي وكأس إدريس، ليضع بعدها أنبوبين رفيعين في الكأسين لمصِّ محتواهما حفاظاً على

أسناننا من برودة المشروب، ثم انصرف لخدمة زبائن آخرين بعدما تمنّى لنا رحلة ميمونة!!. وطوال المدة التي استغرقتها في شرب ذلك الكأس، كنت أسخر من "إدريس" لكون المشروب منتوج السّاقي المتورط معه في نية إسقاطي لم يؤثر في قدراتي الذهنية، كأنني أشرب ماءً معدنيًا ! بينما هو، فقد كان يقابل سخريتي بالضحك الشديد ويقول بكل ثقة "تمهّل، تمهّل!".

كان محقاً هذه المرّة، فالكأس الذي طلبه لي، كان من نوع الخمور المركبة التي لا تؤثر على الشخص ما لم يبرح مكانه، وهو ما حدث لي وأنا جالس في جواره على كرسي معدني عالٍ شبيه بكراسي القاعات الدراسية الخاصة بالعلوم في المؤسسات الثانوية في المغرب. ما إن اتفقنا على العودة إلى المنزل، حتى قمنا سوية، وبمجرد أن وضعت رجليّ على الأرض حتّى أحسست بدوار شديد وألم في الرأس ومغصّ بالمعدة، وتخدير كلي جعلني أكفر بمسلمة "جاليلي"، فاعتقدت حينها أن الأرض مركز الكون وليس الشمس!.

ساعدني إدريس على الركوب بصعوبة في سيارته لأن عضلاتي كانت في تلك اللحظة في قمة الكسل والخمول، وفي طريقنا نحو البيت كان عقلي – أو ما تبقّى منه– مشغولاً بإناء الأرز والحليب الذي قمت بطبخه مسبّقاً، مستعجلاً لأستعمله في إفراغ معدتي حتى أستريح من هذا الصداع الذي يؤلمني.

لما دخلت إلى المطبخ تحسّست إناء الأرز فوجدته دافئاً كما أريده أن يكون. كنت أتخيّل معدتي عبارة عن مسبح مليء بكل أنواع الخمور، تتصاعد منه فقاعات الغاز وبخار التفاعلات الكيميائية بين مختلف مركبات هذه الكحوليات، كان هذا المسبح كما يخيّل إلي بارداً تطفو على سطحه قطع الثلج، فبدأت أشرب الأرز مباشرة من الإناء الذي طبخ فيه، أحسست على إثر ذلك بدفئه يسري في جهازي الهضمي، وبمجرد أن سقطت أول شحنة منه على حوض الخمر في معدتي، فعلت به ما تفعل الحصوة عندما توضع في قارورة المشروب

الغازي "كوكا كولا"، حيث خرج محتواها كما تخرج الصهارة من فوهة البركان ! صهارة الخمر الذي تحول بفعل تهييجه بالحليب إلى رغوة، فقصدت الحمّام على إثر فورانها من فمي، فجلست على الأرض أتقيّأ في ثقب المرحاض، وأصعب ما في القيء أن تُفرغ المعدة كلها ولم تتوقف بعد انقباضات عضلاتها في محاولة لطرح المزيد وهي أصلاً فارغة، مع ما يصاحب ذلك من ألم فظيع نتيجة التمدّد العنيف لأضلاع القفص الصدري، أحسست على إثر هذا الالم بضيق التنفس، وخروج العينين من مقلتيهما.

جلس الماكر "إدريس" على الأريكة راضِياً ومسروراً لحالتي تلك، أمّا لحسن ومصطفى فقد استغرقا في نوم عميق منذ خروجنا نحو "البار". كنت أتضرّع إلى الله وأدعوه لتخليصي من هذا الألم الفظيع قاطعاً وعدي معه أنها ستكون أوّل وآخر مرة أقترف فيها هذا الإثم العظيم، كما كنت أتمنى أن أغمض عيني وأفتحهما وقد حلّ الصباح وغاب الألم وعدت إلى حالتي الطبيعية. أما إدريس فبعدما شاهدني قد أطلت المقام ممدّدا على الأرض في المرحاض، قام بمساعدتي على الوقوف والنوم على الأريكة، ولم يغمض لي جفن حتى استحضرت دزينة من الذكريات الحزينة والشعور بالذنب العظيم، ألوم نفسي على اقتراف هذا الجرم بعد مرور ثمانية وعشرين عاماً دون أن أقترفه من قبل.

عندما استيقظت في الصباح أحسست بالتعافي من أثر التخدير، ورغم ذلك فقد كان رأسي يؤلمني كأن مخّي قد انتفخ ويحاول تمزيق السحايا. تذكرت كل ما حدث لي في الأمس، كانت تجربة من المحتمل أن أنزلق معها في متاهات العادة ثم الإدمان، وحمدت الله أنني لم أجد في الخمر ما يجعلني متحمساً لإعادة الكرّة وشربه من جديد، لأنه سيصيبني تماماً بأعراض الصداع النصفي، فكانت رغم ذلك تجربة مفيدة وضعت بيني وبين إعادتها سدّا منيعاً، كما اكتشفت من خلالها أن الإنسان مهما شرب فهو يستطيع التحكم في نفسه كما أنه يدرك محيطه.

مع مرور الزمن أصبح "لحسن" مدمناً على الكحوليات ويدخّن بشراهة كما اعتاد على ركوب المغامرات وارتكاب الأخطاء القاتلة بسبب الشرب، أما ادريس معاقر السجائر والكحول منذ أن كان تلميذا في التعليم الإعدادي بالمغرب، فقد انقلبت حياته رأساً على عقب، حيث تاب توبةً نصوحا، فتوقف عن التدخين والشّرب، فأصبح يقيم الصلاة في وقتها بما فيها صلاة الصبح التي تعتبر بالنسبة لي مقياس جدية الإنسان في إيفاء الركن الثاني من أركان الإسلام حقه غير منقوص.

VI

لم تقتصر ملكية الأمريكي "إيريك موندشيان" مالك مطعم "جيريس" على هذا المطعم فحسب، بل إنه كان يملك عدة مطاعم أخرى تحمل الاسم التجاري ذاته في مختلف مناطق فرجينيا، فجعل لكل منها مديراً، بينما يسهر بنفسه على تفقدها بالتناوب واحداً واحداً، لا تمرّ سنتين أو ثلاث، حتى يبيع واحداً منها ليفتح آخر في مكان يبشر بنجاح المشروع فيه، وفي آخر المطاف، باع كل المطاعم واحتفظ بالمطعم الموجود ب"كورثهاوس أرلينغتون" حيث أعمل، وكان هذا المطعم يدر عليه أموالاً طائلة، بحكم موقعه في قلب المدينة بمحاذاة المحكمة ومركز الشرطة ومكاتب البلدية والسينما ومرافق أخرى، فأصبح يتناوب على إدارة هذا المطعم مع الكولومبي"ويلسون" كان "إيريك" سريع الغضب يعاني أحيانا من عصبيّة شديدة، ويظهر هذا الغضب بعنف، عندما يرتكب أحد العمّال خطأ ولو بسيطا ! لذلك نصحه طبيبه بالابتعاد عن هذا العمل الذي يؤزّم وضعه الصحي، ليقرّر بيع هذا المطعم في آخر المطاف الذي مثل بالنسبة له آخر عنقود المطاعم التي امتلكها، وبعدها بدل مهنته ليعمل كمفتش

بسلك الشّرطة. أما المطعم، فقد اشتراه مواطن باكستاني اشترط قبل شرائه على "إيريك" أن يُبقي على كلّ عمَّاله.

المالك الجديد إسمه "عاصم غفّار"، باكستاني الأصل، ينحدر من مدينة "لاهور"، وهو كأغلب الباكستانيين أصحاب المشاريع في أمريكا الذين يعتمدون على تهريب رؤوس الأموال من بلدهم الفقير الأحوج إليها لاستثمارها في هذا البلد الغنيّ، وقد كان عديم التجربة، لا يفقه شيئاً عن كيفية تسيير المطاعم، وكان هذا سرّ اشتراطه على البائع بضرورة الإبقاء على كل العمال، حتى يستفيد من خبرتهم، بينما هو فيكتفي بالمراقبة عن بعد وجني المال في آخر يوم عمل. أما أنا، فلم أكن متحمّساً عندما جمعنا "إيريك" ليخبرنا بأمر انتقال الملكية، لأنني مسلم، ومن مجتمع المسلمين، لذلك كنت أدرى من هؤلاء العمّال بجشع المسلمين وإقبالهم على الدنيا سباحة عكس تيار تعاليمهم الدينية، فهذا المالك الجديد الذي خان بلده وهرّب منها أموالاً هي أحوج إليها، قادر على فعل المستحيل من أجل رفع أرباح مشروعه، ولو على حساب أرزاق عماله.

كان هذا المالك الجديد يمتلك محلاّ لبيع الورود في مدينة "بيثيسدا" التابعة لولاية ماريلاند بمحاذاة واشنطن العاصمة، وبالضبط قرب مطعم "ماجيانوز" حيث أعمل. قبل أن يبيعه لشراء مطعم "جيريس"، طمعاً في مراكمة الثروة، لأن أرباح مطعم "جيريس" عندما قرر شراءه، كانت مغرية، فصمّم دخول المغامرة. وقد حدث في أول يوم عمل رسمي له كمدير بعدما سلَّمه "إيريك" مفاتيح المطعم، أن جمعنا نحن العمال، فخطب في حضرتنا خطبة "الطريق الجديد" التي تتعلق بتسيير أمور هذا المطعم، وكان مما تضمنته تلك الخطبة، أنه لا يرغب في تشغيل عمَّال في وضعية غير شرعية، وهو الخبر الذي سقط على "ويلسون" وزوجته وعمّال آخرين كقطعة ثلج، لأنهم هم المستهدفون بتهديد "عاصم"، الذي كان يعتقد لأول

وهلة أن كل العاملين في المطعم مهاجرون شرعيون إلا واحداً أو اثنين سيقوم بطردهما، والواقع كان عكس ما يعتقده.

نظرياً، تبقى مخاوف "عاصم" مبررّة من الزاوية القانونية، حيث يُغرم كل من شغّل مهاجرين غير شرعيين في أمريكا بغرامة ثقيلة قدرها خمسة وعشرون ألف دولار عن كلّ فرد، إلاّ أنه في أرض الواقع، لا يمكن تطبيق هذا القانون، بل يستحيل تطبيقه، كون أمريكا تأوي أكثر من سبعة عشر مليون مهاجر في وضعية غير قانونية، أغلبهم يعملون وتم التغاضي عن متابعتهم، ما داموا يساهمون في انتعاش اقتصاد البلاد، ويمارسون مهناً لا يستطيع أي مقيم شرعي أو مواطن أمريكي أن يقوم بها.

قرّرت الاستمرار بالعمل في هذا المطعم، حتى أتأكد بنفسي من جشع هذا المدير، حينها أغيّر وجهتي نحو عمل آخر، وفي كلتا الحالتين سأظل محتفظاً بعملي في مطعم "ماجيانوز" أما ويلسون الذي قرر العودة نهائيا إلى بلده بعد ستة أشهر، فكان يخاف الطرد قبل حلول هذا الأجل، إلا أن خوفه تلاشى مع مرور الأيام باستسلام "عاصم" للأمر الواقع بعدما تأكد من صعوبة تطبيق تهديده، خصوصا بعد علمه أنني الوحيد مع عاملة أخرى حاملة للجنسية الأمريكية من يقيمان بصفة قانونية في هذا البلد. وقد حدث مع مرور أول شهر من امتلاكه لهذا المطعم، أن توصل بمكالمة هاتفية من بلده الأصلي تخبره بوفاة والده، فقرّر على إثرها السفر في اليوم التالي إلى باكستان لتأبينه، حيث غاب لأسبوعين، وهي المدة التي انفرد فيها "ويلسون" بإدارة المطعم.

في أول يوم بعد عودة المالك "عاصم" من جنازة والده، وجد الخزنة الفولاذية للنقود مفتوحة بشكل مريب، كما تخلّف "ويلسون" عن المجيء في الوقت المحدد كالمعتاد، وبمجرد أن دخلت المطعم، وقبل أن أعرف ما يجري، سألني "عاصم" عن أمانة "ويلسون"، وهل يمكن أن يسرق أموال المطعم؟! فأجبته بما يشبه اليقين أن "ويلسون" لا يمكن أن يفعلها، كما حاولت أن أشرح أمر غياب المال في الخزنة لكون ويلسون كان يقوم يومياً بإيداعه في البنك، ولكونه

كان يكلفني شخصياً في بعض الأحيان بتلك المهمة .لكن المريب في الأمر كما يقول "عاصم" هو أن الخزنة تم جرّها من مكانها وتُرك بابها مفتوحا!.

كان إسمه الكامل "ويلسون جون ايستوتيتيان"، داكن البشرة بشوشاً، لكنه كان ينقلب في لحظة غضبه الى شخص شرس، ولا ينسى أن يذكّر المغضوب عليه أنه قتل متمردين على النظام الكولومبي أيام خدمته العسكرية !! كما كان يتباهى بندبة كبيرة في كتفه، هي أثر رصاصة نالت منه من رشاش أحد هؤلاء المتمردين !!. حباه الله بزوجة جميلة كانت تعمل معنا في المطعم نفسه، كما توفرت له سبل الحياة السعيدة، رغم أنه مجرد مهاجر غير شرعي !!

كان طباخا ماهراً قبل أن يرتقي ليصبح مديراً، ماهراً ليس في إعداد الأطباق فحسب بل حتى في السرعة الجنونية في طريقة تحضيرها، كان مالك المطعم الأول "إيريك" يرتاح لوجود "ويلسون" في المطعم، ويخاف كل الخوف من أن تختمر في مخه فكرة أن يبدل هذا المطعم بآخر، وهي الثغرة التي استغلها "ويلسون" لإبتزاز هذا المالك.

كان "ويلسون" يعمل كما قلت في أمريكا كمهاجر غير شرعي، لهذا كان يرسل ما فاض من أمواله إلى أحد البنوك الكولومبية كنوع من الادخار، لأنه يعرف أنه سيعود إلى بلاده لا محالة، وكان إذا احتاج إلى المال لا يتردد في سؤالي، كما كنت بدوري لا أتردد في تلبية طلبه، لأنه كان يعيدُ لي أموالي كاملة في الموعد الذي كان يحدده بنفسه. وقد حدث يوما أن طلب مني مبلغاً كبيراً من المال قدره أربعة آلاف دولار، وتعهد بأن يعيده اليّ على دفعات، وفي أجل أقصاه شهران، أي أنني سأحصل على كل أموالي بعد ثلاثة أشهر وقبل سفره بصورة نهائية إلى كولومبيا كما صمّم. سلمته هذا المبلغ من المال، وكنت مطمئنا لا تساورني الشكوك تجاهه، لأنني أعرفه منذ قرابة ثلاث سنوات، ليحدث في ذلك الصباح ما لم يكن في الحسبان، فقد تبخر مبلغ الأربعة آلاف دولار، كما تبخر معها محتوى خزنة المطعم!.

كانت الخزنة الفولاذية تحتوي على مبلغ خمسة آلاف دولار، هي ما تم جمعه في آخر أربعة أيام من العمل، وقد اتصل المالك "عاصم" بالبنك ليتأكد بعدها بأن الأموال لم تودع فيه، حينها، ولقطع الشك باليقين اتصلت بدوري بالميكانيكي صديقي وصديق "ويلسون" الذي أخبرني أن هذا الأخير قد غادر إلى كولومبيا ليحلّق منها من جديد نحو بيلباو في إسبانيا حيث تعمل أخته كممرضة. لأصاب بذهول شديد، ليس لفقداني المال فحسب، ولكن لغدر شخص لم أتصور أنه سيغدر بي يوما!.

في ثاني رحلة عودة لي نحو الديار، وأثناء رجوعي نحو أمريكا، قررت إرجاع السيارة التي اشتريتها في إسبانيا لأقوم بإعادة بيعها حيث اشتريتها، وقد كان المكلف ببيعها نيابة عني يقطن في بيلباو، فكانت مناسبة لي كي أقوم بجولة سياحية في إسبانيا قبل أن أصل تلك المدينة في أقصى شمالها الغربي لبيع السيارة، ولأستغل الفرصة لوضع شكاية لدى شرطة المدينة بخصوص اللّص "ويلسون".

فبعد رحلة امتدت ليومين من أقصى جنوب اسبانيا ابتداءً من "طريفة" مرورا بـ"ألميريا"، "اليكانطي"، و"فالنسيا" وصولا إلى "برشلونة" ثم منها في اتجاه "بيلباو" مروراً "بلييدا"، "سرقسطة " ثم "لارگونيو"، أتيحت لي خلالها فرصة الوقوف على العديد من المآثر التاريخية لهذه المدن، كان أبرزها كنيسة "العائلة المقدسة" ونصب "كولون التذكاري" في برشلونة وكذلك "كاتدرائية سرقسطة" الرائعة، كما أتيحت لي فرصة زيارة تحفة المهندس "فرانك غيري"، المتمثلة في متحف "گوگنهايم" الأكثر من رائع في بيلباو.

في صباح ذلك اليوم، قررت الذهاب إلى الشرطة لوضع شكايتي هناك، واخترت ابن البلدة "لحسن بنعمر" المقيم في بيلباو، كي يكون مرافقي الذي سيتقمص الى جانب ذلك دور ترجماني. لما وصلنا بناية الشرطة في قلب المدينة، خرجت من السيارة بكل ثقة في موقف شبيه

بخروج "جاك نوريس" من الطائرة في مطار روما عندما كلف بمهمة القضاء على "بروس لي" في فيلم " طريق التنين!".

كان مكتب الشرطة صغير المساحة بالمقارنة مع حجم المدينة، أو لربما قد يكون عبارة عن فرع لمكتب رئيس، فوجدنا داخله شرطياً واحداً، رحّب بنا بابتسامة عريضة، وبعدما أمرنا بالجلوس، استهل معه لحسن الحديث بموضوع الشكاية ، الشرطي أخبرني بدوره – عن طريق "لحسن"– أنني أحتاج الى إثباتات وحجج تدين اللص "ويلسون"، وهو ما استجبت له عندما أخرجت نسخة من "الشيك" البنكي الذي سلمته ل"ويلسون"، يحمل اسمه كاملا وإمضاءه !! تمعّن الشرطي في نسخة الشيك، فقطّب حاجبيه، ثم استدرك وأخبرني – عن طريق لحسن دائماً – أن هذه الوثيقة لا تكفي ! وأكد جازما أنه يستطيع الوصول إلى المدعى عليه وإحضاره قسرا إلى هنا، لكن كما يقول الشرطي، فهو يحتاج إلى وثيقة مكتوبة يتعهد فيها "ويلسون" بإرجاع هذا المبلغ لي، وهو احتراز يجب أن أقوم به – يسترسل الشرطي – عندما أكون مقبلا على نية إقراض مبلغ من المال لأي كان مهما كانت الثقة التي تربطني به ! وليشرح الشرطي أكثر، أخبرني أنه حتى وإن أحضر "ويلسون" في ذلك الموقف، فهذا الأخير قد ينكر واقعة الإقراض ! وفي حالة مواجهته بنسخة "الشيك"، سيدعي أنها أموال اقترضتها منه سائلة، وأعدتها له على شكل شيك بنكي!.

كان كلام الشرطي مقنعا، حطم كل آمالي في استرجاع أموالي، فودعناه دون أن أنسى شكره بالإسبانية:

–گراسياس.

ابتسم الشرطي فتهجى التحية بالانجليزية:

– التّانكيوو!!

رجعت إلى منزل الأصدقاء في "بيلباو" بخفي حنين، لأطير بعدها بيومين إلى أمريكا، قاطعا كل أمل في الحصول على مالي المسروق. تركت إسبانيا وكلي أمل أن أعود إليها يوما لأتمم

سياحتي فيها بزيارة كل من "قصر الحمراء" في "غرناطة"، و"برج الذهب" في إشبيلية، دون المغادرة قبل زيارة صومعة "الخيرالدا" في نفس المدينة.

مرت خمس سنوات بالتمام والكمال على هذه الواقعة لتشاء الصدف يوما أن اذهب إلى الميكانيكي صديقي وصديق "ويلسون" لعطب أصاب سيارتي، ولكونه يقدم لزبائنه أسعار تفضيلية. وبينما هو منهمك في فحص سيارتي، سألته عن "ويلسون"، فأجاب جوابا أصبت بمجرد سماعه بما يشبه الصدمة ! كأنني سألت عن شخص ظننته في عداد الأموات، ثم يقال لي إنه حي يرزق !! حيث أخبرني الميكانيكي أن "ويلسون" عاد إلى كولومبيا بعدما خاب ظنه في إسبانيا، ومنها تسلل إلى أمريكا من جديد بطريقة غير مشروعة عبر المكسيك، وأنه يتصل به أحيانا !! فتوسلت إليه أن يمدني برقمه، ودون تردد استجاب لطلبي، ففتح هاتفه النقال وأعطاني الرقم إياه بعدما اخبرني أن الرقم ليس رقم هاتف خلوي، بل يعود لمحل تجاري.

وما أن عدت الى المنزل حتى قمت بإدخال ذلك الرقم في محرك البحث "غوغل"، لأتعرف إلى صاحب الرقم والذي يعود لمحل لبيع الكعك العبري "العم جوجل" زودني مشكورا بخارطة طريق حدد لي من خلالها موقع هذا المحل الذي يقع على الحدود بين ماريلاند وواشنطن العاصمة وبالضبط في مدينة "باثيسدا" وبالقرب من مطعم "ماجيانوز" الذي يبعد مسافة عشرين كيلو مترا عن المحل الذي أسكن فيه.

وفي صباح اليوم التالي عقدت العزم على المضي في سبيلي إلى ذلك المكان دون أي تردد.

وصلت المكان المحدد في ساعات الصباح الأول من ذلك اليوم، كان المحل رغم صغره يعجّ بالعمال والزبائن، فقد وصلت في موعد وجبة فطور الصباح، كنت أتفحّص وجوه العمال لعلّي أجد وجه الشؤم!، فجأة تقدم نحوي عامل وسألني:

- صباح الخير، كيف أخدمك سيدي؟؟
- صباح الخير، أود فقط أن أكلّم مدير المحل ؟؟!

انصرف العامل ثم عاد بعد لحظة والمدير يتبعه، فسألني هذا الأخير نفس السؤال، فأجبته أنني أبحث عن "ويلسون جون"، فأجاب أن "ويلسون" تم طرده من العمل قبل أسبوع فقط، فقصصت عليه مشكلتي معه، فتعجب لتفاصيل القصة، وأخبرني أنه قام بطرده لكثرة ارتكابه المشكلات، كما أخبرني أنه انفصل عن زوجته بعدما وصل الخلاف الى أوجه بينهما، فعدت إلى المنزل أجرّ أذيال الخيبة مرة أخرى، ولم تفتني الفرصة لأعود إلى الميكانيكي، أطلب منه إخباري بأي معلومة عن "ويلسون" في حال اتصال الأخير به، أو قدومه إلى محله، ليس طمعا في مالي، بل لأنني اشتقت لرؤية تصرف السارق وهو يرى وجه المسروق ماله !! اشتقت أن أرى ملامح الارتباك في وجه من تمنيت يوماً من الله أن أنال نصف راتبه الشهري، وإذا هو يسطو على أضعاف مرتبي الشهري!!.

"كولومبيا"، تلك الدولة المخيفة بمجرد ذكر اسمها، ارتبطت معرفتي بها بمحطات الأخبار التي تتناول الصراع هناك بين المتمردين والحكومة، وأيضاً أخبار أباطرة المخدرات ورؤوس شبكات مروجي الكوكايين عبر العالم، كما ارتبطت معرفتي بهذه الدولة ببعض اللقاءات الشهيرة لفريقهم في كرة القدم ببعض المونديالات، فمن منا لا يتذكر بهدلة الكاميروني "روجي ميلا " لحارسهم الأسطورة "إيگيطا" في مونديال إيطاليا، وقصّة الشعر المثيرة لصانع ألعابهم "ڤالديراما"؟! إلا أن معرفتي الحقيقية لكولومبيا، تمثلت في احتكاكي بمواطنيها في أمريكا، والذي توج – هذا الاحتكاك – بوقوعي ضحية نصب مواطن بسيط منهم، لحسن حظي أنني لم أقع ضحية امبراطور من أباطرة المخدرات الكولومبيين، فهؤلاء يستطيعون الحصول حتى على الأعضاء البشرية في حال حاجة أجسامهم الى زرعها، حيث يلجؤون في هذه الحالة إلى اختطاف طفل من أطفال الشوارع، ونزع العضو منه، قبل أن تترك جثته للكلاب ! في صورة لا ينافسهم في وحشيتها إلا برابرة جنود "داعش" نجانا الله منهم جميعا!!.

.

* * * * *

قبل شراء الباكستاني "عاصم" لمطعم "جيريس" من المالك الأول الأمريكي "إيريك"، كان هذا الأخير قد أدخل خدمة التوصيل إلى المطعم منذ سنة قبل هذا البيع، وبمقتضى هذه الخدمة، أصبح هذا المطعم يقوم بخدمة بعض من زبائنه عن طريق إيصال طلباتهم إلى منازلهم أو مقر أعمالهم، فاعتمد مالك المطعم آنذاك على سائقين، ثم ثلاثة، فأربعة، لزيادة الطلب على هذه الخدمة، وهو الأمر الذي مكّن "إيريك" من تحقيق طفرة في المبيعات، لم يحققها من قبل طوال مساره المهني مع هذه الشركة!، وقد ساعده في بلوغ ذلك المستوى، تجربته التي راكمها على مدى أكثر من عقد من الزمن كمالك للعديد من المطاعم، بالإضافة الى عمله سنين قبلها كسائق لإحدى محلات البيتزا، فكان لا يتوقف عن نشر إشهارات لمطعمه في الجرائد والمجلاّت المحلية، كما يرسل دورياً بطائق خصم من الأثمان لزبائنه، كما يقدم كل أسبوع أثمنة خاصة لبعض المأكولات، وكل هذه الخطوات، جعلته يحظى بقاعدة مهمة من الزبائن في المنطقة، ترتاد المطعم بصفة منتظمة، إلا أن بيعه لهذا المطعم لشخص بدائي مثل "عاصم" جعل كل ما بناه من شهرة للمطعم يتهاوى، وتدنت معه مبيعات المطعم، لكونه أهمل الإشهار، لأنه يكون بمقابل للمستشهر، ويؤلمه أي تخفيض للأثمان، بالإضافة إلى أنه عديم التجربة في كيفية تسيير المطاعم، رغم ما يتشدق به أمامنا من معرفته لكل صغيرة وكبيرة في تسيير المطاعم، وتذكيره لنا مراراً بديبلوماته في الاقتصاد والتسيير!.

عندما تسلّم المطعم، كان حينها يعمل به ثلاثة سائقين لكل فترة من فترتي اليوم، ولإهماله، هوت خدمة التوصيل إلى أدنى مستوياتها، فاحتفظ بسائق واحد في فترة الصباح، وسائق آخر في فترة المساء، والسائق الأول كان ينام في سيارته أكثر مما يعمل لتدني المبيعات، حيث أصبح لا يتعدى عدد طلبات التوصيل في الفترة الصباحية حتى بداية وقت وجبة العشاء، خمسة طلبات ! بعدما كان عددها في وقت المالك الأول يتجاوز العشرين طلباً، أما المبيعات من داخل المطعم، فقد تدنّ رقمها بنحو الثلث، والسبب في هذا التدني يتحمله المالك البليد "عاصم"، الذي يصرّ رغم بلادته على معرفته، في حين أنه يقف عادة كجلمود صخر في

ركن المطعم، يبكي تهاوي المبيعات دون أن يبذل أدنى عناء لرفعها من جديد، وما أهون ذلك عليه، لو تحلى بقليل من الإرادة وتخلى عن كبريائه وتواضع باستشارة المدير "كريس" الذي شغّله بعد فرار "ويلسون"، فهذا المدير الجديد هو صاحب الباع الطويل في تسيير هذه السلسلة من المطاعم، لكن لا حياة لمن تنادي، فإثنان لا يتعلمان، المتكبر والمستحيي، ومشغلنا متكبر ومتعجرف، فكنا بدورنا نكتفي بالقيام بأعمالنا، ونراقب إلى أي حد ستنال بلادته من هذا المطعم، وكنّا عندما نعاين كسله نترحّم على أيام "إيريك"، المالك الذي كان يدرّ عليه المطعم أموالاً طائلة، ورغم ذلك كان يُشمّر عن ساعديه، يطبخ ويغسل الأواني، ولا يرى حرجا في تنظيف المرحاض.

تغير إذن كل شيء مع المالك الجديد "عاصم"، رحل "ويلسون" وزوجته بعد حادثة السرقة، فعوض "عاصم" شغور مكانهما بأن استقدم للعمل مديرا جديداً إسمه "كريس" من أصل "فيليبيني"، وهو شخص هادئ جداً وإجتماعي، كما ولج المطبخ أيضاً عامل جديد إسمه "محمد"، وهو "جزائري" من القبائل، ورغم أن هذا الأخير بالكاد جاء من الجزائر، إلاّ أنه كان سريع التعلم، فأصبح في مدة وجيزة يجيد العمل في أي مكان وضع فيه داخل المطعم.

لما فطن "عاصم" إلى أن سائق الفترة الصباحية كان يكلفه كثيراً، حيث كان يقوم فقط بتوصيل بضعة طلبات طوال الست ساعات التي يقضيها جالسا أو نائما في سيارته، فقد قرر التخلي عنه، وكذلك أراد السائق الذي قرر المغادرة طوعاً بحثا عن عمل مدرّ، وحتى لا يبحث المالك عن سائق جديد لأنه مكلف لا محالة أمام تدني مبيعات التوصيل، فقد اقترح علي ازدواجية العمل، حيث سأحتفظ بعملي كطباخ وأغادر كلما طلب زبون توصيلا لأقوم بهذه المهمة، خصوصا وأنني أملك سيارة. والحقيقة أن سائق توصيل هي من المهن الغريبة والمخيفة لي بشكل لم أكن أتصور يوماً أن أمارسها، فمنذ احتكاكي بسائقي مطعم "باباجونز" حيث عملت بمجرد وصولي إلى أمريكا، كنت أستغرب أن يأخذ السائق معه ثلاث طلبات

لثلاثة زبائن، كل واحد منهم يسكن في مكان مختلف عن سكن الآخر، ورغم ذلك فالسائق يعود قبل نصف ساعة وقد سلم كل زبون طلبه !! فكيف يفعلها هذا السائق في مثل هذه المدينة العملاقة دون أن يتوفر على جهاز التعقب ؟!

كان المالك "عاصم" يعي قبل تكليفي بهذه المهنة صعوبة الأمر علي، فقرر مساعدتي عندما أريد الخروج من المطعم للتوصيل، خصوصاً أنه كان ذَا باع طويل في هذه المهنة منذ كان طالبا في إحدى الجامعات بولاية "تكساس"، قبل أن يعمل كسائق توصيل الورود في المحل الذي كان يملكه قبل شرائه لهذا المطعم.

كانت مبيعات التوصيل في مطعم "جيريس" في فترة الغداء قد هوت كما قلت إلى أدنى مستوياتها، حيث سيقتصر عملي على توصيل الطلبات التي لن تتجاوز في أحسن الأحوال الخمسة كأقصى تقدير، ما يمنحني الوقت الكافي لأكتسب الخبرة في هذه المهنة، لعلّي أصل يوماً إلى مستوى سائقي المطاعم الأخرى الذين ألقبهم ب"سُعاة البريد خمس نجوم!" .

توجد داخل مطعم "جيريس" على أحد جدرانه، خريطة عملاقة لمدينة أرلينغتون، يستعملها السائقون عند الضرورة لتحديد موقع وجود الزبون قبل الخروج للبحث عنه بالسيارة، وبالنسبة اليّ، فعندما أطّلع على أي موقع على تلك الخريطة فإنني لا أجد أدنى صعوبة في الذهاب بعدها إلى موقعه بالسيارة، وعند الوصول إلى ذلك الموقع، تصبح المهمة أكثر سهولة لتحديد المكان المضبوط للعنوان المستهدف، لكون كل البنايات والمكاتب مرقمة في واجهاتها بأرقام بارزة، وتزداد المهمة سهولة، بوجود رقم الهاتف للزبون على الفاتورة، يتيح الاتصال به في حال تعذر الوصول إليه، لاستفساره عن مكان وجوده بالضبط.

يكون المالك "عاصم" حريصاً كل مرة قبل خروجي بطلب الزبون، على أن يحدد لي مكان وجود مقر هذا الزبون على الخريطة، والغريب أنه بمجرد حصوله على العنوان المطلوب ، يضع سبابته مباشرة على المنطقة التقريبية لوجود هذا العنوان، رغم أنه لا يسكن في هذه المدينة وتجربته في التوصيل تقتصر على مناطق محددة في ولايتي ماريلاند وواشنطن، إلا أن غرابة الأمر تتلاشى بمعرفة أن كل مدن أمريكا مهندسة بشكل محكم، ومرقمة بناياتها بشكل يُسهّل مأمورية الباحث عن أي عنوان، والقاعدة المعمول بها في الترقيم وتسمية الشوارع والأزقة، هي نفسها في كل المدن الأمريكية، إلا أن المالك "عاصم" لم يفطن إلى أنه من الأحسن أن يعلمني مبادئ تلك القاعدة في تحديد العناوين لتسهيل المأمورية علي، حتى أتحرّر من الاعتماد عليه في كل مرة لتحديد تلك المواقع، خصوصاً عندما يغيب عن العمل وأكون وحيداً، فكان يكتفي عوض ذلك بالإشارة إلى العنوان بالسبابة على الخريطة، لأكمل بعدها المهمة بالبحث عن موقع الزبون بالسيارة.

والحقيقة أنني كلما خرجت من عتبة المطعم للبحث عن زبون أعرف مسبقا مكانه، أكون في شبه راحة مؤدى عنها بالساعات، مضافاً إليها إكراميات وبقشيش الزبون، لأكتشف صدق أول نصيحة أسداها لي سائق صديق قديم بمطعم "بابا جونز" الذي نصحني بالإسراع في امتلاك السيارة حتى أعمل بها عملا مريحاً مؤدى عنه، اكتشفت الآن مغزى نصيحته، إلى درجة أنني تمنيت أن أكون السائق الرسمي لمطعم جيريس، لأرتاح من العمل داخله كطباخ . ومهما يكن، فقد أصبحت سائق هذا المطعم في فترة وجبة الغداء لأيام الأسبوع، بينما المالك "عاصم" فيكون مكلّفا بالتوصيل في نفس الفترة يومي عطلة الأسبوع . أما الفترة المسائية فقد كان لها سائق خاص "منغولي" الجنسية كما سبق وذكرت، يساعده "عاصم" نفسه في وقت الذروة، أو إذا تعددت الطلبات بشكل يستعصي على ذلك السائق توصيلها في مهلتها المحددة أجلها في ساعة على الأكثر.

غالبا ما يجد عامل المطاعم في أمريكا المجبر على تقسيم وقت عمله بين مطعمين مختلفين نفسه في وضع حرج أيام العطل والمناسبات، عندما يرغب منه كلا مديري المطعمين أن يعمل لحساب كل منهما في مطعمه، بشكل متزامن لمواجهة زحمة العمل في تلك الأيام الاستثنائية، فيجد هذا العامل نفسه بين سندان لزوم احترام العمل في المطعم الذي إعتاد العمل فيه ذلك اليوم الذي يصادف العطلة، ومطرقة دعوته من طرف مديره في المطعم الآخر، ولا يواجه هذا الإحراج، إلا بالاعتذار لأحد المديرين، أو التظاهر لأحدهما بالمرض حتى يتسنى له العمل حيث سيجني الكثير من الإكراميات، وقد وقعت شخصياً في مطبّ هذا الموقف مراراً وتكراراً، فعالجت بعض هذه المواقف بالاعتذار أحياناً، وبقميص يوسف أحياناً أخرى!. وللهروب نهائيا من هذه المواقف المحرجة، فقد قررت بعد تفكير طويل أن أتفرغ للعمل في أحد المطعمين وأغادر الآخر لأبحث لنفسي عن عمل آخر بعيداً من عمل المطاعم، وكنت أرشح نفسي مغادراً لمطعم "جيريس" مع الاحتفاظ بالعمل في "ماجيانوز" وذلك لفارق الربح الذي أجنيه في كلا المطعمين، وكذلك بسبب خمود حماسي للعمل في "جيريس" بعد انتقال ملكيته إلى شخص جشع أخاف أن يجمد راتبي أبد الدهر، إلا أن الرياح جرت كما لم أكن متوقعاً، ف"عاصم" طلب مني في خضم أيام ترددي في المغادرة إجراء مقابلة معه، ليقترح علي من خلالها شيئا مهما بالنسبة اليّ كما وعد.

شرح لي "عاصم" في تلك المقابلة أنه سئم من العمل يوميا من دون توقف في مطعمه ذلك، بسبب ملئه لفراغ سائق الفترة المسائية الذي بدأ يتكاسل ويتخلف عن الحضور بمبررات واهية، فاقترح عليّ مغادرة مطعم "ماجيانوز" لأعمل كسائق رسمي في مطعمه بصفة يومية، مع حرية اختياري ليوم عطلة الأسبوع، حيث سيتكفل خلاله بالعمل مكاني كسائق .العرض بطبيعة الحال مغرٍ جداً لأن العمل كسائق في الفترة المسائية مدرّ للمال، كما أن اقتراحه علي العمل عدد الساعات بقدر المستطاع، سيجعلني أكتفي بهذه المهنة، إضافة الى أن مغادرة

"ماجيانوز" سيعفيني من التنقل إلى مكانها البعيد عشرين كيلومتراً، مقابل العمل في "جيريس" الذي لا يبعد عن منزلي أكثر من كيلومتر واحد.

وحتى أقوم بإغلاق كل باب قد يأتيني منه الريح في المستقبل، فقد أرغمته على تحديد أجرتي في القيمة المتعارف عليها لدى سائقي المنطقة. أما الأمر الذي شجعني أكثر للاّ أكترث لجشعه أو لأي من صفاته الذميمة، هو أنني سأنال بقشيش الزبائن الذي لا يد له فيه، ولا يعنيه في شيء. ليصبح العرض بعد هذا الاتفاق مغرياً لم أتردد في قبوله، فغادرت "ماجيانوز" بعدما تأكدت بعملية حسابية أن ما سأربحه كسائق في "جيريس" سيكون أفضل مما سأجنيه بـ"ماجيانوز" كمساعد نادل، أو حتى كنادل يعمل بحسن نية، وليس بأساليب النّدل الذين تركتهم في المطعم بعد مغادرتي. إضافة إلى أنني سأنعم بالكثير من الراحة في العمل الجديد.

في الوقت الذي أصبحت فيه سائقاً لمطعم "جيريس"، تفرّغ "عاصم" لعمله كمدير، لكن ما لم يفطن له هو صعوبة المهمة الملقاة على عاتقي مع قصور تجربتي حين أبدأ العمل كسائق توصيل أثناء غيابه هو عن العمل، وخصوصاً في الفترة المزدحمة، مع العلم أنني أعتمد عليه في تحديد مواقع الزبائن على الخريطة، ففي الفترة المسائية، ينوب عنه في الإدارة الفيليبيني "كريس"، وخلالها تكون طلبات التوصيل كثيرة، ليس بمثل كثرتها أيام المالك "إيريك"، لكنها كثيرة مقارنة بالفترة الصباحية التي تعودت العمل خلالها كسائق، بشكل جعلني أعاني أمام هذه الكثرة وأنا السائق المبتدئ، فعادة ما يقوم بالاتصال بالمطعم في الفترة المسائية طلباً للتوصيل ما بين عشرة وعشرين زبوناً، أتكفل وحدي بتوصيل طلباتهم، مع العلم أن إيجاد عنوان زبون واحد بمجهودي على الخريطة أمر صعب، وتزداد المهمة صعوبة عندما يتصل زبونان أو ثلاثة في وقت متزامن، أكون مجبراً خلالها على إيصال طلباتهم في وقت أقصاه خمس وأربعون دقيقة، أو حتى ساعة واحدة أحياناً، وهي المدة التي يجب أن تكون فاصلة بين وقت

مكالمة الزبون، ولحظة تسلمه لطلبه في بيته أو مقر عمله!. وعدم إلمامي الجيد بقواعد هندسة ترقيم بنايات المدينة، جعلني أبدّد وقتي في البحث عن الشارع حيث يوجد الزبون، وبمجرد أن أجده، أكتشف أن رقم البناية حيث أنا، أقل بكثير أو أكبر بكثير من رقم العنوان المطلوب، لأكون مجبراً على السياقة من جديد في مسار تسلسل الأرقام في اتجاه الرقم حيث يوجد الزبون، وهذه العشوائية في البحث عن العناوين، تسبب في تأخير تسليم الطلبات، ما يدفع بعض الزبائن الى الاتصال بالمطعم مراراً للاحتجاج على مصير طلباتهم، ولحسن حظي فالمدير "كريس" والجزائري "محمد" كانا يتفهّمان وضعي كسائق توصيل مبتدئ، فنتفق جميعاً على إخماد غضب الزبائن الذين تأخر توصلهم بطلباتهم، بخصم نصف المبلغ من فواتيرهم!.

في ظل هذه الوضعية الصعبة في هذا العمل الجديد، كنت أتساءل كيف يأخذ السائقون الذين سبق وعملت معهم أربع طلبات في وقت متزامن لزبائن كل في منطقة مختلفة عن منطقة وجود الآخر، فيعودون الكرَّة الى المطعم في غضون أقل من ساعة وقد سلّموا أولئك الزبائن طلباتهم ومن دون حتى القيام بإطلالة على خريطة جدار المطعم، فحاولت فك شفرة هذا السّر عندما قمت باستغلال دخول سائق سابق لمطعم "جيريس" إلى هذا المطعم لاقتناء وجبة عشائه، فجلست معه أسأله عن الطرق السهلة لإيجاد العناوين، فكان يجيب عن أسئلتي بشكل مبسّط، حتى أحسست أنني تمكنت من خيوط سر هذه المهنة، بدا لي الأمر أسهل مما كنت أتصور، حيث اكتشفت حينها حجم الأخطاء الساذجة التي ارتكبتها من قبل، فمدينة "أرلينغتون" كغيرها من المدن الأمريكية، لها شوارع عمودية وأخرى أفقية، فالأولى مرقمة وفق تسلسل رقمي من أصغر الى أكبر في حين أن الشوارع الأفقية تحمل أسماءً حروفها الأولى مرتبة وفق تسلسلها الهجائي في اللغة اللاتينية، وأرقام البنايات تتزايد من الغرب نحو الشرق ومن الشمال نحو الجنوب أو العكس، فوقوفي مثلا في الشارع رقم (1) وأنا في مواجهة إحدى بناياته المرقمة بالرقم (500) وأستهدف البناية المرقمة بالرقم (1500) فهذا يعني أن أستمر في الطريق جنوبا حتى أصل الى الرقم المستهدف. أو أتجه شمالاً فيما لو كنت أبحث عن البناية

المرقمة مثلا بالرقم (100) كما تكون الأعداد الزوجية في جهة واحدة من الشارع، والفردية في الجهة المقابلة لها. هذا بالنسبة إلى الشوارع العمودية المرقمة، أما الأفقية التي تحمل الأسماء، فرقم البناية 250 يوجد بين تقاطع هذا الشارع مع الشارعين المرقمين ب 2 و3، والبناية رقم 401توجد في نفس الشارع في تقاطعه بين الشارعين المرقمين ب 4 و 5 وهكذا دواليك. ومعرفة هذه القاعدة من طرف سائق مبتدئ، ستجعله على الأقل يتنبأ بموقع العنوان على الخريطة المثبّتة على جدار المطعم، ويبقى الإشكال الوحيد بعد معرفة هذه القاعدة والذي يمكن التغلب عليه بالممارسة، هو وجود بعض الشوارع المبتورة في بعض الأماكن التي يقتضي الوصول إلى طرفها الآخر المرور عبر طرق وممرات أخرى.

السائق الذي كان يشرح لي ونحن واقفان في مواجهة خريطة الجدار، لم يغادر حتى أصبحت الأمور جلية أمامي، وبعد أيام أصبحت أقوم بدوري في التوصيل كما يجب، فبعدما كنت أخاف كثرة الطلبات وتزامنها في وقت واحد، أصبحت أتمنى كثرتها، لأن الإكراميات التي أجنيها من سخاء الزبائن تمثل الرقم الأكبر من راتبي.

تحسنت طريقة الإيصال في المطعم مع مرور الوقت، وكثر الزبائن الراغبون في تلك الخدمة بكلتا فترتي اليوم، وأصبحت أحتكر هذه المهمة بمفردي، ما جعلني في وضع مادي مريح. وجدت راحتي في عمل واحد قريب من منزلي، أفضل من ذي قبل حيث كنت أبدد الوقت والجهد بين عملين متباعدين، أنال منهما أقل مما أناله الآن كسائق في عمل واحد. ومهنة السائق طبعاً، هي مهنة سهلة ومريحة بالمقارنة مع العمل داخل المطعم، لكنها لا تخلو من متاعبها هي الأخرى. صحيح هي مهنة يتمتع فيها السائق بفرصة الهروب من رقابة المدير داخل المطعم، وفرصة لاستغلال الوقت في الطريق بين المطعم ومكان وجود الزبون في سماع الموسيقى، أو إجراء مكالمة هاتفية مع العائلة أو الأصدقاء في الديار، أو حتى الاستمتاع برؤية أبدان الشقراوات شبه العاريات في الشارع ! وهذه "البليّة" الأخيرة، ابتلي بها السائقون

المنحدرون من بلدان المجتمعات المحافظة، وهم في الغالب أشخاص مكبوتون عشعشت في أدمغتهم طحالب الكبت الجنسي الحاد، ولست أدري هل مشاهدة الأرداف تقريبا بشحمها ولحمها علاج لهذا الكبت أم تأزيم له؟! وهذه العادة القبيحة، يدمنها السائقون الذين ينحدرون من بلدان شمال إفريقيا وباكستان وبنغلاديش، ولا تستثني من هؤلاء أحداً سواء الشباب منهم أو الشيوخ وكذا العزاب والمتزوجون.

عملي كسائق توصيل في بؤرة مدينة أرلينغتون، جعلني أتعرف إلى العديد من الذين يمتهنون نفس المهنة في مطاعم أخرى، خصوصا سائقي مطعم "بابا جونز" الذي غادرته منذ سنين، وقد كنت أراقب أحيانا أحد سائقي هذا المطعم وهو صديق ابن "الدار البيضاء"، حياته كلها في أمريكا مقسمة بين المنزل والمسجد والعمل، بالإضافة إلى إدمانه النظر إلى مؤخرات إناث الشوارع، كنت أراقبه أحياناً عندما يصادف أن أقود السيارة وراءه دون أن ينتبه لوجودي، ويصادف الأمر أن تمر أنثى شقراء بمحاذاة الطريق، فيستدير ليتلصص على جسدها شبه العاري، بينما رجله على دواسة السرعة، وتزداد زاوية استدارة رأسه لرؤية الفتاة بقدر ابتعادها منه نحو الوراء وسير سيارته نحو الأمام، حتى يستدير بزاوية تتجاوز 180 درجة، فلو كان عنقه مرنا بمثل مرونة عنق الدّمية، لهان عليه إعادة رأسه إلى حالته العادية بإكمال دورة كاملة عوض إعادة نفس الاستدارة بشكل معكوس.وعندما تتوارى الفتاة، يرمق بعينيه في كل الاتجاهات بحثا عن جسد آخر ينزع منه الثياب في خياله ليلهو به كما يشاء.

ورغم الراحة شبه التامة التي ينعم بها سائق التوصيل المقرونة بامتياز سماع الموسيقى، واستعمال الهاتف، أو إدمان النظر إلى إناث الشوارع، إلاّ أن هذه المهنة لا تخلو من متاعبها الخاصة، فغرامات الركن غير القانوني للسيارة، تكون واردة ومحتملة بشكل كبير في أيّ وقت، كما قد يتم سحب السيارة في هذه الحالة ولا يتم تحريرها إلا بدفع غرامة يحتاج معها السائق الى أجر يومين لتحريرها من جديد، كما أن درجة الإحباط لدى السائق، تصل مداها عندما

تصاب سيارته بعطب ميكانيكي وهو في منتصف طريقه نحو التوصيل، حيث يتوقف صبيب الإكراميات، وينصب التفكير كله في المبلغ الذي سيغطي مصاريف إصلاح ذلك العطب، ويبقى الشيء الوحيد الذي يخافه السائق بشدة، هو أن تتعقبه سيارة الشرطة بوميض أضوائها الحمراء والزرقاء نذير ارتكابه لمخالفة ما، فارتكاب المخالفات في هذه المهنة وارد في أي لحظة سواء عن سهو أو عن عمد، فقد يحدث أحيانا أن يأخذ السائق طلبات لأكثر من ثلاثة زبائن يقعون في أماكن مختلفة، وحتى يفرغ منهم في أقل من ساعة، فطبيعي أن يكون في عجلة من أمره، ما يجعله يتعمد ارتكاب بعض المخالفات، كعدم احترام بعض إشارات المرور للوصول إلى الزبون في أقصى سرعة، لكنه قد يقع أحيانا فريسة شرطي متخفٍّ في سيارة مدنية، أو متربص به في زاوية مغلقة، ليبدأ معه تلقين دروس قانون السياقة من جديد، ثم كشف كل أوراق السيارة، انتهاءً بإمضاء فاتورة الغرامة! وعندما ينصرف الشرطي لحال سبيله، يبدأ مسلسل جديد مع الزبائن الذين طال انتظارهم لطلباتهم، والذين قد يغفرون للسائق تأخره إذا أتقن التمثيل ببكاء دموع التماسيح أمامهم، وقد تقسو قلوبهم ليتطور الأمر الى إشكال بين السائق والمطعم.

سنتان هي المدة التي عملت فيها كسائق توصيل بمطعم "جيريس"، كانت خلالها غرامات الركن غير القانوني للسيارة طوال تلك المدة عديدة، ورغم ذلك، فلم أتعرض خلالها لأي مشكلة مع الشرطة، كما لم يتم توقيفي من طرف أحدهم، ليس لأنني نظيف السياقة، ولكن بسبب كوني محظوظا لغيابهم وقت ارتكابي للمخالفات، إلى أن حل اليوم الذي قمت فيه قرب المطعم بنصف استدارة غير قانونية لم أنتبه لحظتها لوجود سيارة شرطة ورائي، والتي بدورها لم تتردد في إشعال أضوائها المميزة إيذاناً لي بالتوقف إلى جانب الطريق، وهو ما فعلته في حينه بفرائس ترتعد، وأسنان تصطك، ويدين ترتجفان! وبكل صراحة، فوميض أضواء سيارة الشرطة وراء سيارة مرتكب المخالفة كاف ليجعل عضلات الإحليل تتراخى، لينساب

منها البول بسلاسة، لا إراديا، وقد تغادر الخصيتان كيس الصفن نحو الأعلى للاحتماء بين عظام الحوض.

ترجّلت شرطية في منتصف العمر من السيارة بعدما وجهت شعاع ضوء قوي نحو سيارتي، أصابني بالارتباك عند انعكاس شعاعه بقوة في المرآة الجانبية مقابل وجهي. اتجهت الشرطية نحوي بخطوات بطيئة وموزونة لتنحني تجاهي بمحاذاة النافذة:

– هل ما قمت به الآن قانوني ؟ سألتني الشرطية بلباقة.

– أعتذر عن الخطأ وسوء التقدير!

– لم أطلب منك الاعتذار، بل سألتك فأجب عن سؤالي " هل يحق لك القيام بنصف دورة في هذا الطريق كما فعلت؟؟! ".

– لا يحق لي قط.!!!

– لماذا؟؟

– لأن الطريق متعاكسة الاتجاهين يفصلهما خطان أصفرا اللون غير متقاطعين!!

– ولماذا خالفت القانون؟؟

– فقط لتأخري عن اللحاق بالزبون، وأريد أن أتجنب احتجاجه!!... بالمناسبة هل يمكنني طلب الصفح ! خصوصاً وأنها أول مرة يتم توقيفي فيها من طرف الشرطة هكذا؟؟!! .

– كم المدة التي قضيتها كسائق توصيل؟؟

– سنتين!!

– وتريدني أن أصدق هراء أن تكون هذه أول مرة لك مع شرطة الطريق؟؟.

– أؤكد لك سيدتي أنها الحقيقة.

– ما دمت مصراً على ما أعتبره شبه مستحيل، فإنني سأعمل معك اتفاقًا، ستعطيني رخصة سياقتك، ثم سأفتش ملفك في سيارتي، إن كنت صادقا سأغض الطرف عن ما حدث الآن وسأسامحك، وإن كنت كاذباً سأكرمك بغرامة ثقيلة.. هل أنت متفق معي.

- أكيد سيدتي!!.

عادت إلى سيارتها فأخذت تعبث بحاسوبها دقائق عدة، ثم عادت وهي تلعب برخصة سياقتي بأناملها، فبدأت تكلمني بوجه بشوش وبسمة ظاهرة.

– لم أصدقك لأول وهلة، وهذا لا يمنعني أن أهنئك، فقد ربحت الرهان معي، لكن قبل أن أدعك تنصرف، أريدك أن تقسم أمامي ألا تعيد نفس الخطأ مستقبلاً!!

– أقسم بالله "....قاطعتني قبل أن أكمل القسم"!!.

- قبل أن تقسم، افتح كفّ يدك اليمنى وارفعها نحو السماء ثم أقسم.!!

فعلت كما قالت، ثم سلمتني الرخصة وانصرفت لحال سبيلها، فكانت تلك الواقعة أول مرة كنت فيها ضيفاً على شرطة الطريق منذ امتلاكي للسيارة، ومنذ ذلك الوقت أصبحت ضيفهم مرة أو مرتين كل شهر، والغريب في الأمر أن كل شرطي قام بتوقيفي، عندما يطلب مني رخصة السياقة للقيام بالتفتيش الروتيني من خلال حاسوب سيارته، يعود فيسلمني رخصتي مكتفياً بتحذير شفوي، أو حتى بطلب الانتباه في المرة المقبلة، لأن أيا منهم لا يتجرأ أن يكون أول شرطي يلطّخ صفحة ملفي البيضاء، بتحرير مخالفة أو فرض غرامة، وقد استفدت من امتياز المجاملة هذا مدة طويلة، إلى أن حان موعد ارتكابي لثاني حادثة سير، حادثة ليست كالأولى، لأن الأولى كانت بسيطة إعوج لها فقط غطاء المحرك، أما الحادثة الثانية فقد كانت عنيفة جداً، حضرها ملك الموت فعاد لحسن الحظ صفر اليدين !ففي الوقت الذي انتبهت فيه للإشارة الحمراء في مفترق الطرق بعد فوات الأوان، نزعت رجلي بسرعة من فوق دواسة السرعة كي أضعها فوق دواسة الفرامل، فوقع لي ارتباك بموجبه أعدت رجلي الى دواسة السرعة، معتقداً انها الخاصة بالفرامل! فكانت الحادثة، ولسوء الحظ أنني كنت قادما من منحدر شديد، وحتى قبل أن أدرك الأمر، لم أحس إلا وأنا أصطدم بعنف مع سيارة أخرى، هذه الاخيرة حلّقت في السماء من شدة الاصطدام لتقع على الرصيف في وضع معكوس للمسار الذي جاءت منه! في لقطة هيتشكوكية يسهر على تمثيل مثلها جيش من المهندسين في أفلام الحركة.

أصبت بدهشة كبيرة، وأحسست لهول الصدمة بالتخدير، تمنيت لو أن ذلك كان مجرد كابوس في المنام، فقوة الصدمة ولجهة باب السائق، قد أكون لا محالة أرسلت أرواحاً داخل تلك السيارة إلى حياة البرزخ، فكيف لي أن أتحمل مدى الحياة ذنب مقتل أبرياء بسببي . وبينما كنت أعيش على تلك الهواجس المخيفة وأحاول معها استيعاب ما يدور حولي إذ بشخص قد خرج من تلك السيارة فاتجه مسرعاً نحوي:

– هل أنت بخير ؟؟! سألني، وأنا حقا لست على ما يرام، ولا أخفي أنني بدأت أطمئن على من في تلك السيارة، لأن سائقها أمامي بشحمه ولحمه، سليم وهو يسأل عن حالي في موقف نقيض لما يجب أن يكون عليه الحال.

– نعم أنا بخير، كنت فقط قلقاً من أن يكون أحد ممن معك في السيارة قد أصيب بمكروه!.

– لا تقلق لا أحد غيري في السيارة وأنا بخير وما دمت أيضاً كذلك فكل شيء على ما يرام!! .

يا له من خطاب ينضح بالإنسانية من أمريكي لبق كنت لتوي أقتله بسوء تقديري، ثم تقمص دوري يسأل عن حالي وهو في الأصل ضحية وأنا المتهور الفاعل للخطأ الذي كاد يودي بحياته!!.

بعد مدة يسيرة، التحقت بالمكان دوريتا شرطة، فتم تسليمنا ورقتين بيضاوين من طرف أحد رجال الدوريتين، واحدة لي والأخرى للضحية، لنكتب فيهما شهادتنا وتفاصيل الحادث لتحفظ أقوالنا فيها، وذلك لاستعمالها حجة ضدنا أو لصالحنا حال وصولنا الى ردهات المحاكم، ثم أمرنا أن نسلم له أوراق السيارة، وبعدما قام بتفحصها داخل سيارته، خرج متجهاً نحوي أولاً والدهشة بادية على وجهه، فسألني باستغراب عن سر خلو ملفي من أي مخالفة أو خطأ طوال عدة سنوات، وكيف ارتكبت هذا الخطأ الفظيع جداً .ثم استرسل قائلا:

– لأنه أول خطأ في ملفك فإنني لن أغرمك بل سأكتفي بتحرير إنذار لك!.

شكرته على تفهمه، وعدت إلى المطعم بعدما هرعت سيارتا سحب إلى المكان لسحب السيارتين اللتين لم تعودا صالحتين للاستعمال مطلقا. عدت إلى المطعم لأعمل كطباخ إلى حين شراء سيارة جديدة، ومنذ تلك الحادثة، توقف رجال شرطة أرلينغتون عن مجاملتي، فتعاملوا مع أخطائي رغم بساطتها بصرامة خالية من الشفقة، إلى درجة أن أحدهم أرسلني يوما إلى المحكمة، لا لشيء إلا لأنه لمح أحد ضوئي الفرامل لا يعمل! رغم حيازتي حينها لمصباح احتياطي فرفض إعطائي بضع دقائق لإصلاحه في نفس المكان، وتجاهل طلبي بعدما قدم لي استدعاء المحكمة!.

VII

تتيح البطاقة الخضراء لحاملها امتياز العمل والإقامة الدائمين في أمريكا، وهي بطاقة تمتد صلاحيتها عادة الى عشر سنوات قابلة للتجديد لمدة عشر سنوات اضافية بعد انتهاء مدة صلاحيتها ، إلا أن المستفيد منها غالباً ما لا ينتظر حلول هذا الأجل، حيث يلجأ عادة إلى طلب التجنيس بعد مرور أول خمس سنوات من إقامته على التراب الأمريكي .وعملية التجنيس للمهاجر المقيم إقامة قانونية في أمريكا، هو إجراء بسيط يمكن لهذا المهاجر تقديم طلب بشأنه متى توفرت فيه شروط هذا التجنيس حسب القانون الأمريكي. وهذه الشروط، تتمثل في ضرورة كون المترشح لهذه العملية قد دخل التراب الأمريكي بصفة قانونية بغرض الإقامة الدائمة، كما يجب أن يكون قد أقام في أمريكا لفترة خمس سنوات على الأقل قبل تقديم طلب التجنيس، من دون أن يكون قد غاب طوال تلك المدة لأكثر من سنة ولو لمرة واحدة، كما يجب أن يكون متواجدا فعلياً فوق التراب الأمريكي لثلاثين شهراً على الأقل

خلال الخمس سنوات السابقة لتقديم الطلب، مع إقامته في ولاية أو مقاطعة معينة ثلاثة أشهر على الأقل.

وإلى جانب هذه الشروط، فإن المترشح كذلك ملزم أن يُبين أنه شخص ذو سيرة حسنة طوال المدة القانونية المحددة في خمس سنوات، والتي تنخفض إلى ثلاث سنوات في حال الارتباط بزوج أو زوجة أمريكية، وإلى سنة واحدة في حال عمل المترشح لدى القوات المسلحة الأمريكية .وعليه، فإنه يتم رفض طلبات المترشحين الذين أدينوا بارتكاب جريمة أو جنحة. وبعد استيفاء كل هذه الشروط، يمكن للمترشح أن يرسل طلب التجنيس إلى مكتب الهجرة قبل أن حلول أجل تلك المدة القانونية بثلاثة أشهر، وهو الإجراء الذي قمت به شخصياً في حينه، وبعد شهر من تلك العملية، تم إشعاري بضرورة القيام بعملية البصم لدى مكتب متخصص، حيث قمت بتلك العملية في حينها، ليتم بعدها تسليمي كتيباً يحتوي على مبادئ في التاريخ وجغرافية أمريكا، كما يحتوي على مبادئ عمل النظام السياسي الأمريكي، ومعطيات هذا الكتيب هي ما سأمتحن فيه في آخر عقبة للحصول على الجنسية بعد التأكد من قدرتي على استيعاب الحد الأدنى من اللغة الإنجليزية نطقاً وكتابة.

وبعد شهرين من البصم، توصلت برسالة من مصالح الهجرة، تم إعلامي بموجبها بموعد إجراء مقابلة الامتحان، والذي يحدد عادة بعد شهر من تاريخ تسلّم هذا الإعلام، وقد اكتشفت من جديد مع حلول هذا الموعد، بساطة مساطر اجتياز هذا الامتحان الذي لا يختلف عن مساطر الحصول على رخصة السياقة، أو أي وثيقة إدارية أخرى في الإدارات الأمريكية، رغم فارق الآثار القانونية المترتبة عن الحصول على الجنسية الأمريكية من جهة، والحصول على بطاقة السياقة من جهة أخرى.

دخلت قاعة فسيحة بعد مروري من نقطة التفتيش الموجودة وفي مدخل البناية، كان المترشحون يملؤون القاعة منتظرين أدوارهم، فوضعت بدوري ملفي على المنضدة حيث تقوم

الموظفة المرابطة وراءها بحمل ملفات المترشحين نحو المكتب وراء جدار تلك القاعة، ليطل أحد الموظفين العاملين هناك بين الفينة والأخرى من الباب الجانبي للقاعة، فينادي على اسم المترشح الذي سيكلف بامتحانه. ولم يدم إلا وقت قصير لتنادي على اسمي شابة وسيمة في عقدها الثالث، شقراء فائقة الجمال بوجه بشوش، تقدمت نحوها فمدّت إليَّ يدها للسلام، فلم أتردد بدوري في مد يدي لمصافحة ذلك الكف الصغير بأنامله الناعمة، نعومة الحرير الحرّ، بعدها أمرتني أن أتبع خطاها من ورائها، فكانت مناسبة لأتلصص على جسد هذا الملاك ذي القد الممشوق، والمؤخرة المكتنزة، والساقين العاريين الشفافين، اللذين استطعت أن أتبيّن من خلالهما لفرط بياضهما مسار العروق الدموية الخضراء!.

لما وصلنا إلى مكتبها، أمرتني بالجلوس في منتهى اللياقة وحسن الأدب، وأصرت بعد ذلك أن أتشجع، لأن الأمر كما تقول هو مجرد امتحان بسيط . بدأت تتصفح الوثائق في ملفي، وفجأة فتحت فاها مندهشة :

– إلهي! يا للمصادفة! لقد ازددت في السنة نفسها وفي اليوم نفسه الذي ازددت فيهما!.

– يعني أن كلينا من برج الجدي ! أرجو أن تمر هذه المقابلة بسلام، وأن لا تنتهي بالتناطح برؤوس بلا قرنين!!

كانت معاملتها في منتهى الرقي، لم تفارق الابتسامة فمها طوال المقابلة، ابتسامة مناسبة لذلك الوجه المليح الذي يحيط به شعر أشقر ناعم منسدل على كتفيها بشكل أضفى عليها مزيداً من السحر، أما صدرها، فكان عاريا تزينه بقع النّمش فاتحة اللون، لم أملك ما أقوله أمام هذا الجمال الباهر سوى قوله تعالى "فتبارك الله أحسنُ الخالقين !".

كانت أسئلتها بسيطة كأنها تسأل طفلاً في الروض، كنت أنتظر أسئلة حول نظام الحكم في أمريكا والعلاقة بين الغرفتين وحدود الفصل الجامد للسلطات الثلاث، وإذ بها تفاجئني بأسئلة قد يجيب عنها من لم يفتح كتيب التحضير للامتحان، أما امتحان اللغة، فقد اكتفت

بأمري بكتابة كلمتين اثنتين وتلاوة كلمتين أخريين، فعلقت بعد العملية بالقول: "رائع رائع رائع...!" كأنني بالكاد حطمت رقماً قياسيا صمد لعقود من الزمن، لتهنئني بالمرور الناجح في هذا الاختبار.

كانت المقابلة تتم عادة بحفل القسم، يقسم فيه المجنّسون بالولاء المطلق لأمريكا، قبل تسليمهم شواهد التجنيس، وتتم العملية عن طريق تقسيم الناجحين إلى أفواج، كل فوج يصل عدد الأفراد فيه إلى ثلاث مئة مترشح ومترشحة، يتم جمعهم في قاعة خاصة لحضور مراسيم هذا الحفل، إلا أن الذين أجروا المقابلة بعد الرابعة مساء يتم تأجيل الحفل بالنسبة اليهم، وذلك لضيق الوقت، حيث تغلق أبواب ذلك المكتب في السادسة مساء، ويقوم مكتب الهجرة بتحديد موعد جديد معهم عبر الهاتف أو بالمراسلة لإجراء هذا القسم، وهذا الموعد قد يكون في اليوم التالي أو يطول انتظاره أسابيع عدة كل حسب حظه.

كانت الساعة عند اجتيازي تلك المقابلة قد تجاوزت الرابعة بعد الزوال، أصبح معها تأجيل حفل القسم بالنسبة اليّ أمراً حتمياً، وهو ما فطنت اليه الموظفة التي اجتزت على يدها المقابلة، فسألتني إن كان لا يحرجني تأجيل الحفل إلى وقت لاحق، لأجيبها إنني أحبذ الانتهاء منه الآن إذا كان ممكنا.

ما أن سمعت الموظفة رغبتي تلك حتى نطّت من مكانها، فأسرعت نحو خارج مكتبها بعدما أمرتني بالتريث حتى تعود، وفعلا فقد عادت بعد بضع دقائق وهي على عجلة من أمرها، تأمرني أن أجمع أغراضي وأتبعها نحو قاعة حيث يوجد فوج لم يبدأ بعد في أداء مراسيم حفل القسم، ولم تفارقني حتى اطمأنت لولوجي قاعة الحفل، فهمست إليَّ قبل أن تنصرف :

- أنت محظوظ ! ما كنت لأفعل كل ذلك من أجلك لو لم يجمع كلينا برج الجدي!.

انصرفت الحسناء الشقراء وتركتني في ريبة من أمري بعد كل هذا الاهتمام الزائد الذي أبدته تجاهي، فبدأت أتساءل: أوليس هذا كله نذير بوادر إحساسها ب "الحب" تجاهي ؟! هل تحبّني وتخجل من الاعتراف لي مباشرة بتلك الحقيقة ؟! هل أنا واهم ؟ ربما أكون كذلك، فمن منعها من البوح بما يخالج صدرها تجاهي خصوصاً وأننا في الديار تعلمنا أن النصرانيات لا يخجلن من الاعتراف بالحب للحبيب ولو في مستهلّ أول لقاء بينهما؟؟ على كل حال، فلا دخان بلا نار، سأحتفل الآن مع هذه الحشود بالجنسية، وبالتأكيد أنها ستكون بانتظاري خارج القاعة بعد حفل القسم إن كانت تحبّني فعلاً.

خرجت من القاعة وأنا على يقين أنها بمجرد خروجي سترتمي في أحضاني، وستطبع على خدّي قبلة يصدح صداها بين جدران الإدارة كنوع من التهنئة بالجنسية الجديدة !!فخاب ظني عندما لم أجدها بانتظاري، لأستيقظ من حلم جميل تأكدت بعده أن الأمر لا يعدو أن يكون سوى وهم الكبت العاطفي الذي يعاني منه أفراد المجتمعات المحافظة مثلي، فثغر تلك الحسناء الباسم طوال المقابلة، فعل فعلة التخدير في قلبي الواهم، واهم بحسن خاتمة ذلك الوهم، لأكتشف في آخر المطاف أنني مجرد شخص حالم، لم أستيقظ من ذلك الحلم حتى وقفت في مواجهتي امرأة عجوز في خريف العمر، تُلِّح علي أن أتبعها إلى مكتب في قاعة أخرى لأسجل في اللوائح الانتخابية كأول حق من حقوق حمل الجنسية الأمريكية، حيث من الآن فصاعدا، سيكون لصوتي الدور الحاسم في ترجيح كفة مرشح على الآخر في الانتخابات الرئاسية الأمريكية، خصوصاً أمام النسب الطفيفة التي تفصل الفائز عن الخاسر في تلك الانتخابات على مر تاريخ أمريكا . وفعلاً قمت بالتسجيل بمساعدة العجوز، فقامت قبل أن أغادر المكان بتوشيح صدري بملصق دائري صغير مزين بصورة للراية الأمريكية تتوسطها كلمة "منتخب"، احتفظت بها على صدري كما يحفظ الجنرال نياشينه على صدره حتى يضعها على رفوفها الآمنة في منزله.

لم يعد يفصل المواطنين الأمريكيين عند حصولي على الجنسية سوى شهر واحد عن الاستحقاقات الانتخابية لانتخاب رئيس جديد للبلاد، وقد كنت حينها متحمساً للتصويت لسببين، أولهما أن تصويتي سيمنح اسمي فرصة غزو مختلف الإدارات الامريكية من أقلها شأناً إلى أكثرها ارتباطا بالأمن القومي، وذلك من خلال شرايين حواسيبها كنوع من ترسيخ جنسيتي المكتسبة، أو حتى الرقي بها إلى مرتبة قريبة من الجنسية الأصلية!! ، أما السبب الثاني لرغبتي في التصويت، فهو تعاطفي مع الحزب الديمقراطي الذي اتخذ من الحمار المسكين شعاراً له، فحزب الديمقراطيين، هو حزب رؤوف في برامجه الانتخابية مع الطبقة الفقيرة، ومشهور بوضع العديد من البرامج الاجتماعية وإعادة توزيع الثروة عن طريق خطط الضريبة المتفاوتة بتفاوت الدخل، وقد وصل حماسي بالتصويت لصالح هذا الحزب عندما تقدم للترشح باسمه المرشح الإفريقي الأمريكي "باراك أوباما"، خصوصاً أمام المعاناة التي عاشها الأفارقة الأمريكيون على مدار قرون من الزمن على يد البيض، والتي لم تعكس أحداث المسلسل التليفزيوني الكلاسيكي "كونتا كينتي" إلا شذرات من بحر تلك المعاناة. وتبقى النقطة الوحيدة التي لا أتفق فيها مع هذا الحزب، هو معاكسته، أو حتى تحفظه عن الوحدة الترابية للمغرب، حيث تطفو دائما أزمة الصحراء المغربية على السطح في كل مرة يصل فيها الديمقراطيون إلى الحكم.

ومهما يكن، فقد أفرزت الانتخابات ما تنبأت به استطلاعات الرأي، ففاز" باراك أوباما" على خصمه الجمهوري" ميت رومني "في انتخابات شهدت مشاركة قياسية وصلت إلى 60%، وما كانت لتتحقق هذه النسبة لولا حصولي على الجنسية التي خولت لي حق التصويت. فاز إذن أوباما بنسبة52,7% ، أي أنه حصل على قرابة أربعة ملايين صوت أعلى من نصف مجموع الأصوات التي قدر عددها ب 160 مليون صوت، ولو كتبت نسبة النجاح تلك بسبعة أرقام وراء الفاصلة، فأكيد سيكون صوتي حاسماً في تحديد قيمة آخر رقم من تلك الأرقام السبعة.

استطعت إذن أنا وعدد من ملايين الناخبين أن نجعل من "باراك أوباما" أول رئيس أسود يصل إلى البيت الأبيض، وهو الحدث الذي كان يمثل الحلم صعب التحقيق لكل الأفارقة الأمريكيين، وقد رصدت كاميرا التلفزة إبان الإعلان عن فوز "أوباما" العديد من الكهول السود وهم يرقصون في الشارع كالأطفال الصغار، ولما أعطيت لهم الميكروفونات للتعبير عن إحساسهم في تلك اللحظة، عبروا بصعوبة من شدة التأثر ومن شدة البكاء عن سعادتهم لامتداد أعمارهم حتى تلك اللحظة التاريخية، ومنهم من تمنى أن لا تكون فرحته تلك مجرد حلم سيستيقظ منه في أي لحظة!.

تسلّم إذن " أوباما" مقاليد الحكم في وقت تعيش فيه أمريكا على وقع الأزمة الاقتصادية التي ظهرت بوادرها في السنة الأخيرة من ولاية "بوش" الابن، لتمتد تداعياتها إلى السنوات اللاّحقة لحكم "أوباما ". فبعد الطفرة الاقتصادية التي عاشها الاقتصاد العالمي بدءاً من سنة 2006 التي تمثلت في الارتفاع الصاروخي لأسعار المواد الخام، والمواد الطبيعية والصناعية، وكذلك الأمر بالنسبة إلى أسعار جميع المنتجات الطبيعية والصناعية وحتى الغذائية، بشكل ارتفعت معه الأسعار ووصلت إلى مستويات غير مسبوقة، كما شهد السوق العقاري ارتفاعا هائلا في أسعار العقار، الذي انعكس بدوره إيجاباً على الاستثمار العقاري، حيث أقيمت في مختلف دول العالم مشاريع استثمارية كبرى في العقار إثر المنافسة الشرسة بين البنوك في تقديم تسهيلات الحصول على القروض العقارية، هذه التسهيلات امتدت لتشمل كذلك الأسر الراغبة في شراء المنازل، فقُدمت لها قروض في غياب الضمانات الكافية لقدرة هذه الأسر على سداد أقساط الدّين عند حلول أجلها، وزاد من تعقيد صعوبة دفع هذه الأقساط، الارتفاع المضطرد لأسعار المواد والمنتجات الأخرى، الشيء الذي أضاف لرب الأسرة عبء توفير مستلزمات الحياة التي أصبحت فوق طاقته، على عبء توفير أقساط قرض المنزل، ما جعل البنوك تجد صعوبة في توفيرها للسيولة النقدية نتيجة عدم وفاء المقترضين بالتزاماتهم تجاهها، لتظهر مشكلة الرهن العقاري في مرحلة أولى، ثم مشكلة بطائق الائتمان كمرحلة

ثانية، بعدها اتسعت فجوة الأزمة بالانهيار المفاجئ لأسهم بورصة "وول ستريت"، وانهار على إثرها أحد البنوك العريقة في أمريك وهو بنك "ليمان براذرز" الذي عمّر 150 سنة وصمد حتى في وجه أزمة الكساد الكبيرة سنة. 1929 بعدها انهار ثمانية عشر بنكا فيما يشبه سقوط قطع "الدومينو"، فبدأت البنوك المهددة الأخرى بالاندماج مع بعضها بعضاً، واستغل بعضها ترنح البعض الآخر فتقدم لشراء أصوله. وقد أدت هذه الأزمة إلى توقف العديد من المشاريع العملاقة في العالم، كما تراجعت التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وتراجع معهما مستوى التضخم، وانهارت الأسعار في كثير من المؤسسات الكبيرة، كما انخفضت من جديد أسعار المنتجات الصناعية والمواد الخام، حيث هوى ثمن النفط بنسبة 70% وأدى كل هذا إلى فقدان الملايين من العمال في العالم لوظائفهم، فاستفحلت البطالة نتيجة انكماش نمو الاقتصاد العالمي، حيث وصلت نسبة البطالة في أمريكا مع أوج الأزمة إلى9%، وهي نسبة غير مسبوقة في الاقتصاد الأمريكي منذ بداية ثمانينيات القرن الماضي!.

وكشاهد على مظاهر الأزمة في عُقر الدار حيث بدأت، فقد كانت منطقة "واشنطن فرجينيا" صورة مصغرة لما يحدث إبان الأزمة في كل التراب الأمريكي، حيث بدأنا نشاهد إفلاس محلات بيع السلع المعمّرة كأثاث المنازل ومواد تجهيزها، كما أغلق بعض سماسرة بيع السيارات محلاتهم، لكون هذا القطاع هو أكثر القطاعات تضرراً من الأزمة، لأنه ينبني في تعامله مع زبائنه على قروض البنوك، وهذه الأخيرة تشدّدت في منح هذه القروض، فأصبح تمويل شراء السيارات في جزئه الأكبر يتم عن طريق التمويل الذاتي الخاص.

وقد ازدادت في المنطقة نسبة البطالة إلى حدّ أننا ألفنا مشاهدة أمريكيين كانوا بالأمس يعيشون حياة الرفاهية بكل مظاهرها يتسولون العمل في المطاعم ذات الأجر الهزيل، أما البحث عن العمل، فقد أصبح أمراً صعبا، حتى المطاعم التي لم تتوقف من قبل عن طلب اليد العاملة أصبحت تتخلص من عمالها لترشيد النفقات والحفاظ على هامش الربح، وأصبح

بعضها عاجزا عن مقاومة تداعيات الأزمة، خصوصاً حديثة العهد منها في المنطقة، فأرغمت على إغلاق أبوابها كآخر خياراتها. أما مطعم "جيريس" الذي أعمل فيه، فقد كان محظوظاً جدا طوال سنتين مدة استفحال الأزمة على غرار بعض المطاعم المعروفة في المنطقة، حيث ارتفعت قيمة المبيعات من داخل المطعم، كما وصلت خدمة التوصيل الى أوجها بشكل لم أعد أقوى على مسايرة إيقاعها السريع خصوصاً في الفترة المسائية، فكانت سنتا الأزمة والسنتان بعدها من أفضل السنوات التي عملت فيها في ذلك المطعم من حيث كسبي للأموال التي أجنيها من عملي كسائق، وقد استفاد المطعم من وفاء زبائنه الاعتياديين له في أيام الأزمة، كما استفاد من وفود زبائن جدد، جلهم من الطلبة السعوديين والقطريين وطلبة آخرين من بعض دول أوروبا الشرقية خصيصاً الجورجيين منهم والأتراك. والغريب في الأمر أن الطلبة المنحدرين من الدول الفقيرة هم الأكثر سخاءً تجاه سائقي التوصيل من نظرائهم المنحدرين من الدول الغنية، كما أن اللاّتينيين المقيمين بصفة غير قانونية أصحاب المهن محدودة الدخل، أكثر سخاءً من الأمريكيين ذوي الدخل الفاحش!.

لم تقف الحكومة الأمريكية في أواخر شهور ولاية الرئيس "بوش" الابن مكتوفة الأيدي أمام تداعيات هذه الأزمة الخطيرة التي تنذر بانهيار وشيك لكل الاقتصاد الأمريكي، فقام وزير الخزانة حينها "هنري بولسون" بصياغة خطة الإنقاذ التي انقسم بشأنها المحللون، وكذا الرأي العام الأمريكي إلى تيارين : الأول يؤيد الخطة لإنقاذ الاقتصاد، والثاني يرى أن "وول ستريت" هي التي تسببت بالأزمة لذا عليها أن تواجهها بنفسها، إضافة إلى غياب ضمانات نجاح الخطة، لأنه في حالة فشلها ستكون مجرد تبديد للأموال العمومية.

على أي، فقد تمت المصادقة على الخطة في مجلس النواب في سبتمبر 2008 وفي مجلس الشيوخ في أكتوبر من السنة نفسها .وتقوم الخطة على السماح للحكومة الأمريكية بشراء أصول هالكة بقيمة سبع مئة مليار دولار، تكون مخصصة للأصول المرتبطة بالرهن العقاري .

والمثير في الخطة منذ بداية تطبيقها أن البنوك والمؤسسات المالية بمجرد توصلها بأموال الإنقاذ، قامت مباشرة بتخصيص ملايين الدولارات من تلك الأموال العمومية لتقديم العلاوات والمكافئات لرؤسائها الكبار ! جعل الحكومة بشخص رئيسها باراك أوباما وبضغط من الشارع الأمريكي تقوم بإرغام هذه المؤسسات على إرجاع هذه الأموال لتمريرها عبر القنوات التي منحت من أجلها . وقد احتاج الاقتصاد الأمريكي بعد خطة الإنقاذ إلى شهور طويلة لتظهر بوادر التعافي البطيء، وارتبطت هذه المدة بوجود مخاوف عودة الركود من جديد، فالأزمة المالية عادة ما تنشأ ببطء وتحتاج لزوالها الى بطء أشد، فهي ليست كالأزمة السياسية أو الاجتماعية أو حتى التجارية، حيث تزول هذه الأزمات بمجرد توحيد أطرافها لوجهات نظرهم وقدرتهم على نبذ الخلافات التي بسببها نجمت تلك الأزمات.

لم يواجه "باراك أوباما" تداعيات الأزمة الإقتصادية التي ورثها عن سلفه "بوش" الابن فحسب، بل كانت كلتا ولايتي حكمه حافلتين بالأزمات، حيث طفت خلالهما خلافات كبيرة مع كل من الصين وروسيا، إذ ازدادت حدة الخلافات مع هذه الأخيرة بظهور الأزمة الروسية الأوكرانية، كما تأزمت علاقة أمريكا مع إيران بسبب الملف النووي، بالإضافة إلى ملف القوات الأمريكية في كل من العراق وأفغانستان، وأزمة معتقل غوانتانامو .هذا بخصوص الملفات الخارجية، أما داخلياً فقد برزت من جديد وبصورة أكثر حدة ظاهرة الاعتداءات المسلحة على تلاميذ المدارس، بالإضافة إلى مخلفات الكوارث الطبيعية حيث شهدت أمريكا موجات برد وصقيع، كما شهدت موجات حرّ ليس للبلاد عهد بها منذ عقود، فالتهمت النيران مئات آلاف الهكتارات من الغابات، كما دمر إعصار "ساندي" العملاق مدن الساحل الشرقي دماراً ذكّر الأمريكيين بدمار إعصار "كاترينا" بلويزيانا قبل عشر سنين. ولا بأس أن أتناول في حديثي هذا بعضاً من أحداث إعصار "ساندي "ومخلفاته، وقد اخترت الحديث عن هذا الإعصار لأنه يمثل نقطة التقاء بين ما عانته أمريكا إبان حكم "أوباما" وما عاناه المغرب تزامنا مع تلك الفترة.

والحقيقة أن الأزمة لا تربط المغرب مع كل من روسيا والصين، بل على العكس، فالدولتين تخطبان ودّ المغرب لنسج علاقات اقتصادية وتجارية معه، كما أن الأزمة المغربية الإيرانية ليست بمثل حجم الأزمة الأمريكية الإيرانية، فإذا كانت أمريكا تنظر بعين الريبة الى البرنامج النووي الإيراني لما فيه من تهديد جدّي لمصالحها في الشرق الأوسط، فإن المغرب في المقابل ينظر بعين الريبة للمدّ "النووي" العقائدي لإيران، فالمغرب يخاف على شعبه وعلى المذهب المالكي المعتدل من الأفكار الشيعية التي تجعل من سبّ الصحابة تقرباً إلى الله، كما يخاف أن تمتد أماكن الحجاج من شعبه لتشمل النجف والبصرة وكربلاء !! أما مدارسنا فبعيدة كل البعد عن التقتيل الدموي الذي تشهده بعض المدارس الأمريكية، لكون مدارسنا والحمد لله بدائية لم تفتح عينها بعد على تكنولوجيا البنادق والمسدسات!.

الأعاصير التي أُصرّ على أنها نقطة الالتقاء بين ما شهدته أمريكا وما شهده المغرب تزامنا مع حكم "أوباما"، لا أعني بها أن المغرب يعرف هذا النوع من الكوارث الطبيعية المدمرة، لكن حجم الدمار والخراب الذي تسببه أحيانا تساقطات مطرية على شحها في المغرب، يرتفع إلى مستوى الدمار والخراب الذي تخلفه الأعاصير بمفهومها الحقيقي في أمريكا. وطبعا، وكما هو معلوم، فقد عرفت أمريكا نهاية أكتوبر 2012 موجة مدمرة بسبب إعصار "ساندي" الذي لم تنج منه دول الكاريبي وكذلك كندا، إلا أن أغلب الأضرار التي خلفها تركزت في الولايات الشرقية لأمريكا، فوصل عدد الولايات التي تأثرت بهذا الإعصار إلى 24 ولاية بأضرار متفاوتة، استأثرت ولايتا نيويورك ونيوجيرسي بحصة الأسد من هذه الأضرار. وصنف الإعصار ضمن الفئة الأولى على سلم "سافير سامبسون" المؤلف من خمس فئات، وكان منحنى مسار هذا الإعصار من الجنوب نحو الشمال بسرعة 800 كيلومتر في الساعة.

هذا الإعصار المدمر صاحبته رياح قوية وصلت أحيانا إلى 160 كيلومتراً في الساعة، وأمطار غزيرة تسببت بطوفان وفيضانات على مدار الساعة، و ارتفاع منسوب مياه البحر التي غمرت كلياً الجزء الجنوبي من جزيرة "منهاتن" في "نيويورك"، كما امتلأت أنفاق الميترو بالماء حتى استوت مع الرصيف، فأغلقت المدارس والإدارات والمتاجر، وتأزمت الأوضاع مع انقطاع التيار الكهربائي بشكل غير مسبوق في التاريخ، حيث وصل عدد السكان الذين انقطعت عنهم الكهرباء إلى قرابة ستة ملايين شخص! ولم يستثني هذا الانقطاع أكبر المستشفيات في "نيويورك"، فتم نقل المرضى إلى مستشفيات أخرى، وأكد مكتب بلدية "نيويورك" أن مركز الطوارئ تلقى عشرة آلاف مكالمة لطلب النجدة خلال نصف ساعة فقط، كما تم إلغاء آلاف الرحلات الجوية، وأجل كلا المرشحين "أوباما" و"رومني" برامج حملتهما الانتخابية في أكبر المدن الأمريكية "نيويورك". كما وصل عدد القتلى في كل الولايات الأمريكية التي اجتاحها الإعصار إلى 88 شخصا نصفهم من "نيويورك".

كان من الممكن أن تكون عواقب إعصار "ساندي" كارثية، وضحايا الأرواح بالألوف، خصوصا في المدينتين الأكثر تضرراً، نيوجيرسي ونيويورك، إلا أن التجربة الأمريكية في مواجهة الأعاصير والإمكانيات اللوجيستيكية الضخمة المتوفرة لديها، مكناها من التخفيف من حدة آثار هذه الكارثة التي بدأ التنبؤ بحجمها ومسارها وكذا قوتها التدميرية في وقت مازالت تعتبر فيه توقعات الأرصاد الجوية رجماً بالغيب لدى أغلب شعوب بلداننا!. وهكذا تم التعامل مع ما سيخلفه هذا الإعصار من أضرار محتملة بمحاولة تقليصها إلى حدها الأدنى، حيث أمكنت النجدة الاستباقية من ترحيل 375 ألف شخص من الأماكن الأكثر تهديداً، وتم تجييش الآلاف من موظفي وعمال الشركات الكهربائية، والأعداد نفسها من رجال الوقاية المدنية، كما كان المسؤولون على أعلى مستوى إلى أدناها في مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقهم، وكان الرئيس "أوباما" بدوره يُواظب على الظهور على الشاشة كل ساعة ليخبر المواطنين بمستجدات الإعصار، والتدابير التي اتخذتها حكومته لمواجهته، وكانت كلمته موازية لعمل

ميداني دؤوب لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، حتى إنّ سمكة القرش التي رمتها الأمواج إلى شارع من شوارع نيوجيرسي المغمورة كليا بالمياه استفادت من حقها في الإنقاذ، إذ تمكنت وحدة من رجال الوقاية المدنية من إرجاعها نحو البحر في خطوة تستحق أن تُرغم المغتربين في أمريكا من أمثالي على فتح أفواههم من شدة التأثر لأسماك تنقذ فما بالنا بالآدميين؟!. أما ميترو "نيويورك" الذي يصل عدد ركابه إلى 5,2 مليون راكب يومياً والذي غُمرت أنفاقه كلياً مئات الآلاف من الأمتار المكعبة من الماء، فقد تم شفط كل هذه المياه في ظرف قياسي، وأصلحت أضراره ليعود إلى الخدمة بعد ثلاثة أيام فقط من موجة الإعصار.!!

في ولاية فرجينيا كنت شاهد عيان على مرور هذا الإعصار، فقد شاهدت كيف عاشت هذه الولاية يومين عصيبين جراء هذا الإعصار، حيث لم تتوقف "صنابير" التساقطات ساعات طوال، كما لم تتحمل الأشجار قوة الرياح، فسقطت متسببة في قطع التيار الكهربائي عن العديد من الأحياء، فقتل شخص واحد في الولاية بسببها، ورغم ذلك، فقد استأنفت معظم المطاعم عملها بما فيها مطعم "جيريس" بخدمة التوصيل التي كلفت بها كالعادة، ولم نتوقف عن العمل إلا بعدما انقطع التيار الكهربائي فجأة ونحن حينها نتابع أخبار تطور الإعصار على شاشة تلفاز المطعم. هذا الانقطاع المفاجئ للتيار، جعل زميلاً مغربيا يعمل معي يعلق على الحدث ساخراً:

- حتى أمريكا ينقطع فيها التيار الكهربائي !؟؟.

طبعا ينقطع فيها التيار الكهربائي وفقط لأسباب قاهرة، ويعود في وقت قياسي خلافاً للمألوف عندنا في الديار، حيث ينقطع التيار الكهربائي في يوم تسبح في سمائه أضعف الطيور ! ونحتاج إلى أيام لتحديد مصدر الخلل في محطة التوليد، وأسابيع أخرى للتوصل بقطع الغيار ممن تعيبهم الآن، بل هناك في الديار قرى ومداشر، وحتى ضواحي مدن لم تنعم بعد في القرن الواحد والعشرين بتوهج مصباح "أديسون!".

كانت بحق ليلة عصيبة، خصوصا عندما غادرت نحو البيت بعد انتهاء العمل، حيث فوجئت لسوء الحظ بعد الوصول إليه أنه كان ضمن منطقة حرمت من التيار الكهربائي لنرغم على قضاء الليلة في الزمهرير على أضواء الشموع، فرصة كي أسترجع ذكريات الصبى في الديار حيث نتسلح في ظلام الليل حينها بنور الشموع والقناديل.

أما في بلدنا المحمي ولله الحمد، فإنه يخلو من الكوارث الطبيعية إلا من بعض الهزات الزلزالية الخفيفة والمتباعدة زماناً، والتي لا يد للإنسان فيها، مع ما يعني ذلك من حتمية الاستسلام لمخلفاتها وأضرارها كأمر شاءت الأقدار حدوثه ، وغير ذلك، فإن الله قد ابتلانا بمسؤولين أصبحت بسببهم تساقطات الأمطار على شحّها تخلف أضراراً بحجم أضرار الأعاصير والطوفان، إلى درجة أن المغاربة المهووسين أصلاً بحب غيث السماء، أصبحوا يضعون أيديهم على قلوبهم بمجرد رؤية البرق في السماء مصحوبًا بسماع دويّ الرعد، حينها يردّد سكان الحواضر مأثورهم الشعبية : "الله يعطينا الشتا قد القوادس... " فيما يردد سكان البوادي والقرى : "الله يعطينا الشتا قد النفع"!.

فالفيضانات التي عرفتها المنطقة الجنوبية الشرقية وسوس والحوز وكَلميم نهاية سنة2014 ، رغم أن التساقطات التي تسببت في تلك الفيضانات لم تتجاوز في تلك المناطق 280 مليمتراً موزعة على أربعة أيام، إلا أنها خلفت أضرارا كارثية يمكن مقارنتها بمخلفات إعصار "ساندي "! رغم أن هذا الأخير غطّى أضعاف مضاعفة من مساحة المغرب كلها، كما أن المساحة التي دمرها كلها مأهولة وعالية الكثافة السكانية وتضم أكبر "ميغالوبوليس" في العالم، بينما غطت فيضانات المغرب قفاراً تحتوي على تجمعات سكنية صغيرة ومتفرقة لا يتعدى مجموع سكان المنطقة المتضررة كلها خمسة ملايين نسمة، ورغم ذلك، فقد كشفت تلك الفيضانات عن هشاشة البنى التحتية، وزهقت أرواح 32 شخصا، وشردت مئات العائلات، فكانت هذه الزخات المطرية مناسبة لكشف حجم الفساد والتلاعب في الصفقات

العمومية في بلادنا .صفقات مشبوهة في التفويت بتكلفات مالية ذهبت حصة الأسد فيها إلى جيوب من تحوم حولهم الشبهات من أنصاف المقاولين، فنابت عدالة السماء عن المستضعفين في فضح هذه التلاعبات.

هذه الفيضانات التي ضربت وسط المغرب أواخر سنة 2014 ، لم تكن الأولى التي عرفها المغرب المعاصر، بل سبقتها فيضانات عدة، وفي مناطق مختلفة، خلّفت كلها مآسي إنسانية عديدة، لكن الجديد في الفيضانات الأخيرة هو الزخم الإعلامي الذي رافقها، والذي كان من ورائه هواة التصوير الذين يمثلون بوعي أو من دونه مراسلي قناتي "يوتوب" و"الدايلي موشن" اللتين تتوفران على مراسل أينما وجد الهاتف الذكي المستعد لالتقاط الصورة ونشرها في أحد الموقعين. حيث فضح هؤلاء الهواة إعلامنا العمومي الذي مارس مراراً سياسة التعتيم على كل الفيضانات السابقة بشكل جعل أضرارها ومآسيها حبيسة المناطق المنكوبة.

انتشرت إذن صور هؤلاء الهواة في مختلف القنوات الإخبارية العالمية، فتأجج غضب المتضررين والمتعاطفين معهم من مختلف مناطق المملكة، فعملت الدولة على إخماد هذا الغضب بعد فوات الأوان بتوزيع قوالب السُّكر وعلب الشاي وقوارير الزيت على بعض المتضررين الذين أُرغموا على الإدلاء أمام كاميرات الإعلام العمومي المنافق بالشكر والامتنان بفضل الدولة عليهم، وبالموازاة مع هذا النفاق السينمائي، قام المصورون الهواة بفضح المزيد من المآسي ورصد العديد من الحالات الإجتماعية الصعبة عملت معها رؤوس الفساد الكبرى في الدولة تحت الضغط على إعفاء رؤوس الفساد الصغرى بعد تحميلهم كل المسؤولية، لذر الرماد في العيون، وكأن القلم سقط في النهر ولم تذهب أرواح جرفتها السيول وجرفت معها الممتلكات، ولم تسلم حتى القناطر التي أنشأها مقاولو ومهندسو أمة "من غشّنا فليس منّا" والتي بالكاد تم إتمام بناؤها، في حين بقيت القناطر التي تركها لنا كُفَّار الاستعمار الغاشم شاهدة على هذا الغش، ننتفع بها رغم مرور عقود على أعمارها الافتراضية.

فمن خلال هذا القطب، قطب الإعلام الهاوي، أدركنا أن لا وجود لأي مساعدات والتي على الأرجح تم اختلاسها، كما تعرفنا إلى حقيقة حوّامات الإنقاذ التي تسترق السمع وسط الجموع المحاصرة بالسيول لتلتقط بينهم الأشخاص الذين طلبوا النجدة بلغة العجم، كما تعرفنا من خلاله كذلك إلى الوجه الحقيقي للمغرب من دون مساحيق حناجر مذيعي قنوات القطب العمومي وعدسات كاميراته التي تصور بانتقائية !وتبقى الصورة الأكثر إيلاماً من بين تلك الصور الموثِّقة لمآسي ما بعد تلك الفيضانات هي صورة عائلتين من أحد دواوير "وارزازات"، التي جرفت السيول منزليهما الطينيين الآيلين للسقوط ولم يتبق منهما سوى غرفة أحدهما، فاتخذتها العائلتان مسكناً لها، وعددهم ستة عشر فرداً تقاسموا كلهم تلك الغرفة بالإضافة إلى بقرة وعنزة هما كل ما تبقى من قطعان ماشية العائلتين!.

VIII

تعتبر ظاهرة العزوف عن الزواج في أوساط الشباب، ظاهرة مستفحلة في المغرب، وتبقى البطالة هي الشمّاعة التي يعلق عليها أغلب هؤلاء الشباب أسباب عزوفهم عن الزواج. ولا شكّ، فظاهرة البطالة هي السبب الرئيس الذي يحول بين الشباب والإقتران بشريكات حياتهم، والمفارقة الغريبة تكمن في كون العديد من هؤلاء الشباب في المغرب والذين نجوا من براثن البطالة واستفادوا من بطاقة الإقامة الدائمة مع امتياز العمل في أمريكا، تنتشر في صفوفهم كذلك هذه الظاهرة، حيث يتعمّدون العزوف عن الزواج أو حتى تأجيله لعدة

سنوات، وذلك بسبب التردد في الإقبال عليه، إذ أضحى في أمريكا مغامرة مكلفة جداً، فبعد أن اختفى تبرير البطالة كسبب رئيس للنفور من الزواج، ظهر مبرر جديد يتذرع به أغلب الشباب المغترب في أمريكا، ألا وهو الارتفاع الباهظ لتكاليف الحياة الزوجية، فأغلب المهاجرين – كقاعدة وهناك طبعاً استثناءات عدة – يزاولون مهناً محدودة الدخل مقارنة مع متوسط هذا الدخل في المنطقة التي يقيمون فيها، ورغم ذلك فإن حياة المهاجر تكون سهلة نوعاً ما إذا اكتفى بحياة العزوبية وتقاسم تكاليف الحياة مع غيره من العزاب الذين يشترك معهم في الشقة نفسها، وتردده في الزواج يعود إلى شعوره بصعوبة الإنفراد بدفع إيجار شقة بغرفتين لن يقل عن الألف وخمس مئة دولار شهرياً في منطقة واشنطن فرجينيا، بالإضافة إلى مصاريف ضروريات الحياة الأخرى، وهذه المهمة تكون أكثر صعوبة في هذه المنطقة بالذات من أمريكا، حيث متوسط الدخل الفردي في منطقة أرلينغتون مثلا يتجاوز الثمانين ألف دولاراً في السنة، أي أكثر من المعدل في كل أمريكا بثلاثين ألف دولار !! لهذا، فإن مجرد التفكير في الزواج يعني القدرة على الصراع على ثلاث جبهات أولها تحمل مصاريف هائلة بعد الاستقلال في شقة خاصة، وثانيها ضرورة الإرسال الدوري للمال إلى عائلته في الديار، لكون المهاجر هو أمل تلك العائلة عند حاجتها إلى المال، وأخيرا ضرورة ادخار قدر من المال يمنحه فرصة صلة القربى كلما سنحت الظروف بذلك.

المتزوجون من المهاجرين في أمريكا، غالباً ما يلحّون في نصح العزاب من معارفهم بضرورة الزواج، ويشجعونهم للإقدام على هذه الخطوة، بدعوى أن الزواج شيء لابد منه، سواء عُجّل أو أُجّل، ثم إن الزواج يمنح المتزوج حياة هادئة بخلاف الحياة الصاخبة بشقق العزاب .كما يمنح الاستقلال في شقة خاصة مع القرينة، نوماً هادئا ولذيذاً فوق سرير الزوجية !وهذه النصائح قد تكون صادقة، وصادرة عن حسن نية، لكن قد يفهمها البعض من المهاجرين العزاب كمقلب ودسيسة تتربص للإيقاع بهم في شرك سبق ووقع فيه الناصح المتزوج الذي يأمل في تعميم أوضاعه من باب "إذا عمّت هانت"! .

ومهما يكن، فبعد أن تيقنت من أنني أهل لتحمل المصاريف الباهضة لما بعد الزواج، فإنني لم أتردد في التوكل على الله والإقدام على هذه الخطوة، ولم يمهلني في ذلك سوى ضرورة التريث حتى الحصول على الجنسية، التي ستجعل من أمر التحاق الزوجة بي مسألة وقت فقط.

في أول عطلة صيف لي بعد حصولي على الجنسية، عقدت قراني في الديار، ومع قرب التحاق زوجتي بي في أمريكا، انفصلت عن أصدقائي، حيث اكتريت لنفسي شقة مستقلة في مدينة "فاير فاكس" المتاخمة لأرلينغتون غرباً، فأصبح مطعم "جيريس" يبعد عني بأربعة عشر كيلومتراً.

الإستقلال عن الأصدقاء والإنفراد بتحمل جميع المصاريف التي كنّا نتعاون عليها من قبل نحن الخمسة مهلكة طبعاً للجيب، ورغم ذلك فالإستقلال عن هؤلاء له محاسنه التي تستحق كل تلك المصاريف الزائدة والناتجة عن هذا الانفصال، فقد اختفت الأوساخ من المطبخ والمرحاض، وأصبح كل شيء مرتب في كلا المكانين بعناية فائقة، وليس كالأمس في شقة العزّاب، حيث غدا المطبخ كالإسطبل تملؤه الأواني التي احترقت قاعدتها من كثرة نسيانها مرارا وتكرارا فوق النار، كما تتراكم الأزبال في زاوية المطبخ بقدر تكاسل كل منا على إخراجها، فمات حماس الهوس بالنظافة في نفوس البعض منّا بعدما قتله كثرة إهمال البعض الآخر لنظافة الشقة.

ومن دون مبالغة، فعندما يتسلم المهاجرون شققهم، فإنها تكون في حلة راقية وفي منتهى الأناقة، تماما كأناقة غرف الفنادق المصنفة، لكنها تتحول في بضعة أسابيع من السكن فيها بفعل الإهمال إلى مرتع للصراصير وبقّ الفراش، وإلى مكان تُزكَم فيه الأنوف من رائحة التبغ ودخان النرجيلة، حيث لا يحترم المدخنون من ساكني الشقة غير المدخنين ممن يقتسمون معهم السكن في نفس الشقة، أما الخمور، فمألوفة على مدار الساعة فوق المائدة وفي رفوف الثلاجة، تتحول الشقة على إثر ذلك إلى مجرد مكان يتخذه المهاجر للوقاية من حرّ الصيف وقرّ الشتاء، دون أن يكون له خيار آخر، كما تكون هذه الشقة كذلك مكاناً للاستراحة بعد عمل يوم شاق، وهذه الاستراحة قد تتحقق إذا كانت هذه الأخيرة خالية من أي أحد، وقد لا تتحقق إذا عجّت ببعض "العُشران" وأصدقائهم، يُرغم خلالها المهاجر المنهك بالنوم وسط الضجيج، أو الجلوس مع هؤلاء من باب المجاملة مع ما يعنيه ذلك من مراكمة الإنهاك على إنهاكه .

هدوء بيت الزوجية لم يدم إلا سنة وأربعة أشهر، ليتوّج زواجي مع قرينتي بمولود ذكر اخترت له من الأسماء اسم "أمناي"، وهو الاسم الذي اخترته حتى قبل الزواج بسنوات، كاسم أمازيغي يعني "فارس"، وهذا الإختيار لم يكن اعتباطيا، بل اخترته كاعتراف مني بالتقصير تجاه القضية الأمازيغية أيام الدراسة الجامعية، فمثّل هذا الاسم بالنسبة إلي جزءا من الدَّين الكبير الذي أدينه لهذه القضية. فمن هول التدجين الذي تعرضت له واستجبت له لقصور في الإدراك عبر مختلف أسلاك التعليم العمومي المغربي، جعلني لا أحمل الحماس نفسه الذي يحمله طلبة مكوّن الحركة الأمازيغية في كلية الحقوق بمكناس حيث كنت أتابع دراستي آنذاك، حتى وإن كنت لا أنكر تعاطفي مع هذا المكوّن، إلا أنّ رصيدي المعرفي لم يكن حينها محيطا بكل الجوانب التي تجعلني ملمّا بالمعرفة الشاملة لعدالة القضية الأمازيغية. فالتعليم العمومي المغربي الذي وُجد أصلا لصنع مواطنين بأدمغة على المقاس، نجح إلى حد بعيد في تدجين الأغلبية الساحقة من التلاميذ ليجعل منهم ضحايا إرهابه الفكري، والذين كنت واحدًا منهم. تعليم يُستغل فيه الدين أبشع استغلال، فعوض أن تكون الدولة في خدمة هذا الدين، أضحى العكس هو الصحيح، حيث تم تسخير الدين في خدمة الدولة.

انطلت عليّ الحيلة، فأصبحت أرى سمو اللغة العربية على كل اللغات والألسن حقيقة لا جدال فيها، فهي ركن من أركان الإسلام، خدمتها خدمة للدين، وتعلّمها تسهيل لمأمورية التواصل مع الله يوم الحشر، والتخلي عن اللغة الأم أياً كانت في سبيل اللغة العربية المقدسة، نوع من التضحية في سبيل الله. أما عن دخول الإسلام إلى شمال إفريقيا، فأصبحت الحقيقة اليقينية في تلك العملية هي أن الفاتحين تم استقبالهم بالحليب والتمر من طرف السكان

الأصليين لشمال إفريقيا، الذين دخل الإسلام في صفوفهم بين ليلة وضحاها دون إراقة قطرة دم!.

إن كل تلك المغالطات التي تعمّد النظام تلقينها للنشء في المدارس، لم تكن من أجل عيون الإسلام أو من أجل خدمة هذا الدين العظيم، بل كانت من أجل خدمة مشروع سياسي ليس الدين إلا وسيلة من وسائل تنفيذ هذا المشروع الذي اتخذ من اللغة العربية والإسلام ذريعة لتغيير جلباب الهوية الأمازيغية للمغرب، حيث عمل النظام منذ عقود، على الدمج القسري وعلى مراحل لمختلف مكونات المجتمع المغربي تحت راية "العروبة والإسلام"، والإسلام هنا استُعمل طبعا كوسيلة وليس كغاية لإعطاء الانطباع بعروبة هذا البلد، كما اعتمد هذا المشروع على سياسة التعريب، بدءاً من تزوير التاريخ في الاتجاه الذي يخدم هذه السياسة، مروراً بالعمل على إقصاء الأمازيغية من المشهد العمومي، ومن المدارس، وبالموازاة مع ذلك، فقد تم اختطاف واغتيال رموز الحركة الأمازيغية، وكانت آخر خطوات هذه السياسة الإقصائية هي منع الآباء من تسمية مواليدهم الجدد بأسماء أمازيغية !حيث قامت وزارة الداخلية سنة 2006 بإصدار مذكرة تم تعميمها على مختلف مكاتب الحالة المدنية داخل الوطن وخارجه، حددت بموجبها الأسماء الممنوعة من التسجيل للمواليد الجدد، وكلها أسماء أمازيغية أصيلة، ما يزكي اتجاه الدولة للقضاء على ما يمت بصلة إلى أمازيغية المغرب، جرياً على عادتها في الدمج القسري لمختلف مكونات المجتمع المغربي، وإلا فبماذا نفسر منع تسجيل المواليد الجدد بالاسم الأمازيغي الذي دأب الأجداد على تسمية مواليدهم به منذ زمن لم تنشأ فيه الدولة بمفهومها الجديد أو القديم في المغرب، وقبول التسجيل بأسماء مشرقية ومكسيكية؟؟!

الصبر في أول الأمر على هذا التيار المعادي للهوية الأمازيغية الذي يسعى لإستأصالها مقابل إحلال هوية مصطنعة مكانها، كان مردّه إلى نقص الوعي بالقضية الأمازيغية لدى شريحة واسعة من الأمازيغ أنفسهم، والذين إستجابوا دون وعيهم لعملية التدجين التي خضعوا لها عن طريق مسلسل التعليم، أو وسائل الإعلام للدولة المغربية. أما الواعون للقضية على قلتهم، فلم تتوفر لهم بعد الإمكانيات لمجابهة التيار المعادي لقضيتهم، كما تعرضوا للقمع على يد هذا التيار ما جعلهم يكتفون بالدفاع الحذر عن قضيتهم العادلة في انتظار تنامي الوعي بها لدى باقي مكونات المجتمع المغربي الأمازيغي في أغلبيته الساحقة، والذين يختلف ولاؤهم للقضية الأمازيغية باختلاف إلمامهم بأبعاد هذه القضية. وليس من عدوّ للقضية الأمازيغية أكثر عداءً لها من أبنائها الذين يحاربونها.

لقد أتيحت لي منذ وصولي إلى أمريكا فرصة الإبحار في الشبكة العنكبوتية في أي وقت أشاء، وهي فرصة قمت باستغلالها للإطلاع على مجموعة من الكتب، خصوصاً النادرة منها والممنوعة في المغرب، أو حتى الموجودة لكنه حالت بيني وبينها في الديار أثمنتها المرتفعة، حيث وفرت لي هذه الشبكة جميع المراجع والكتب بالمجان، فبدأت أنهل منها كلما سنحت لي الفرصة بذلك، خصوصاً بعدما خمد حماسي للدخول إلى غرف الدردشة، فغيرت الروتين بتحميل الكتب وقراءتها. وعلى إثر ذلك، بدأت تسقط تباعاً كل أساطير المدرسة المغربية التي اعتبرتها مسلمات لا تحتاج للطعن في مصداقيتها، كما بدأت أعي حجم التزوير والتدليس اللذين طالا التاريخ المغربي، والذي اكتشفته بين ثنايا الكتب نفسها التي اعتمدها النظام المغربي في إعداد المقررات الدراسية، حيث بمجرد الوصول إلى هذه المراجع يتم اكتشاف حجم

التصرف الذي تم في النصوص، ومكر الانتقائية في اختيار نص دون غيره، رغم وجود النصين بين صفحات كتاب واحد وربما في صفحة واحدة. كما بدأت أعي حجم الجرم الذي ارتُكب في حق الأمازيغية كأرض، كإنسان وكهوية، كما أكتشف أيضا حجم الحيلة التي انطلت عليّ لسنين، فبدأت على إثر هذا الإكتشاف أرفع القبعة لكل طلبة المكوّن الأمازيغي الذين عاصرتهم عندما كنت طالباً في كلية الحقوق بمكناس، كما أرفعها لكل المناضلين الذين دافعوا باستماتة وحسن النية عن هذه القضية، اعترافا مني بيقظتهم ووعيهم بقضية مارس عليها النظام حصاراً مشدّداً ويقاوم أي توجه يخالف مسار سياسته وتوجهاته. ومع وعيي المتأخر هذا، فقد قررت أن أسمي أول أبنائي "أمناي" إن كان ذكراً، و"تيفاوت" إن كانت أنثى، كجزء صغير من الدَّين الكبير الذي أدينه لتلك القضية، وكنوع من كفّارة التقصير تجاهها سنين خلت. ورغم كل هذا الشعور بالذنب الذي أحسّ به، أجد نفسي على الأقل أحسن ممّن دافع عن هذه القضية سنين، فلما نال الوظيفة وتحسن وضعه المادي تخلى عنها، وهذه العينة من مناضلي المبادئ الهشة، لا يخجلون عند أي مناسبة في الإشارة إلى "نضالهم" السابق في سبيل القضية الأمازيغية ! كأن النضال في سبيلها متوقف على نيل وظيفة أو وصول إلى مستوى معين، ولذلك، فأنا فخور جداً لأنني أفضل من هذه العينة من المناضلين، فلا يستوي المرتد والتائب ولو خدم المرتد القضية عقودًا قبل أن يتخلى عنها، ولم يبق بين التائب والموت إلاّ لحظات.

ازداد مولودي الأول إذن في النصف الثاني من الشهر الثاني لسنة2011، فاخترت له من الأسماء كما نذرت اسم "أمناي"، ومعلوم أن الإجراءات الإدارية لتسجيل المواليد الجدد في أمريكا، هي كغيرها من الإجراءات الإدارية الأخرى التي لا تخضع في مجملها لمساطر معقدة،

حيث قمت في اليوم الموالي للولادة بتقديم طلب تسجيل ابني لاستخلاص عقد الازدياد بالملحقة التابعة للبلدية في المستشفى. فبمجرد أن سألتني الموظفة عن الاسم الذي اخترته لابني فأجبتها باسم غريب عليها، لم تتردد في وضع لوحة مفاتيح حاسوبها بين يدي لأكتب الاسم بنفسي، لتقوم بعد ذلك بطبع بعض الأوراق التي سلمتها لي ونصحتني أن أرسلها بعد تعبئتها إلى المكتب الرئيس ب"ريشموند" عاصمة فرجينيا، على أن يرسل لي هذا المكتب مقابلها نسخة من عقد ازدياد مولودي عبر البريد.

حان الوقت لتسجيل ابني في مكتب الحالة المدنية بالقنصلية المغربية في واشنطن، وقد كانت كل المؤشرات تدل على أنني سأجد صعوبة في هذا التسجيل، لأن اسم ابني اسم أمازيغي، وللدولة المغربية في شخص موظفيها في القنصلية لديهم حساسية تجاه هذه العينة من الأسماء، حيث لم يمر وقت طويل على ميلاد الطفل "سيفاو"، ابن قريبي "عبد الصمد"، والذي رفضت هذه القنصلية تسجيله، بدعوى أن الاسم يوجد ضمن مذكرة الأسماء الممنوعة لدى مكتب الحالة المدنية للقنصلية، حيث ابتدأت حكايته يوم تقدم لتسجيل اِبنه بمقر هذه القنصلية في واشنطن، علماً أن مسطرة التسجيل تتم بعد ملء استمارة الطلب، بتسجيل الاسم في دفتر الحالة المدنية، ليرسل هذا الدفتر إلى المغرب للمصادقة عليه، وليتم من جديد إعادة إرساله إلى القنصلية، فيسلم لصاحبه في عملية تتم عادة في أجل أقصاه ثلاثة أسابيع، إلا أن موظف الحالة المدنية في حالة الاسم "سيفاو" قد أبدى تحفظاً على تسجيل هذا الاسم، وعلى إثر هذا التحفظ، طُلب من المعني بالأمر العودة إلى منزله إلى حين الاتصال به، وهو ما تم .إلا أن انتظار الاتصال طال أكثر من شهرين، عُلّق على إثرها طلب تسجيل هذا

الاسم، بعدها فوجئ "عبد الصمد" والد الطفل "سيفاو" برسالة صوتية على هاتفه من القنصلية تخبره بقرار رفض تسجيل اسم ابنه.!

لم يستسلم المعني بالأمر أمام هذا القرار الجائر، بل توجه مباشرة في اليوم التالي إلى مقر القنصلية للإستفسار، وهناك أخبره موظف الحالة المدنية بقرار الرفض معلّلا قراره بكون المغرب دولة عربية إسلامية ولا تقبل الأسماء خارج نطاق الأسماء العربية والإسلامية ! وذلك استنادا إلى مذكرة 2006 المعمّمة من طرف وزارة الخارجية على مختلف القنصليات المغربية المعتمدة في الخارج، والتي بمقتضاها تم تحديد الأسماء ممنوعة التسجيل في سجلات الحالة المدنية في المغرب، ومن بينها طبعاً الاسم "سيفاو"، وأمام هذا التعامل العنصري مع الأسماء المغربية الأصيلة، فقد أصرّ عبد الصمد على تسجيل ابنه بالاسم الذي اختاره له، كما أصرّ على رفض تبريرات موظف الحالة المدنية، واضعاً أمامه مجموعة من الوثائق التي أحضرها معه، والتي تنتصر لوجهة نظره، أولها نسخة من المذكرة الصادرة عن وزارة الداخلية تحت رقم "D-3220" بتاريخ 9 أبريل 2010 التي نسخت المذكرة التي برّر بها موظف الحالة المدنية رفضه لتسجيل الاسم، والتي تنص صراحة على أن الاسم المغربي هو من توفرت فيه واحدة من الشروط الخمسة، ويشير الشرط الثالث من هذه الشروط إلى الأسماء الأمازيغية التي يختلف معناها من منطقة إلى أخرى، كما تضمنت الوثائق نسخة من تقرير منظمة حقوق الإنسان حول رفع الحظر عن الأسماء الأمازيغية في المغرب، وأخيرا نسخة من قرار المحكمة الإدارية في مكناس المؤرخة ب 5 فبراير 2009 لصالح الأب "بوجاوي" والد أول طفل يصل إلى ردهات المحاكم بعد مذكرة الحظر بسبب الاسم "سيفاو".

بعد مواجهة الموظف بهذه الوثائق، قرر الاحتفاظ من جديد بالحالة المدنية للمشتكي إلى حين مراسلة وزارة الخارجية في المغرب للاستشارة معها بخصوص هذه المستجدات، إلا أن هذا التلكّؤ في تسجيل الاسم، جعل "عبد الصمد" يغير وجهته من جديد نحو السفارة للاحتجاج على القرار الجائر لموظف الحالة المدنية في القنصلية، حيث عرض قضيته على أحد موظفي السفارة، هذا الأخير أبدى بعض الإهتمام بالقضية، إلا أن اتصاله بالقنصلية أعاد القضية من جديد إلى نقطة الصفر:

- ماعندي ماندير ليك خاصك تسنّا الجواب من لهيه!!

لتمرّ أربعة أشهر دون تسجيل هذا الاسم، بقيت على إثرها الوضعية القانونية المترتبة عن تسجيل اسم المولود "سيفاو" عالقة بصفته مواطنا مغربياً، في الوقت الذي تمت فيه تسوية هذه الوضعية كمواطن أمريكي بمجرد ميلاده، والهوة سحيقة بين الحالتين، ف"سيفاو" الذي يحمل الجنسية الأصلية كمواطن أمريكي لكونه ازداد فوق تراب هذه الدولة، يملك حق الترشح حتى لمنصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، في الوقت الذي يتعذر عليه مع عدم تسجيل اسمه كمواطن مغربي، الإدلاء بصوته في مجرد انتخابات جماعية في المغرب.

إن هذا الرفض في تسجيل الاسم "سيفاو" أمام وجود مذكرة رفع الحظر عن الأسماء الممنوعة يجعلنا نتساءل حول مدى جدية وزارة الخارجية في تعميم وإلزام مختلف القنصليات بمقتضياته مذكرة 2010، حيث يتضح أنها لم تتعامل مع هذه المذكرة بنفس الجدية التي تعاملت بها مع مذكرة المنع لسنة 2006، كما يحق لنا أن نتساءل كذلك حول ما إذا كان رفض تسجيل الأسماء الأمازيغية، أو حتى التماطل في تسجيلها هو نوع من التاكتيك الذي

يعتمده موظفو القنصلية عمداً من أجل خلق اليأس في نفوس الآباء الآمازيغ، ممّا يجعلهم يضطرون إلى تغيير الاسم وفق هوى هؤلاء الموظفين.

بعد محاولة موظفي القنصلية المغربية في واشنطن القيام بإجهاض حق الأب "عبد الصمد" في اختيار الاسم الذي يراه مناسبا لابنه، قرر أبناء منطقة الجنوب الشرقي للمغرب المهاجرون بمنطقة واشنطن، والذين يفوق عددهم مئة بكثير وأغلبهم نشطاء في الحركة الأمازيغية التضامن مع "عبد الصمد" وذلك لإرغام القنصلية على تسجيل الاسم الذي اختاره لإبنه، فتم التصميم على القيام بوقفة أمام مبنى السفارة كنوع من الاحتجاج على رفض تسجيل اسم ذنبه الوحيد أنه اسم أمازيغي. إلا أن القنصلية المغربية استبقت الحدث، فاتصلت بعبد الصمد تعلمه أن ابنه قد تم تسجيله، وما عليه إلا الحضور لتسلّم دفتر الحالة المدنية، ليسدل الستار على قضية تسجيل اسم عمرت قرابة خمسة أشهر، بمعدل شهر واحد عن كل حرف من حروف الاسم "سيفاو" ! لتبدأ بعدها مباشرة معركة محاولة تسجيل إبني "أمناي" في نفس القنصلية، حيث تقدمت كما تقتضي الإجراءات بطلب هذا التسجيل بعين المكان، فلما أراد موظف الحالة المدنية تطبيق نفس السيناريو الذي أخضع له "عبد الصمد" عندما تقدم لتسجيل ابنه، اعترضت عليه هذا الشطط، فطلبت منه أن يطبق نفس المسطرة العادية لتسجيل أي اسم، فبدأ يتحدث معي كأي موظف مغربي مريض بحب السلطة والتسلط على غيره من عباد الله، ثم فتح أمامه مذكرة الأسماء الممنوعة متجاهلاً حديثي معه، فبدأ يبحث في القائمة عن الاسم "أمناي"، ما أتاح لي الفرصة لأتلصص على فحوى تلك اللاّئحة، والتي لم تكن إلا قائمة بأسماء أمازيغية عريقة مثل "أملاّل، سيفاو، أريناس، تافويت، تيثريت.... "

وهي أسماء مألوفة منذ القدم لدى السكان الأصليين للمغرب، ما يوحي بأن نية من يقف وراء سنّ هذه المذكرة هي طمس الهوية الأمازيغية للمغرب.

العقلية نفسها التي كانت وراء وضع هذه المذكرة هي نسخة طبق الأصل لعقلية هذا الموظف الجالس معي والمكلف واحسرتاه بخدمة أفراد الجالية المغربية في واشنطن، إذ بمجرد اكتشافه لخلوّ المذكرة من الاسم "أمناي" طلب مني الانصراف إلى حين مراسلة وزارة الخارجية في المغرب، لأن سقوط الاسم من اللائحة في اعتقاده مرده إلى سهو واضعها، خصوصاً وأنه اسم ذو معنى أمازيغي، لهذا قد يكون خمّن لهذا السهو. وقبل أن أنصرف، فقد سألني هذا الموظف عن معنى هذا الاسم، فقلت له أن معناه "فارس" ليسألني بكل وقاحة:

- علاش ماتسميهش "فارس" أوتهنّا أوتهنينا معاك؟!

- هاداك ولدي نسميه كيما بغيت، نتا سمّي ولدك "أبو العتاهية" أُولاّ ݣاع "كليلة ودمنة!! "

ازدادت بيننا حدة الشد والجذب بعدما أخبرته أن الاسم سيسجل شاء أم أبى، حينها تدخل موظف الاستقبالات على وقع ضجيجنا فألحّ علي بالمغادرة ريثما يتم الاتصال بي لإخباري بجديد القضية.

بعد أسبوعين فقط ذلك اتصل بي موظف الاستقبالات ليخبرني بجاهزية دفتر الحالة المدنية، وبضرورة الحضور في أي وقت من أوقات عمل القنصلية لسحب هذا الدفتر.

جدير بالذكر أن عرقلة تسجيل الاسمين "سيفاو" و "أمناي" قد تزامن مع عرقلة تسجيل مجموعة من الأسماء الأمازيغية داخل الوطن وخارجه في كل من فرنسا بلجيكا وإسبانيا، وتجدر الإشارة إلى أن تسجيل هذين الاسمين لم يكن ليتم لولا تزامن ميلادهما مع تداعيات ما يسمى بالربيع "العربي" الذي جعل كل الأنظمة العربية وشمال إفريقية تراقب الوضع المضطرب في كل من تونس ومصر واليمن، وتتوجّس خوفاً من شعوبها، فتم في المغرب إصدار تعليمات فوقية ترغم الموظفين على التخلي عن فرعونيتهم في تعاملهم مع المواطنين، والاستجابة لمطالبهم في أقصى سرعة، وحجتنا على أن القنصلية قامت بتسجيل الاسمين مكرهة، هو رفضها من قبل تسجيل الاسمين "إيطو" و"باسّو" توأمي "ختوش إسماعيل" المهاجر الصديق المنحدر من مدينة گلميمة، وتم هذا الرفض تحت التهديد وبكلام جارح، خمس سنوات قبل صدور مذكرة منع تسجيل الأسماء الأمازيغية، حيث بقي دفتر الحالة المدنية للتوأمين فارغاً إلى حد الآن، في الوقت الذي يتابعان فيه دراستهما في إحدى الإعداديات بفيرجينيا

بعد ميلاد إبني "أمناي" بسنتين رزقت بمولود جديد اختارت له والدتي التي أتت من المغرب لزيارتي في أرلينغتون اسم "داوود"، لم أتردد حينها في الذهاب من جديد لتسجيله بالقنصلية، وهناك اكتشفت التغيير الذي مسّ تعامل الموظفين مع المهاجرين، حيث أصبحوا أكثر لباقة وأكثر سرعة في قضاء أغراض هؤلاء المهاجرين، فبمجرد أن سلّمت موظف الاستقبالات دفتر الحالة المدنية وطلب التسجيل، طلب مني الانتظار لبضعة أسابيع ريثما يتصل بي للعودة لتسلم الدفتر، وقد اغتنمت الفرصة قبل الانصراف لحال سبيلي، فطلبت منه مقابلة موظف الحالة المدنية لأتأكد من عمله وفق مقتضيات مذكرة 2010 أم أنه مازال وفيا لسبات أهل الكهف:

بغيت عافاك نتكلم مع مول الموسطاش !!.

– مابقاش!

– فين مشا ؟!.

– مات الله إرحمو مسكين!!!.

– الله إرحمو مالو مسكين ؟؟.

– مات فكصيدة الله إنجينا وينجيك.

منّ الله عليّ إذن بولدين، فنِلت بفضلهما حظي من نعمة الأبوّة، هذه الأبوّة في أمريكا ليست بنفس تفاصيلها في الديار، فمعنى أن تكون أباً في أمريكا، هو أن تكون أباً بما تحمله هذه الكلمة من معنى، وتكون في الوقت نفسه نصف الأم، وهكذا قد كنت، فصغر مساحة الشقق في أمريكا وإكراهات عمل الزوجة جعلاني أعيش بالقرب من أبنائي، أعتني بهم كأي أمّ، أنظفهم وأغير حفاضاتهم، كما أستيقظ ليلاً على بكاء أحدهم لإطعامه، أو أسهر معه في انتظار عودته للنوم من جديد عندما يرفض أي شيء يعطى له، كما أصبحت ملزماً بالمحافظة على مواعيدهم مع الطبيب، أو حتى اصطحابهم إلى هذا الطبيب من دون موعد مسبق بعد ظهور بوادر وعكة صحية في أحدهما ولو بسيطة، والحقيقة أن الإهتمام بطفل واحد شيء شاقّ، وبطفلين أكثر مشقة إلى حد لايطاق.

العيش جنباً إلى جنب ولديّ منذ ولادتهما، جعلني أكون مُلمًّا بمختلف مراحل نموهما ونمو أي طفل صغير آخر، إلى درجة أنني عندما ألتقي طفلا صغيراً في الشارع بصحبة والديه أو عند أية عائلة كُلفت بتوصيل طلبها من المطعم، أخبر والديه تخميناً بعمر ابنهما الذي أصيبه

تقريباً ما لم يكن هذا الطفل معتلّ الغدة الدرقية يعاني على إثرها خللاً هرمونيا يعيق نموه بصفة طبيعية.

إن أمر العناية بالأطفال مناوبة مع زوجتي، جعلني أدرك حق الأم في الديار وحجم المسؤولية الملقاة على عاتقها، كما أدركت حجم الصبر الذي تتكبده في سبيل العناية بجيش من الأطفال، فعنايتي بطفلي "أمناي" لوحده قبل ميلاد "داوود" جعلني أقف إجلالا لكل أم أنجبت عدة أطفال، سواء في الديار أو في أية رقعة على الأرض، فإذا كان الأب في أمريكا ملزمًا بإرادته وبغيرها أن يكون أبا ونصف الأم في آن، فإن الأم في الديار تلعب دورها الأصلي كأمّ، وفي الوقت نفسه تتقمص دور الأب كتعويض للأبناء عن غياب أي دور لهذا الأب في رعاية أبنائه، فمجرد زواج الرجل في الديار يبدأ في عملية الإنجاب على طريقة الأرانب، تتحمل الأم لوحدها وزر العناية بكل مولود جديد يُضاف إلى جيش الأبناء الآخرين، وتكون هذه الأم حريصة على تربية أبنائها بعطفها وحنانها وحريصة على توزيع هذا العطف وهذا الحنان عليهم بالتساوي دون مفاضلة أحدهم على الآخر. بينما الأب وفي خضم خوضه لمعركة الإنجاب، فهو يتألم لكل مولود أنثى، ويفرح لكل مولود ذكر، وإذا حدث وتوقف عن الإنجاب، فهذا لا يعني بالضرورة أنه اكتفى من الأولاد، بل هذا التوقف هو توقف اضطراري أملاه وصول الزوجة إلى سن الضهى أو اليأس، حيث يتقاعد المبيضان ويبخلان عن إنتاج المزيد من الأمشاج. ولكثرة البنون، لا يحفظ الأب أسماءهم، كما لا يستطيع ترتيبهم حسب أعمارهم، فهم أولاده لكن مع وقف التنفيذ، أنجبهم لظروف اقتصادية جعلت منهم مشروعاً استثماريا لمستقبله، يصرف عليهم بشحّ وهم صغار، ويرغمهم على التكفل بمصاريفهم حتى قبل أن يستقيم عودهم بالدفع بهم للعمل في أوراش البناء

ليتخلص من ثقل مصاريف مستلزمات دراستهم على الأقل، وعندما يدخل البعض منهم إلى سوق العمل بعد نهاية مشوارهم الدراسي ويتيه البعض الآخر، يبدأ الأب في اتخاذ قرار الفرز بين من هو ابنه ومن هو غير ذلك، فيبدأ بتوزيع أوسمة الرضى وعلامات السخط على أبنائه، فمن عمل منهم على إكرام جيبه بالمال وبصفة دوريه، فأولئك هم أبناؤه البررة، وأما من بخل فأبوه بريء منه "مسخوط عليه وملعون"، ليس إلى يوم الدين، بل إلى حين، حيث تتغير صفات الأبناء بتقلب الأزمان، فقد يفقد الابن البار عمله ويتوقف عن مساعدة والده مكرها فيتحول من إبن بارّ إلى إبن مسخوط، لا تشفع له سنوات بل عقود السخاء اتجاه والده ! فالمحدد إذن لصفتي السخط والرضا بالنسبة إلى الأب هو وفقط السخاء اتجاه جيبه.

الأبوة كما سبق وقلت تختلف بين أمريكا والمغرب، هذا الاختلاف طبعا هو نتيجة لاختلاف ظروف المكانين، فلو قدر لي أن أكون أباً في الديار، فمحتمل بنسبة نصف المئة في المئة أن أكون نسخة كربونية لبقية الآباء المغاربة ذوو مجلدات الحالة المدنية وليس دفاترها، لكن أن يكون الأب المغربي وفياً لعادته في الإنجاب على طريقة الأرانب لو قدر له العيش في أمريكا، فذاك أمر مستحيل تفرضه عليه الوضعية المختلفة التي سيعيش على إيقاعها في أمريكا، والتي سترغمه على الإلمام بكل أنواع موانع الحمل وميكانيزمات عملها، كما سينهل من كتب علم الحياة للتزود بخبايا الدورة الشهرية للمرأة كما لو أنه معني بها وسيحيض بعد كل دورة، وهذا كله من أجل تفادي مولود هو في غنى عنه.

"أمناي" و"داوود" اثنين فقط وفي مقتبل العمر، والطريق طويل أمامهما ليستقيم عودهما، جعلاني أقف احتراما وإجلالا وتعظيماً لكل أم على وجه الأرض لمشقة تربية ابن واحد فما

بال تربية العديد منهم؟. لقد أحسست بعظمة مسؤولية الام منذ كان طفلاي في أشهرهما الأولى، حينها كنت أظن أن صراخهما الليلي وقضاء حاجتهما دون سابق إنذار سيتوقف بعد أشهر أو حتى سنة وبضعة أشهر، لكن المشكلة أن توقفهما عن إتيان ما أسميه مشكلة، يبدأ معه نشوء مشكلات أخرى لم تكن في الحسبان، بشكل يجعلني أرغم على الانتباه إليهما في كل لحظة ولا مجال فيها حتى للنوم الخفيف، وعندما يصلان إلى عمر يستطيعان التواصل فيه معي ويتخلصان من الحفاضات في النهار، يتحولان إلى إخوة أعداء يطيب لهما النزاع يوميا حول شيء بسيط، ولا يتوقف صراعهما حتى يخلدا إلى النوم، ويبقى اصطحابهما إلى أحد المتاجر الكبرى مغامرة مكتملة الأوصاف، تبتدئ بصراخهما لمجرد رؤية لعبة يحبانها، ولا يتوقفان عن هذا الصراخ حتى أقوم بشراء زوج منها لكل لعبته!.

ولوج الطفل إلى المدرسة هو نوع من التكليف الجديد لأبويه، خصوصاً إذا سُجّل في أحد المدارس البعيدة عن المنزل، وبطبيعة الحال فهناك أمل يفوق التسعين في المئة ليستفيد من النقل المدرسي، ودخول الطفل إلى المدرسة لا يعني بالضرورة أن أبويه قد تخلّصا من مشكلاته إلى حين عودته من المدرسة إلى المنزل، حيث من المحتمل جداً وفي أي وقت أن تتصل إدارة المدرسة بأحد والديه، ربما للحضور بشكل مستعجل إلى المدرسة للبث في مشكل أثاره الابن، يترك على إثرها المكلف بالحضور عمله مضطرا ليحضر إلى المدرسة حيث قد يكتشف أن استدعاءه تم لشيء تافه.

يحكي أحد معارفي كيف تم استدعاءه إلى المدرسة لمشكل أثاره ابنه، فترك عمله على حين غرة، فماذا كان المشكل يا ترى بعدما وصل إلى تلك المدرسة حيث يدرس ابنه ؟ لقد

كان هذا الابن المسكين خجولاً جدا لا يستطيع أن يمس بسوء طائرا يافعاً سقط من عشه، وقد حدث أن وقف هذا المسكين وسط زملائه في ساحة المدرسة وهم يلعبون، ثم فجأة تعثر، وحتى يخفف من وطئ سقوطه على الأرض، فقد حاول الإمساك بأحد زملائه من سرواله، سقط على إثرها سروال هذا الطفل فظهرت عورته أو بعض منها لتتجه أنظار كل الأطفال الحاضرين في عين المكان إلى الطفل المتعثر المسكين بريبة، بكى على إثرها الطفل المنزوع سرواله من دون تعمّد، فتم استدعاء الأب لإخباره بقرار إدارة المدرسة:

-لقد تحرّش ابنك بزميل له في الفصل، وتكرار الفعل معناه أننا سنكون مجبرين أن نخبرك بضرورة البحث لابنك عن مدرسة أخرى ! إنها المشكلات تأتي من حيث لا يدري الوالدان، و حتى أتفه الأشياء أصبحت بقدرة قادر مشكلات في هذا البلد.

* * * * *

نظراً للحرمان الذي عشته في طفولتي، فإنني أعمل كل ما بوسعي لإرضاء رغبات ولديّ ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، فالعمل بمطعم جيريس يدرّ عليّ ما يكفي لأواجه إكراهات الحياة على جبهاتها الثلاث بالإضافة إلى جبهة رابعة مستجدة متمثلة في كوني أباً لطفلين تزداد مطالبهما بقدر نموهما ونمو إدراكهما لما حولهما. إلا أن المصاريف قد تصل أحياناً مستويات غير متوقعة، لهذا قررت أن أدخل مغامرة نصحني بها أحد الأصدقاء وهي الانضمام للعمل كسائق تاكسي في" أوبر" كعمل إضافي، والتي من مزاياها إتاحة العمل لي في أي وقت أشاء وكذا الحرية في عمل عدد غير محدود من الساعات. فشركة "أوبر" هي شركة ناجحة متخصصة في تقديم خدمة "التاكسي" للأفراد داخل المجال الحضري، تأسست على

يد الأمريكيين "ترافيس كلانيك" و"غاريت كامب" بسان فرانسيسكو مارس 2009 وهو التاريخ نفسه الذي بدأت من خلاله العمل بنفس المدينة، وقد تم تأسيسها أول الأمر برأسمال قدر ب 11,5 مليون دولار ليتضاعف هذا الرقم عشرات المرات في خمس سنوات حيث وصل في غشت 2014 إلى مليار ونصف المليار دولار ما يعكس نجاح هذه الشركة وثقة المستثمرين فيها حيث توسعت في مختلف المدن الأمريكة ثم العالمية، وتعتبر "باريس" أول مدينة خارج أمريكا التي تعتمد هذه الخدمة، وقد كانت الشركة في أول الأمر تعتمد على خواص يقدمون خدمة توصيل الأفراد بالسيارات الفاخرة تحت اسمي "ليموزين أوبر" و"بلاك أوبر" المملوكة لهؤلاء الخواص، إلا أن انتقالها للعمل بالسيارات الصغيرة الإقتصادية في البنزين تحت اسم خدمة "أوبر إكس" والتي يمتلكها الخواص كذلك جعل هذه الشركات تتعرض لمقاومة شرسة من طرف أرباب ونقابات السيارات الكلاسيكية، بدعوى أن الخواص الذين يعملون لصالح الشركة لا يدفعون نفس ما يدفعه سائقو سيارات التاكسي الكلاسيكية من واجب الرخصة والتأمين المرتفعين، جعل الشركة تدخل في معارك قانونية مع هذه النقابات في مختلف المدن الأمريكية والعالمية، انتصرت الشركة في بعض منها وعلقت قضايا أخرى فيما تم إلغاء الخدمة في "مدريد" بعد أن انتصرت المحكمة لأرباب التاكسي الكلاسيكي، ورغم تلك الصعوبات فإن الشركة استطاعت غزو اكثر من مئة مدينة عملاقة في مختلف أنحاء العالم وهي في تزايد مستمر حيث يتجاوز عدد سائقي الشركة في منطقة "واشنطن، فرجينيا، ماريلاند" عدة الآف، بينما زبناءها في نفس المنطقة يتجاوز عددهم المليون منخرط في دجنبر 2014.

لا تشترط هذه الشركة في الخواص للعمل لديها كسائقين سوى امتلاكهم سيارة نظيفة لا يفوق عمرها سنوات، بالإضافة إلى حسن السيرة التي يجب أن تتوفر في السائق، ولذلك فقد قررت الانضمام للعمل في هذه الشركة بعد طول تفكير، فاقتنيت سيارة جديدة من نوع "تويوتا كورولا" لأعمل بها بشكل مزدوج، كسائق توصيل طلبات مطعم "جيريس" وكسائق تاكسي، وبهذا أكون قد تخلصت من سيارتي القديمة التي جعلتني أربط صداقة متينة مع الميكانيكي الذي يصلحها دورياً وعلى فترات جد متقاربة، صداقة جعلتني أتردد على هذا الميكانيكي أكثر من ترددي على زيارة أبناء بلدتي في هذه المدينة حيث يسكن كل منا بالقرب من الآخر.

ومن الطرائف التي سمعتها عن بعض سائقي شركة "أوبر بالمنطقة" تلك المتعلقة بمهاجر مغربي يعمل ضمن الشركة نفسها كسائق في منطقة "واشنطن فرجينيا"، حيث قاده حظه البائس يوما إلى إركاب زبون أمريكي في سيارته ليوصله إلى مقر عمله، فما أن ولج هذا الزبون السيارة، حتى بدأ يتحرش جنسيا بسائقها، وهذا ما يفسر إعطاء هذا الزبون للسائق عنواناً مغلوطاً وبعيداً جداً رغبة منه في استهلاك الوقت لاستدراج هذا السائق الذي صدمه طلب هذا الزبون الشاذ، فأخذ يصده ويحاول إقناعه أنه ليس شاذا وبأنه متزوج وله أبناء، في حين بدأ الراكب يستعطفه استعطاف المريض المحتاج لعملية مستعجلة للطبيب الذي يبتز هذا المريض ! ولم تفلح حيل الزبون في إقناع السائق بإغرائه بالمال و بطمأنته بأنه سيعطيه تقييماً جيدا لدى شركة "أوبر" كسائق محترف، فبعدما فقد الزبون كل الأمل في الوصول إلى مرامه، قرر الانتقام من السائق المسكين فمنحه أقل نقطة في تقييم الخدمة، وترك بالإضافة إلى ذلك رسالة مكتوبة للشركة يحتج فيها على رداءة خدمة السائق ! وما كان على الشركة

سوى معاقبة السائق بقطع الخدمة الإلكترونية عن هاتفه النقال، لإرغامه على الحضور لمقرها لشرح الموقف لها قبل أن يعود إلى العمل في حالة تأكدت الشركة من براءته.

عندما وصل السائق إلى مقر الشركة في قلب العاصمة واشنطن، وجد كالمعتاد طابوراً مكونا من أصحاب الطلبات الجدد للعمل في الشركة نفسها، وكذا من سائقين آخرين قطعت عنهم الشركة خدمتها الإلكترونية لأخطاء ارتكبوها، فحضروا للدفاع عن انفسهم، وصديقنا السائق التقى في هذا الطابور بأحد أصدقائه، فشرح له سبب قطع الخدمة عنه، فقص عليه قصته مع الشاذ المِلحاح، فأجابه صديقه هذا بسخرية:

-عندهوم الحق اقطعولك السربيس راه الكليان هداك خصك تديرليه خاطرو!

هذه الواقعة هي التي جعلتني أتردد في تقديمي لطلب العمل مع هذه الشركة، مخافة أن أسقط يوما في الموقف نفسه ويكون أكثر درامية، بحيث يملك الزبون الشّاذ سلاحاً نارياً، فأكون حينها مجبراً على لإختيار بين اللّواط أو الرّصاص، وعين الجنون في اختيار الرصاص، لأنّ الشروع في إطلاقه يمر عبر طريق اللّواط أولاً.!!

وفي الحقيقة فهناك عدة حوادث تقع لسائقي التاكسي في منطقة "فرجينيا واشنطن" ككل بقاع العالم، وأكثرها حدوثاً هي إشهار السلاح الأبيض أو الناري في وجه السائق لإرغامه على تسليم كل ما يملك من نقود سائلة للزبون اللص. أما في ما يخص سيارات الأجرة التابعة لشركة "أوبر"، فوارد أن تقع محاولة استدراج السائق لممارسة الشذوذ الجنسي، لكن سرقة الزبون للسائق في هذه الشركة يبقى أمراً مستبعداً، لأن الزبناء في هذه الشركة لا يدفعون نقداً للسائق، بل يتم الخصم الكترونياً من حسابهم البنكي من طرف الشركة والتي

تقوم بدورها بضخ عمولة السائق في حسابه الشخصي، كما أن كل زبون ولج السيارة، تكون معلوماته متاحة للشركة كما للسائق، والرجوع إلى كل رحلة قام بها لدى سيارة هذه الشركة يمكن معرفة حتى مسارها من نقطة ركوبه حتى نقطة وصوله ! وهي كلها ضمانات شجعتني على العمل لدى هذه الشركة ست ساعات في الأسبوع، مقسمة على صباحي السبت والأحد حيث يكثر الزبناء الراغبون في الذهاب إلى مطارات المنطقة، وقد مكنتني النقود التي أجنيها من تلك الساعات على قلتها من تغطية أقساط شراء السيارة الجديدة وكذا أقساط تأمينها وكلفة تزويدها بالبنزين!. ولا تخلوا هذه المهنة من طرائف بيني وبين بعض الزبائن. ففي صباح ذات يوم، أيقظني ابني "أمناي" من النوم لأنه عطشان يريد ماءً، كما يريد مني أن أعطيه جهاز "الآي باد" ليعبث به كما يفعل كل صباح قبل الشروق، وما أن أعطيته كأس ماء وسلمته الجهاز حتى طار النوم من جفني، فصعبت علي العودة النوم من جديد، فقررت استغلال الفرصة بالخروج لأعمل ساعة أو ساعتين كسائق طاكسي إلى حين إحساسي بالنوم من جديد، فخرجت وأنا أمني النفس في زبون يريد الذهاب إلى المطار الدولي حتى أتمكن بالمبلغ الذي سيدفعه لي من تحقيق رغبة ابني الكبير في شراء دراجة هوائية جديدة له كما وعدته وأصبح بدوره يذكرني مراراً بالوفاء بوعدي تجاهه.

خرجت أمني النفس في هذا الزبون، رغم درايتي أن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، لكن رجائي تحقق لي ذلك الصباح، حيث أُرسل لي طلبٌ عبر النظام الالكتروني للشركة لالتقاط زبون في إحدى العمارات، التي عندما وصلتها وجدت فتاة في العشرينيات من عمرها مع جدتها الطاعنة في السن، والتي لا تتحرك إلاّ بواسطة عكاز خاص، كانت الاثنتان في انتظاري، حيث كانت الفتاة هي من تريد السفر، أما جدتها فتريد توديعها فقط. ساعدت

الفتاة على إركاب أمتعتها في الصندوق الخلفي للسيارة، وبمجرد أن أغلقت باب السيارة بعد ركوبها حتى أجهشت العجوز جدتها بالبكاء بكاءاً حاراً ومؤثراً. وداخل السيارة وقبل الانطلاق صوب المطار، كنت مشغولاً بمحاولة إدخال عنوان هذا المطار في جهاز التعقب "جي بي إس"، حينها أمرتني الفتاة وهي تقاوم توقف أنفاسها وتمسح دموعها كي أتوارى عن جدتها قبل مواصلة البحث في جهاز التعقب، لأن جدتها كما تقول رهيفة الحس هشّة القلب، فكان لها ما أرادت.

انطلقت بالسيارة، فساد صمت رهيب داخلها طوال الطريق نحو المطار، لأكسر هذا الصمت عندما سألتها قبيل وصولنا عن الخطوط الجوية التي تريدني أن أقف ببوابتها عند وصولنا، فأجابت ب"الخطوط الإماراتية"، فاستغلت هذا السؤال لتدخل معي في حوار قصير:

- يظهر من اسمك في نظام الشركة أنك عربي؟ !هل أنت من الخليج؟

- أنا أمازيغي من المغرب!

- هل أنت مسلم؟!

- طبعاً مسلم!

-عذراً على السؤال الغريب لكن لو سمحت، هل تعتقد أنني ملزمة بستر العورة وارتداء الحجاب بمجرد وصولي إلى" دبي".

-ربما يجدر بك فعل ذلك في أفغانستان أو باكستان، أو حدود سيطرة تنظيم "داعش" في العراق والشام، أما في الإمارات، فأعتقد أنه لا مشكلة في نوع الهندام، فالإمارات يعمرها الأجانب أكثر من السكان الأصليين ولغتهم الرسمية هي الإنجليزية!

-أَوَليست الإمارات دولة عربية؟!

-هي كذلك، لكن العربية انقرضت فيها بفعل انفتاح مواطنيها على العالم واعتمادهم أكثر اللغات استعمالا وهي الإنجليزية، أما لغتهم الأم، فقد عملوا على إنقاذها من الإنقراض في أرضهم باستنباتها في أرض غيرهم، ومن خلال قوم غير قومها مستغلين في ذلك أموال البترودولار كما استغلوا حسن نية العجم في الدّين الذي ربطوه باللغة العربية كركن من أركانه!

ودعت الفتاة بعدما طمأنتها أن ليست ملزمة بارتداء الحجاب حيث ذهبت، أما أنا، فقد كنت على يقين أنها على حق في المخاوف التي راودتها بخصوص السياحة في بلاد المشرق، أو حتى في أي بلد من البلاد المحافظة كبلادنا طبعا. فسؤالها عن الحجاب، قد يكون سؤالا عن مدى إلزاميته هفي الدول التي تعتمد الشريعة "على قلتها"، حيث الحجاب في هذه البلدان مفروض على المواطنات والأجنبيات على السواء، مسلمات كنّ أو غير مسلمات، كنوع من احترام خصوصيات من البلد المضيف. أو قد تكون تعني أن ارتداءها للحجاب في بلداننا فيه وقاية لها من التحرش، وعياً منها بالتوحش الجنسي لمجتمعاتنا، ومهما يكن، فالتحرش بالفتيات والنساء في بلداننا أمر حتمي ولن تنجو منه حتى هذه الأمريكية الشقراء لو حلت مثلاً في بلدنا المغرب، والاختلاف سيكون في حدود تصرف المتحرِّش بها، فإما أن يكون علناً بالكلمة أو حتى بالاعتداء الجسدي، أو يكون هذا التحرش حبيس صدر هذا المتحرش المكبوت، فالعفيفة الساترة لعورتها كما يستر قالب السُّكر عورته بلفافتين من الورق تكون عرضة لتحرش الذكور في الشارع، فما بالك بهذه الأمريكية الشقراء ذات القد الممشوق والرّدف الممتلئ والنهد البارز وكلٌّ في ثوب شفاف، فهذه الصفات طبعا ستُخرِج عيون

شبابنا من مُقلها إعجاباً وشهوة، دون أن يمنعهم ذلك من ترديد "حسبي الله ونعم الوكيل!" نفاقًا.

هذه السائحة الامريكية قد تكون على وعي بما يدور هناك في البلدان العربية والإسلامية حيث تنوي الذهاب، وذلك بعد البحث في الشبكة العنكبوتية لترى حجم الظلم الذي تعاني منه الأنثى في مجتمعاتنا، سواء بالحجاب أو من دونه، كما قد تكون تابعت تلك الصحفية الأمريكية التي عبث المتظاهرون بجسدها في ميدان التحرير في مصر أيام الثورة وهم يتلذذون بلمس جسدها وهي تستغيث وسط تكبيراتهم ! فمحرك البحث "غوغل" من خلال تقاريره السنوية التي تفضح ولا ترحم، يعطي الكلمات الأكثر بحثا عنها في محركه كما يمنح فرصة التعرف على توزيع تردد هذه الكلمات على مختلف مناطق العالم، حيث تستحوذ منطقة شمال افريقيا والشرق الأوسط على حصة الأسد في البحث عن كلمتي "جنس" و"جهاد" اللتين قد يظهر من معناهما أن لا علاقة تربطهما مطلقاً، لكن الحقيقة هي أن الكلمتين بينهما رابطة قوية كوجهي عملة واحدة خصوصا في عقول الإرهابيين بإسم الدين، وقد كرّس تنظيم داعش هذه الرابطة فيما أسموه "جهاد النكاح"، فمعظم مقاتلي التنظيم مهووسون بالجنس اختاروا القتال "الجهاد" وهم يتمنون الموت "شهداء" كطريق مختصر للقاء الرب والإرتماء بين أحضان حور العين.

وحتى لا نذهب بعيداً في الجغرافيا للبحث عن نماذج وأمثلة للتحرش الجنسي في أقصى مغرب الشمس أو مشرقها، فيكفي ما شاهدته مشاهدة العين في عُقر الدار في بلدتي بالديار "ملاعب" حيث ترعرعت، والتي تعج بالكهول المكبوتين والمشهورين بين الساكنة بتحرشهم في الأنثى، صبية كانت أو عجوز بل وحتى رضيعة ! فقد اعتاد عجزة وشيوخ البلدة فيما مضى أن يفترشوا الأرض يوميا قبيل وبعد كل صلاة أمام باب القصر، أو

بالقرب من المسجد، وبعد أن افتتحت الإعدادية أبوابها، نقلوا مجلس كسلهم ومكان نومهم ذلك إلى قرب الطريق الرئيسة حيث اعتاد أن يمر التلاميذ نحو أو رجوعا من الإعدادية، وذلك حتى يتسنى لهم التلصص على بعض الفتيات ذوات السراويل الضيقة والأقمشة الفاضحة "في نظرهم"، وهؤلاء عوضاً أن يتواروا عن الأنظار رفقاً بشيخوختهم ورفقاً بأبنائهم وأبناء أبناءهم، أبوا إلا أن يستسلموا لإغواء الشيطان، ليلتفتوا شطر مؤخرات تلميذات في عمر حفيداتهم، يَرَوْن فيهن من المعجزات ما لا يبصرونه في حدبة الإبل ولا في منسمه ! فبعد أن كانوا قبل بناء الإعدادية يشتكون من ضعف البصر نتيجة التقدم في العمر، أصبحوا مع نعمة إدمان النظر في أرداف التلميذات وصدورهن يبصرون حتى في الظلام كالخرفان، انقشع الظلام عن أبصارهم، وتحللت المياه الزرقاء في قرنيات عيونهم حتى جعلوني في ريبة من أمري، حيث كنت أظن أن التقدم في العمر يقتل الشهوة ويضيع معه الإغراء، وإذا بكهول عاشوا شهوداً لأجيالهم الثالثة والرابعة، مازالوا أوفياء للتحرش بالإناث، تحرش كاتم حبيس الصدر لا يصدر صوتا، وإذا فعل، تكون الفضيحة عظيمة فسترك يارب.!

أشتغل كما قلت صباح يومي السبت والأحد كسائق تاكسي بسيارتي الخاصة، وقد كنت أستغل خروجي من مطعم جيريس ليلة الجمعة لأقوم بترتيب سيارتي وتنظيفها لتكون لائقة لركوب زبناء شركة "أوبر" في اليوم التالي، ولا أغادرها في المرآب إلا وأنا مطمئن على جاهزيتها، خصوصا وأن ولديّ قد عبثا بها لأيام الأسبوع بشكل انتشرت معه أشلاء وبقايا الطعام فيها. وهكذا فبعد خروجي من العمل في ليلة من ليالي الجمعة، انتبهت لاشتعال ضوء الإنذار بالسيارة ينبهني لحاجة أحد الإطارات إلى مزيد من ضغط الهواء، فقصدت إحدى محطات البنزين المتواجدة بالقرب من منزلي حتى أصلح الإطار ليكون جاهزا صباح الغد،

فقمت بركن سيارتي بالقرب من مضخة الهواء لاتجه بعدها لمتجر المحطة بقصد الحصول على بعض النقود المعدنية لأستعملها في تشغيل آلة الضغط، وغير بعيد عن باب هذا المتجر، فوجئت بامرأة بين الخمسين والستين من عمرها بسروال وجاكيت من الجينز وحذاء رياضي أبيض، ترمق بعينيها في كل الاتجاهات كشرطي حراسة مغربي بالكاد توصل بإشارة قرب مرور الموكب الملكي في المنطقة حيث يحرس ! فنظرت إليَّ بشكل حادّ أو ظننتها كذلك، وبمجرد أن خرجت من المتجر، سألتني بدون مقدمات:

- هل تستطيع سيدي أن توصلني إلى وسط مدينة "الإسكندرية"؟!

- آسف سيدتي أنا بالكاد خرجت من العمل وسأشتغل باكراً.

- لا تقلق التوصيلة لن تكون بالمجان.

ما أن أتمت جملتها حتى أخرجت رزمة من الأوراق المالية لتطمئنني إلى أن لديها مالاً لتدفعه.

- مرة أخرى آسف سيدتي، لكن يمكنك أن تستقلي الباص الذي سيوصلك إلى محطة الميترو ومن هناك تستقلين الميترو إلى بؤرة "الإسكندرية" ولن يكلفك الأمر أكثر من خمس دولارات.

- مستعجلة سيدي ولا وقت لي مع الباص والميترو.

شكرتني على الاقتراح فمضيت لحال سبيلي لأصلح إطار عجلة سيارتي لتفاجئني مرة أخرى بوقوفها أمامي، ما أن استدرت نحوها حتى اقتربت مني أكثر فهمست إليَّ:

-هل تريد بعضاً من المتعة ؟!

-عفواً سيدتي لم أفهم قصدك.!

-هل ترغب في متعة الجنس الفموي!

تفووووووو صبحنا على الله ! كانت تتكلم بالقرب من وجهي وكلا وجنتيها تتذبذبان بشكل يوحي بخلو فمها من الأضراس، كنت أظن لأول وهلة أنها جدية في الحصول على توصيلة إلى

وسط المدينة، فتمنيت لو كان لدي متسع من الوقت لمساعدتها خصوصاً وأنها عجوز، و إذا بها تكشف لي بخسّة أنها ممتهنة أقدم مهنة في التاريخ وهي البغاء. اعتذرت لها وأنا أحس بالاشمئزاز، فانصرفت إلى نفس المكان حيث رأيتها لأول وهلة، تنتظر فريسة أخرى بعدما خاب ظنها في شخصي.

إنها مهنة البغاء التي تنتشر في كل بقاع العالم، لا فرق فيها بين الدول الفقيرة والغنية، وهذه العجوز تمارس هذه المهنة بطريقتها وتتربص بزبنائها المحتملين بحيلها الخاصة كذلك، بعدما لفظتها الأماكن الراقية، لذبول جسمها وأفول نجمها في تلك الأماكن، فلجأت إلى طريقة أخرى في مكان يسهل عليها فيه الحصول على ضحايا يقبلونها بما هي عليه!، وممارسة مهنة البغاء هي شيء غير قانوني في أمريكا دون أن يستطيع هذا القانون وضع حد لهذه الظاهرة، فممتهنات هذه المهنة ينتشرن في أماكن عدة، من علب ليلية ونوادي تعرّ، وصالونات ماساج، كما تتم المتاجرة بأجساد البغايا من طرف شبكات متخصصة في توفير الرقيق لزبنائها عن طريق التوصيل، توصيل المحترفة للبغاء إلى منزل الزبون من طرف سائق الشبكة، تماما كتوصيل البيتزا إلى منزل صاحب الطلب.

والأكثر إثارة بخصوص هذه المهنة في العاصمة واشنطن هو البورديلات المكشوفة، حيث تتحول هذه المدينة ليلاً وحتى صباح اليوم الموالي في بعض تقاطعات الشوارع الرئيسة القريبة من البارات والفنادق، إلى معرض لأجساد النسوة بائعات اللذة، في ملابس مثيرة، بل وعاريات إلا من تبّان فاضح وصدرية رفيعة، وقد حدث يوما أن أخذت من أمام فندق وسط واشنطن إمرأة وإبنها الذي يبلغ عمره حوالي الأربعة عشر ربيعاً، وكانت وجهتهما هي مطار "ريغين" بأرلينغتون .ما أن دخلنا في الشارع "14" الشهير حتى بدت بائعات اللذة بأجساد عارية وسط الشارع، بشكل نال استغراب هذا الطفل، فأخذ ينظر إليهن بذهول شديد،

أراقبه من المرآة الآمامية وقد فتح فمه من شدة التأثر، في حين بدت أمه كأن الأمر لم يرق لها، فلم نكد نغادر المكان حتى سألها في استغراب:

- وات ذَا فاك مام!

- تورن أوراونْد، دونت واتّش!

هذه الإباحية الجنسية هي التي جعلت من واشنطن أكثر الأماكن في أمريكا التي تنتشر فيها الأمراض المنقولة جنسياً، حيث أتذكر في سنواتي الأولى عندما كنت أستقل الباص أو الميترو نحو العمل، أنني فوجئت يوما بملصق إشهاري داخل عربات الباصات ومقطورات الميترو أياما قليلة قبل اليوم العالمي للسيدا يحمل إشهاراً في عنوانين بارزين : " واشنطن أكثر عددا من حيث المصابين بالسيدا من نيويورك وشيكاغو" كعنوان أول كتبت تحته عبارة : "كل عشرة أشخاص جالسين معك في هذه المقطورة اثنين حاملين للفيروس المسبّب للمرض !" رحمتك يارب.

IX

عندما يسألني العديد من معارفي في الديار عن الوقت الذي تستغرقه الطائرة وهي في الأجواءِ للوصول إلى أحد مطارات الشرق الأمريكي انطلاقا من الدار البيضاءِ، تراهم يندهشون حين أجيبهم: أكثر من سبع ساعات ونصف! ورغم ذلك، فإنني أرى أن السفر عبر الطائرة كل تلك المسافة الطويلة أرحم للمسافر من سفر عُشر تلك المسافة داخل التراب المغربي عن طريق حافلة للنقل العمومي، فالسفر عبر الطائرة يكون مريحا وفي هدوءِ شبه تام، كما يتيح تمضية الوقت بوسائل ترفيهية كالحاسوب اللوحي، وأخيرا –وهذا هو الأهم– وجود المرحاض رهن إشارة المسافر.

عندما تحط الطائرة رحالها في أحد المطارات الأمريكية، يكتشف المسافر المغربي إلى تلك الربوع لأول مرة أن السفر لم يكن فقط سفرًا جغرافيًا من مكان إلى آخر، بل هو سفر عبر

التاريخ من حقبة إلى أخرى، سفر من زمن شبه بدائي إلى زمن يمثل أرقى ما وصلت إليه البشرية من تطور في شتى المجالات .

ثاقب الملاحظة و حادّ النظر من المهاجرين المغاربة الذين تطأ أقدامهم لأول مرة أحد المطارات في أمريكا، سيلاحظ أن الاختلاف بين رجال الأمن في مطار محمد الخامس في الدار البيضاء وأي مطار أمريكي، هو اختلاق جوهري يتمثل في أن أغلبية رجال الأمن في المطار الأول ذوو شوارب تغطي أحيانا كثافتها الشفة العليا ويُعتنى بها أكثر من اللازم، وما إن يبتسم أحدهم في وجهك حتى تشمئز منه، إذ تطالعك وبكل وقاحة أسنانه الصفراء، هذا إن لم يكن مدخّنا، أما إذا كان كذلك، فسترغم على مشاهدة إبتسامة بأسنان من الزّفت والقطران، هنا إذا كان في هذا الفم أصلاً أسنان، بينما رجال الأمن في المطارات الأمريكية في معظمهم بوجوه ملساء ومن دون شوارب أو لِحى، وبمجرد أن يبتسم أحدهم في وجهك حتى تنتبه لوجود أسنانه الناصعة البياض في فمه، والمرتبة في تناسق تام، حتى إنه إذا بالغ في الإبتسامة وفتح فاه، فإنك نادراً ما ستلاحظ شغور أحد أماكن أضراسه أو أسنانه، وحتى لو كان رجل الأمن هذا عجوزاً آثر الإستمرار في العمل على أخذ تقاعد مملّ.

رجال الأمن في المطارين موضوع الدراسة هما أنموذجان لواقع حال أسنان مواطني البلدين، فالإحتكاك مع الأمريكيين في الشارع وفي العمل، يُظهر بجلاء إهتمامهم بأسنانهم التي تعتبر سرّ الإبتسامة الجميلة لديهم، وحجة قوية على اهتمام صاحبها بتفاصيل صحته، فهم واعون جداً بثقافة العناية بالأسنان، حتى أن أي شارع يكاد لا يخلو من عيادات التخصص في هذا الطب، وهذه الثقافة يتم تلقينها للأطفال الصغار في الروضات، حيث توفر لهم المدارس فراشي ومعاجين الأسنان وأماكن خاصة لتنظيف أسنانهم في تلك المدارس، وحتى إن مختلف المتاجر غالباً ما تخصص رواقاً خاصا لعرض مختلف أنواع تلك المعاجين ومختلف أنواع الفراشي وكذلك محاليل الفليور للمضمضة وعيدان النّقش وخيوط حكّ التجاويف بين الأسنان، و

رغم الغلاء الفاحش لخدمات طب الأسنان في أمريكا والتي لا تغطيها أغلب التأمينات الصحية، فالأمريكيون يداومون على زيارة تلك العيادات، ومن نتائج ذلك أن هناك من المواطنين الأمريكيين من مات في سن التسعين فأسلم الروح لربه وفمه غير منقوص الأسنان كما وهبه إياه. وكذلك الأشخاص الذين هم من دون مأوى في أمريكا، فغالباً ما تكون المحافظ والأغراض التي يصطحبونها معهم لا تخلو من معاجين أسنان و فراشيها، يداومون بها على غسل أسنانهم كلما ارتادوا مرحاض أحد المطاعم.

أما نحن المهاجرين المغاربة، فقد أتى أغلبنا إلى هذا البلد بأفواه إنسان ما قبل التاريخ، أفواه لا تصلح لأي شيء بمجرد وصولنا إلى هذا البلد إلا لتمثيل بعض لقطات أفلام الرعب أو استعراض بشاعتها ليلة "الهالوين"! ومع مرور الأيام ينتبه بعضنا إلى هذا المشكل فينقذ في فمه ما يمكن إنقاذه حتى ولو كلفه الأمر الكثير من المال مادام الأمر يستحق تلك التضحية، وبعضنا الآخر يفضل الحفاظ على فمه بنسخته الأصلية، فلا يكترث له رغم أنه يثير تقزز من تربّى على ثقافة الحفاظ على الأسنان من الأمريكيين الذين يساوون بين أسنان تظهر على سطحها بقايا الطعام و أنف عالق في تجاويفها الظاهرة بقايا مخاط يابس! والغريب أن هناك من هؤلاء المهاجرين من يذهب إلى طبيب أسنان لوضع حد لألم ضرس في فمه فيفضل نزعه على إصلاحه والإحتفاظ به في فمه، لأن ذلك سيكلفه بضع مئات من الدولارات رغم أن نفس الشخص يدفع هذا المقدار بأضعاف مضاعفة لإصلاح أعطاب سيارته! فمن الأولى بالعناية؟ أسنان فم ضرورية مدى الحياة و إصلاحها يديم الإحتفاظ بها عقوداً من الزمن، أم إصلاح سيارة لن تتجاوز ملكيته لها عقدا واحداً من الزمن ليغيرها بأخرى ؟؟!!

طب الأسنان في أمريكا هو طب مهمته كما يُقبل عليها الأمريكيون هي الحفاظ على صحة الأسنان وبياضها وتناسقها داخل الفم، بالإضافة إلى دوره في الحد من ألم الأسنان، أي أن هذا الطب في أمريكا في نسبته الكبرى من مهامه هو دور تجميلي، أما في المغرب، فلا

يلجأ الشخص إلى عيادة طب الأسنان إلا إذا وصل به الألم حدًّا لا يُطاق فشلت في وقف حدته كل المحاولات والوصفات التقليدية والصيدلية الرخيصة الشائعة، وفي الغالب، لا يطلب هذا المتضررة أسنانه من الطبيب إنقاذ ضرسه أو سنه، بل يطلب منه نزعه حتى يستريح من الألم بعدما يتجاوز هذا الالم قدرات (الايبوبروفان) و (الكاطافلام) في التخفيف من حدتها ، و لهذا فلا غرابة في أن نصادف في حياتنا اليومية في الديار مختلف أنواع الأفواه طبقا لإختلاف وضعية الأسنان فيها، فمن فم كثير الأسنان، سنّ فوق أخرى مرتبة عشوائيا كبناء الحبوب في السنبلة، إلى فم بأسنان نزع الكثير منها فبقيت أسنان قليلة صفراء متناثرة تشبه في تباعدها الأحجار المتناثرة التي تزيِّن قاعدة حوض (الإيكواريوم)!!. والقلة القليلة من الأشخاص في المجتمع المغربي هم من يعتنون بأسنانهم لتبقى نظيفة، حتى لا نقول ناصعة البياض، لكنها إلى حدّ ما مقبولة، أما السواد الأعظم من الناس فهم بأسنان يرثى لها، أسنان ترسبت فيها بقايا الطعام فغدت صفراء وبنية، حتى في عزّ نهار رمضان يمكن أن تشاهد على سطحها أطراف أغشية العنب وقشور اللوبيا والعدس كما تحتمي بين تجاويفها بقايا فول سوداني ولوز إستهلكها صاحب تلك الأسنان منذ أسابيع إلى درجة أنه لو فتح فمه كما يفعل التمساح لاقتات منه سرب الطيور حدّ الشبع !! أما أسنان أغلب المدخنين فقد استحالت من كثرة التدخين إلى قطع متفحِّمة من كثرة ترسب الكربون على جدارها، والمؤسف في هذه العينة من الناس هم أولئك الذين تخلصو من تلك الأسنان وعوضوها بأطقم بلاستيكية وهم شباب في مقتبل العمر! وهناك أيضاً من يبتسم في وجهك فيكشف أثناء هذه الابتسامة عن فم بسنّ واحدة كالنّربال "حيوان يعيش في القطب المتجمد وله سن واحدة في الأمام على الفك العلوي بارزة خارج الفم" وكل هذه الأمور أصبحت معتادة في مجتمعنا لإنعدام ثقافة الحفاظ و العناية بالأسنان لدينا، بل منا من يجهل الفرق بين طب الأسنان و مهنة صناعة الأسنان.

إرتباطا بموضوع الأسنان دائما فمعلوم أن المغرب قد قام بتنظيم نسختين من كأس العالم للأندية قبل سنتين، وكلا النسختين ارتبطت بفضيحتها الخاصة، فضيحة حفل الإفتتاح في النسخة الاولى وفضيحة الملعب العائم في النسخة الثانية، وما يهمني في هذا الموضوع هو فضيحة حفل الإفتتاح في النسخة الأولى. وهنا أجدني من بين القلة القليلة جدا ممن أرضاهم هذا الحفل ضدا على رأي العديدين الذين سخطوا عليه، و تأيدي للحفل خلافا لشبه إجماع على رداءته، ليس لأنني أتبع قاعدة "خالف تعرف"، بل إن تأييدي لهذا الحفل الذي لم يرضى به الكثيرين لكونهم منافقين يريدون تسويق صورة المغرب في هذا الإفتتاح على غير حقيقتها، نابع من قناعة كون هذا الحفل قد استطاع تقديم الصورة الحقيقية للمغرب دون نفاق ودون مساحيق تجميل، وذلك من خلال ثلاث وقائع هاجمها منتقدو الحفل وأدافع عنها بشراسة :— أول هذه الصور هي الفرق الغنائية التي اعتمد عليها المنظمون في الحفل من أحواش، گناوة ، الشيخات، وعبيدات الرّمى ... فكلها من التراث المغربي الأصيل يجب الإفتخار بها وعدم الخجل من تسويقها بافتخار، أم يريد هؤلاء المنتقدون أن نقدم للعالم رقص (السامبا) و الرقص (البالي) ...— ثاني الصور التي تحامل عليها المنتقدون، هي الضجيج والفوضى التي رافقت جمع كل هذه الفرق جنبا إلى جنب بحيث تؤدي كل فرقة معزوفتها في وقت متزامن، وزادهم ضجيجا تلك الموسيقى المنبعثة من أبواق المركب الرياضي، وهنا لا أرى في الأمر حرج ما دمنا نسوّق للعالم صورة حقيقية عن واقعنا المعاش في كل المجالات الذي تطبعه الفوضى والارتجال وغياب النظام — .!! ثالث النقط التي هاجمها منتقدو هذا الحفل و المرتبطة بالموضوع أعلاه هي خلو أفواه معظم أفراد الفرق الموسيقية من الأسنان، و هنا أتساءل : و أين الحرج من إبراز الوجه الحقيقي للفم المغربي أمام العالم، أوليس نادراً أن نجد مغربياً بالغاً بفم كامل الأسنان ؟ أوليس معظم المغاربة قد تخلصو من معظم أسنانهم و البعض أسنانهم مشوهة ؟ أوَليست أسناننا التي نجت من القلع صفراء بنية كأنها صنعت من معجون (الكاكاو)؟! ولو عزلت من الفم ووضعت فوق قطعة البراز (أعزكم الله) لصعب

تمييزها وتحديد مكانها لانها ستظهر منسجمة مع البراز في اللون تماما كصعوبة تمييز الجندي الذي يرتدي سترة منسجمة. مع طبيعة المكان حيث يقاتل؟؟!

إن الأسنان ناصعة البياض لمعظم الأمريكيين لهي دليل قوي على حرصهم واهتمامهم الشديدين بصحتهم بشكل عام، وهي كذلك نتيجة حتمية لاعتياد الأمريكيين على زيارة عيادات أطباء الأسنان باستمرار. والى جانب طبيب الأسنان يتوفر أغلب الأمريكيين على طبيب يسمونه "طبيب العائلة" مكلف بمتابعة ملفهم الصحي باستمرار، ويحفظ تفاصيلها الدقيقة في ملفاتهم الصحية، ويستوي أصحاب الدخل المحدود والمرتفع في حرصهم كل الحرص على دفع أقساط التأمين الصحي المرتفعة نسبيا، والذي "التأمين" كان اختياريا في فترة ما قبل وصول أوباما إلى كرسي الرئاسة، ليجعل منه هذا الأخير في ولايته الثانية إجباريا على أن تتحمل الدولة جزءا من الأعباء المادية وصولا إلى تحملها دفع أقساط التأمين بشكل كامل لذوي الدخل المحدود والمنخفض.

إن وعي الأمريكيين بأهمية الصحة العامة قد اضطر جميع الشركات المعنية بتجارة المواد الغذائية إلى وضع نشرات خاصة كملصقات على منتجاتها تتضمن شرحا لمركبات هذه المنتجات ومكوناتها بشكل مفصّل لإفساح المجال أمام المستهلك الأمريكي لانتقاء أكثر هذه المنتجات ملائمة لوضعه الصحي، ولكي يمكنه تجنب أي مضاعفات سلبية قد تطرأ عليه بعد تناوله لتلك المنتجات على المدى الطويل أو المتوسط، ولهذا لا يستغربن أحد عند رؤيته أمريكيا يراقب السلع بعناية خاصة في أي مركز تجاري ويحرص على قراءة النشرة الملصقة فوق المنتج الذي يريد شراءه حرصا شديدا لمعرفة كل تفاصيل تراكيبه ومكوناته، من عدد سعراته الحرارية إلى نسبة الكوليسترول، والسكر... وغيرها من المكونات الاخرى التي تكون حاسمة في اختياره للمنتوج من عدمه. وفِي نفس الإطار تتحدث بعض التقارير الإقتصادية الأمريكية لعام ألفين وأربعة عشر أن الأمريكيين ينفقون حوالي أربعة عشر فاصل ثمانية مليار دولار (14,8

على شراء المكملات الغذائية والفيتامينات، وهذا الرقم الذي يبدو كبيرا وهائلا إلا أنه يبقى مقبولا إذا ما عرفنا أن في كل المتاجر النموذجية في الولايات الأمريكية أروقة خاصة لبيع المنتجات الغذائية المكملة إلى جانب وجود متاجر متخصصة في تسويق هذه المنتجات فقط، مثل متجر "فيتامين شابرز" ومتجر "GNR" الذين يعتبران من المتاجر المهمة التي تشهد إقبالا " شديدا" بشكل يومي...

إن الوعي الصحي للأمريكيين لا ينحصر فقط في الوعي بمختلف الجوانب المرتبطة بالتغذية الصحية، بل يتعداه ليشمل كذلك ممارسة الرياضة كسلوك منتشر على نطاق واسع بين الأمريكيين، إذ لا يخلو شارع أو تجمع سكني من القاعات الرياضية، بل إن العمارات والمركبات السكنية غالبا ما توفر لساكنيها صالات الرياضة كمرافق ضرورية. وعلى غرار طرق العربات ذات المحرك، نجد أن كل المدن والتجمعات السكنية الهامشية تحوي ممرات خاصة بهواة ركوب الدراجات الهوائية وممارسي رياضة الركض والعدو. وما يزيد فضولك واندهاشك أن هذه الممرات الخاصة لا تتوقف فيها الحركة على مدار الساعة، وكأنك أمام مشاهد حية لجيوش زاحفة من النمل لغزو ما تبقى لديك من إحساس بالدهشة والذهول أو لبث روح العزيمة والنشاط لديك. ويمكن القول أن وعي المواطن الامريكي بمختلف الجوانب المتعلقة بحياته الصحية لم يكن وليد اليوم أو الصدفة، بل هو مرتبط ارتباطا وثيقا بارتفاع مستواه التعليمي والمعرفي كما هو مرتبط بارتفاع دخله الذي يسمح له بتجاوز التفكير في إشباع الضروريات نحو مجال التفكير في تفاصيل حياة الرفاهية بما فيها الجانب الصحي الذي يضمن له على الأقل تجنب بعض المضاعفات الصحية على المديين الطويل والمتوسط. وفي المقلب الآخر، وعلى نقيض ذلك، نجد المواطن المغربي أقل اهتماما بالجانب الصحي، ذلك لأن الفقر والعوز يرغمانه على حصر كفاحه فقط في الحصول فقط على لقمة عيشه وعيش أطفاله والتي لا يشترط فيها سوى ملء بطنه بغض النظر عن قدرة هذا الشيء المستهلك على سد احتياجات جسمه من العناصر الغذائية الضرورية لجسمه. كما أن الفقر المقرون بسياسة الدولة

الفاشلة في التعليم، يقوضان فرص حصوله على ثقافة جيدة تفتح إدراكه على كل الجوانب المرتبطة بكل أشكال الوعي بما فيها الوعي الصحي. فالتعليم في المغرب يسير من سوء إلى أسوء ولا ينتج سوى أجيالا من المواطنين رغم حملهم للشهادات الا انهم يعيشون الحاضر بعقول العصور الغابرة!.

* * * * *

يعتبر أمر الوصول إلى أمريكا لأول مرة بغرض الاستقرار النهائي على أراضيها بمثابة الولادة الجديدة للمهاجر الذي يتحتم عليه إعادة التكوين في كل المجالات ليعيد إنتاج المعرفة والوعي لدية على مقاس المجتمع الأمريكي حيث سيعيش ضمنه. وتعتبر اللغة أولى التحديات التي يصطدم بها. فإتقان اللغة الانجليزية عن طريق الدراسة في المدارس الامريكية المتخصصة، هي أولى المفاتيح الضرورية للإنفتاح على أسرار الحياة في المجتمع الامريكي أولا، ومفتاح السير قدما نحو تحقيق النجاح في الحياة المهنية لضمان المستقبل في بلاد الفرص. وبتواز مع تعلم اللغة، يجب على المهاجر الجديد الإنصهار والذوبان في المجتمع الأمريكي وضرورة التخلي عن العادات والسلوكيات التي كانت مقبولة في مجتمعه القديم الأصلي وأصبحت مرفوضة في مجتمعه الجديد، وهنا يصبح دور المهاجر القديم مهما في توجيه وإرشاد ضيفه الجديد بغية تأهيله ودمجه بشكل سريع وجيد في المجتمع لأمريكي المضيف.

إن تقديم المواطن الأمريكي المساعدة للمهاجر المغترب هي من أوائل اهتماماته التي يشعر بها المغترب الضيف منذ لحظة وصوله إلى أرض المطار الأمريكي. هذه الميزة في التعامل الأمريكي مع الضيف الجديد لا تجد لها نظيرا حتى في الدول الأوروبية. فأخلاق الأمريكيين في تعاملهم مع ضيوفهم تشبه السلسلة المترابطة والحلقة القوية، فالأمريكي الذي لا يمكنه مساعدتك سيحيلك حتما إلى أقرب شخص إليه قادر على مساعدتك وهكذا.. أو يعتذر

لك بكل لباقة واحترام إن لم يستطع لذلك سبيلا. إن هذا السلوك الأخلاقي الراقي في تعاملات الأمريكيين فيما بينهم أو في تعاملاتهم مع الضيوف الأجانب لا يمكن فهمه حسب رأيي إلا انطلاق" من حقيقة أن الأمريكيين هم في الواقع غرباء في وطنهم، بحكم أنهم يعتبرون من أكثر شعوب العالم ترحالا، فهم لا يستقرون في مكان واحد لفترة طويلة، وذلك إما بحكم طبيعة أعمالهم التي لا تنحصر في مكان واحد قط، وإما لرغبتهم الدائمة في اغتيال الروتين اليومي وترطيب الأجواء في البحث عن مكان للعيش فيه في ظروف مختلفة. وأكثر من ذلك فالمواطن أو السندباد الأمريكي إذا صح التعبير قد يفاجئك في لحظة ما أنه ترك بيته بعد عرضه للبيع بعد مرور مدة يسيرة على شرائه وامتطى صهوة عبقريته الإقتصادية ليسافر بعيدا مقتنصا فرصة إقتصادية لاحت له في ولاية أخرى.

الى جانب كل ما سبق، تكتمل الصورة اذا علمنا أن أمريكا هي بلد السياحة والنشاط الدائم بامتياز، إن على الصعيد الداخلي أوالخارجي، إذ لا يخلو شارع في أي مدينة من المدن الأمريكية من الفنادق والأوتيلات والإقامات السياحية.
وكمقارنة بين السياحة المحلية والسياحة الوافدة التي تحتل فيها أمريكا المرتبة الثانية عالميا "بعد فرنسا" إذ ناهز عددالسياح تسعة وخمسين مليون سائح عام ألفين وعشرة، فإننا نلاحظ نجاح السياحة الداخلية بشكل كبير مقابل السياحة الوافدة، إذ قدرت إيرادات السياحة المحلية ب 654 مليار دولار في عام ألفين وأحد عشر مقابل 153 مليار دولار عائدات السياحة الوافدة. وكل ما سبق هو الذي جعل الأمريكيون يتعاملون كغرباء فيما بينهم، كما يطغى الصدق على أحاديثهم فيما بينهم وبين ضيوفهم الوافدين، متواضعون أمامهم فتراهم يجيدون الإصغاء لشكاويهم، ومستعدين لتقديم كل أشكال المساعدة لهم، كيف لا وهم من اعتاد على ذلك داخل الوطن الواحد.

* * * * *

على قاعدة : "من عاشر قوما أربعين يوما صير منهم أو رحل عنهم" كان لا بد للمهاجر المغربي وغير المغربي أن يجهد في الإندماج والتأقلم في المجتمع الأمريكي المضيف كخيار واجب وضروري بحكم الواقع الذي يفرض نفسه كقوة في مجتمع حضاري متطور، وبداية هذا الإندماج تبدأ من نقطة توفر المهاجر على نية الاستعداد للتخلي عن عادات وسلوكيات كانت مقبولة ومعتادة منه في مجتمعه الأصلي، لكنها بحكم الطبيعة الخاصة للمجتمع الأمريكي المختلف أصبحت متجاوزة إلى مثيرة الإستغراب. وفي مقابل ذلك التخلي، يكون مطالبا من جهة أخرى باكتساب ما هو شائع ومقبول لدى المجتمع الأمريكي حتى ولو لم يكن مقبولا في مجتمعه الأصلي، شرط أن لا يتعارض مع القيم والمبادئ وكذا القناعات الشخصية لهذا المهاجر، وبالطبع فهناك أشياء يكتسبها هذا المهاجر من المجتمع الأمريكي تدريجيا بتواز مع مدة إقامته، في حين يتخلص من أخرى بمجرد خروجه من بوابة المطار في أول رحلة تقوده من دياره نحو أمريكا، فالمهاجر المغربي مثلا عليه بمجرد أن تطأ قدماه أرض المطار أن يقطع مع عادة شائعة في الشارع المغربي وهي عادة معاكسة الإناث "البصبصة أو اللصلصة"، إذ يعتبر هذا التصرف في أمريكا مغامرة متهورة قد تنتهي بصاحبها في السجن. أما حشر السبابة في تجويف الأنف لإفراغ حمولته من يابس المخاط والتي يمارسها عادة المغاربة بعفوية دون حسيب أو رقيب أو واعظ من أنفسهم، فتعتبر كذلك سلوكا قبيحا، غريبا، مقززا، ومثيرا للسخرية في المجتمع الأمريكي. فوجئت يوما بإحدى زميلاتي في العمل بمطعم "جيريس" تتمنى عليّ رؤية صورة في هاتفها الخاص قائلة إنه سيفاجئني كثيرا لشدة غرابته عن مجتمعها الأمريكي ولشدة قرفه، ويتقهقه بشكل هستيري، ما أثار حفيظتي وفضولي لمعرفة ذلك السرّ المكنون في أعماق جوالها الخاص، وبنظرة ثاقبة إلى الهدف المقصود وجدت شابا قد أقحم سبابته في أعماق أنفه فيمشهد تتقطع لوحشيته وقرفه أمعاء الوحوش في البراري، وما زاد من دهشتي أكثر هو أن هذا الشاب العظيم المكافح ليس سوى واحد ممن أقاسمهم هموم

السكن والغربة معا. كانت علامات الذهول والتعجب بادية على وجهي بعد عجزي التام عن إخفائها، ما جعل من زميلتي الموقرة تنتبه لذلك فسألتني :

– هل تعرفه ؟!..

– بنعم أعرفه وأتقاسم معه السكن نفسه... فأصابها إعياء شديد لم تستطع كتمانه:

– إعععععع إععععع!!... هكذا نطقتها كما تنطقها النساء في الديار عند التعبير عن قرفهن...ومازلنا كذلك حتى أخذنا الحديث بعيدا، ولكن في نفس السياق والمضمون والجغرافيا التي تغزوها بعض هذه العادات الغريبة عنها فاسترسلت قائلة :

– منذ لحظة دخولي أحد الباصات الخاصة بنقل الركاب وجدت هذا الشاب المقرف جالسا قد شغله أنفه عن الدنيا وما فيها، فتارة يغوص بهدوء في أعماق أنفه بواسطة سبابته التي لو استطاعت أن تنطق لصرخت في وجهه: "كفى؟!.. ما لهذا خلقت يا رجل!، وتارة يقتحم بسبابته أعماق أعماق أنفه في مشهد يشبه مطاردة اليد الآدمية لسمكة لزجة في حوض مائي!.. ظلت السبابة لم تفارق أنف ذلك الشاب منذ لحظة دخولي الباص وحتى لحظة خروجي منه وكأنها في حال تزاوج بينها وبينه في وضح النهار وعلى رؤوس الأشهاد!.

توسلت لزميلتي الموقرة أن ترسل لي تلك الصورة عبر بريدي الإلكتروني، لتكون دليلا لي وحجة بالغة في مواجهة صديقي، ليضيق بعدها صدره لما أخبرته، فأنكر علي ذلك، إلى أن أخرجت صورته من بريدي الالكتروني، عندها بهت الذي أنكر إقحام سبابته في أنفه. فكانت درسا له أرغمه على ترك هذه العادة القبيحة علنا في الشارع، إلا أنه ما زال يمارسها أمامنا داخل المنزل كأنه يعوض حرمانه منها خارجه، مؤكدا لنا جميعا صدق المثل المصري القائل : ذيل الكلب عمرو ما يعتدل!.

X

تنتشر في أمريكا جاليات عدة، حيث يعتبر هذا البلد – كما سبق وقلت –أرض المهاجرين بامتياز، لا يستثنى منهم إلا الهنود الحمر الذين يعتبرون سكاناً أصليين لها، وما عداهم، فهم مهاجرون، فحتى أحفاد الأوروبيين الذين نزح أجدادهم واستقروا في هذه الأرض ثلاثة قرون خلت، يعرفون أصولهم ومواطن أجدادهم في أوروبا. وهذا التنوع في ديمغرافية أمريكا، جعل منها بلداً غنياً في كل شيء، فإذا استثنينا الشق السياسي الذي يقسم الأمريكيين إلى معسكري الحزبين الجمهوري والديمقراطي، فإن كل المجالات الأخرى تقسم الأمريكيين إلى ألوان عدة لا حصر لها، فمثلا، لكل جالية معينة في أمريكا مطاعمها ومتاجرها ودور عباداتها، وحتى مراكزها الثقافية، وأحيانا قنواتها التلفزيونية، إلى درجة أن بعض

المحلات التجارية تحاول إرضاء أكبر عدد من الجاليات بتقسيم محلاتها إلى أجنحة، كل جناح مخصص لبيع أغراض وسلع كل جالية.

وإلى جانب هذه المحلات الكبرى، تنتشر متاجر صغيرة متخصصة كل على حدة ببيع مستلزمات كل جالية، ويملك هذه المحلات مواطنون من هذه الجاليات، حيث تنتشر فوق التراب الأمريكي وبكثافة المتاجر اللاّتينية والهندية والعربية والإثيوبية... وغيرها من المتاجر المتخصصة في تقريب سلع الدول إلى مهاجريها في مكان إقامتهم في أمريكا.

وتعتبر المتاجر والمحلات العربية والإسلامية من المتاجر الأكثر انتشارا على كل التراب الأمريكي، باعتبار أن المسلمين في أمريكا رغم تضارب أرقام إحصائهم، إلا أنهم يشكلون جالية وازنة يتجاوز عدد أفرادها ستة ملايين نسمة، والمتاجر التي تقوم بخدمة هذه الجالية، تقوم أساساً على استيراد السلع والأثاث والملبوسات من دول شمال إفريقيا والشرق الأوسط وكذا من دول ما بين الهند والعراق لبيعها لمهاجري تلك البلدان، كتعبير عن تشبث هؤلاء بتقاليد بلدانهم الأصلية، ففي منطقة "واشنطن فرجينيا" ينتشر هذا النوع من المتاجر بكثرة، وهي مملوكة في أغلبها لباكستانيين ولبنانيين ومواطنين من شمال أفريقيا، وتعتبر هذه المتاجر أماكن مفضلة لتسوق مواطني هذه البلدان، حيث تباع التوابل المستوردة من تلك البلاد، الشيء نفسه بالنسبة إلى المصبرات والزيوت، وقوالب السُّكر المغربية، وحتى مختلف أنواع الشاي الأخضر النادر في الأسواق المغربية يجد له مكاناً في رفوف هذه المتاجر من قبيل شاي "القافلة" و"جودة"، ومثل هذه المنتوجات تمثل علب تلفيفها متعة للنظر قبل قيمتها كسلعة استهلاكية.

ويبقى ما يميز هذه المحلات والمتاجر كصفة لاصقة بها ومستجدة في الوقت نفسه، هي تخصصها في تجارة اللحم الحلال، بمعنى أن اللحوم التي تروج لها هذه المتاجر، هي لحوم حيوانات ذبحت على الطريقة الإسلامية كما يزعم أرباب هذه المحلات.

وقد نشأت تجارة منتوجات الحلال في البلدان غير الإسلامية، أو بتعبير أدق، في البلدان التي يشكل فيها المسلمون أقلية، وهي في الأسواق الغربية شيء جديد إذا ما قورنت من حيث زمان ظهورها بتاريخ وجود هذه الأقليات المسلمة في هذه البلدان. حيث كانت علامة "الحلال" منذ أول نشأتها تقتصر على اللحوم المذبوحة طبقا للشريعة الإسلامية، ثم تطورت هذه التجارة لتشمل كل سلعة أو خدمة لا تتعارض مع أحكام الشرع الإسلامي كما يروج لها منتجوها عند عرضها على المستهلك المسلم، فالسلعة الحلال طبقا لتجارها، هي كل سلعة صالحة للاستهلاك وخالية من المحرمات، وهذه المحرمات غالبا ما تكون على شكل كحول أو مستخلصات لحوم الخنازير، أما الخدمة الحلال فيجسدها عادة ما يعرف بالبنوك الإسلامية.

مع الأزمة الاقتصادية التي كادت تعصف باقتصادات الدول الغربية، لجأت هذه الأخيرة إلى احتضان فروع من البنوك الإسلامية، والمسلمون البسطاء ذوو النية الحسنة، فسروا هذه الخطوة بأنها انتصار الاقتصاد المالي الإسلامي على الاقتصاد الغربي الربوي، إلا أن الأمر في حقيقته ليس بتلك البساطة، ففتح البنوك الإسلامية في الدول الغربية لا علاقة له بالمعتقد الإسلامي، بقدر ما هو حيلة لضخ المزيد من السيولة النقدية في اقتصاد هذه الدول، وتزداد

الصورة وضوحا عندما نرى بنوكاً تقليدية تفتح في نفس مقراتها فروعا للمعاملات المالية الإسلامية !يعني نفس البنك، نفس الموظفين، لكن الزبون له حرية الاختيار بين الخدمة التقليدية والخدمة الإسلامية، والسؤال المطروح هنا هو : ما مشروعية الفرع في ظل فساد الأصل؟!

والحق يقال إنه لا فرق بين البنك الإسلامي والبنك التقليدي إلا في كون الثاني صريح في إشارته إلى الفائدة، والأول يخفي الفائدة ويغلفها بمصطلحات بديلة. وكمثال على ذلك التلاعب في المصطلحات، نجد مثلا أن كلا البنكين التقليدي والإسلامي يوفران خدمة صرف العملات، وصرف العملة للزبون رهين بدفعه للفائدة للبنك التقليدي أو دفعه لثمن الخدمة للبنك الإسلامي، أي أن البنك الإسلامي قام بتعويض مصطلح الفائدة بثمن الخدمة، الشيء نفسه بالنسبة إلى كل المصطلحات الأخرى التي عوضها مهندسو هذه البنوك بمصطلحات بديلة حتى توحي أنها بنوك مميزة ومتفردة ولا تتاجر بالربا المحرمة شرعاً، فاللون الأصفر يبقى أصفر ولو اتفقنا على نعته بالأخضر!!

وقريحة مستغلي الدين سواء عن حسن نية أو عن سوئها لا تتوقف عن مفاجئتنا بابتكارات جديدة في سوق الحلال الذي أصبح يشمل العديد من المجالات، كما توسعت سلعه وخدماته، وآخر هذه الصيحات هو "الحانة الحلال" ! فاللاعب الفرنسي في صفوف بايرن ميونيخ "بلال رايبيري" حزّ في نفسه عدم وجود خمارة للمسلمين خاصة بهم، ففتح في فرنسا حانة بمواصفات إسلامية ! بأضواء خافتة ومشروبات متنوعة من خمر و نبيذ وجعة، مقدمة إلى الزبون في نفس قوارير وكؤوس الخمارات التقليدية لكن الجديد في حانة "رايبيري"

هو خلو مشروباته من الكحول ! بمعنى آخر، أنه إذا كانت الحانات التقليدية هي عبارة عن أماكن يفقد فيها الإنسان بمحض إرادته نعمة العقل إلى حين، فإن الخمارة "الرايبيرية" – نسبة إلى اللاعب نفسه – هي محاكاة للنوع الأول مع ميزة احتفاظ زبونها بنعمة العقل، اللهم إلا إذا كان هذا الزبون مجنونا أصلا!

إن الخوض في موضوع تجارة الحلال أستهدف من خلاله الإجابة عن سؤال يؤرقني منذ إقامتي في الديار الأمريكية، والسؤال هو : هل إن منتج السلعة أو الخدمة الحلال على حذر من منتوجه فيضمن عدم وقوع المسلم في المحظور وأن آخر ما يفكر فيه هو الربح المادي؟ أم العكس هو الصحيح؟ وبذلك نقول إن منتج السلعة أو الخدمة الحلال استغل الدين لتحقيق الكسب المادي!

وللإجابة عن هذا السؤال يكفي الوقوف فقط على حقيقة بعض الأمور التي شاهدتها بنفسي في هذه المنطقة من أمريكا والتي تعجّ بالجالية المسلمة وبتجارة الحلال كذلك، فالمركز التجاري "ريستوران ديبو" المتخصص في بيع السلع لمطاعم المنطقة، والذي يوفر لزبنائه المسلمين أرباب المطاعم مختلف أنواع اللحوم الحلال التي في أغلبها لحوم مستوردة من أستراليا، نجد من بين هذه اللحوم المعروضة داخل هذا المركز لحوم الماعز مقطوعة أطرافا صغيرة في أكياس زنة كل منها كيلوغرام واحد مطبوع عليها كلمة "حلال" باللغة العربية، لكن ما يثير الانتباه، هو وصفة مقترحة من قبل الشركة أصل هذا اللحم بخصوص طريقة تحضيره، مدونة على الكيس نفسه، حيث تحيلك إلى مجموعة من المقادير تحتاجها إلى تلك الوصفة من بينها كأسا نبيذ أحمر ! فهل الشركة التي تذبح وفق الشريعة الإسلامية لا تعلم أن

هذه الشريعة تحرم الخمر؟ ! المركز التجاري نفسه يعمد أحيانا إلى التخلص من السلعة القريبة من تاريخ انتهاء صلاحيتها بخفض أثمانها بشكل مغر، فقد تجد قطعة لحم غير حلال أضيف إليها ملصق كلمة "حلال" بشكل مفضوح، حيث يظهر الملصق جديدا كأنه تم إلصاقه بالكاد، والغاية تبرر الوسيلة للتخلص من السلعة قبل فسادها ولو على حساب معتقدات الناس!!

في ظل الأزمة الاقتصادية التي تهدد مجموعة من المطاعم الامريكية بالإغلاق، لجأت بعض هذه المطاعم لزيادة مبيعاتها إلى إضافة الأكلات الحلال في لوائحها لإغراء الزبناء من المسلمين، لكن المثير للانتباه، هو أن عمال هذه المطاعم لا يرون حرجا في استعمال نفس السكاكين والملاعق والأواني في تحضير الأطعمة الحلال والأطعمة التي تحتوي على لحوم الخنازير جنبا إلى جنب !! وتزداد الصورة وضوحا أكثر في بعض المطاعم التي تروج للأكلات الحلال إلى جانب متاجرتها في الخمور!!

حيلة المركز التجاري "ريستوران ديبو" وبعض المطاعم الأمريكية لاستمالة المسلمين الذين لا يقتاتون بحسن نية إلا من الحلال، ليست مستوى الإشكال نفسه الذي يطرحه استغلال المسلم لأخيه المسلم باسم الدين، وصور ذلك في أمريكا عديدة .ففي حظائر الحيوانات المنتشرة في ضيعات بعض المسلمين ضواحي مدن "فرجينيا"، يتم فيها رمي الثور برصاصة في جبهته دون أن تخترق عظم الجمجمة فيسقط على إثرها الثور فاقدا للوعي، ليتم ذبحه بسهولة من قبل شخص واحد، وهي الطريقة نفسها المعتمدة في مزارع من نسميهم كفارا ! فأين الفرق في الذبيحتين ؟!

كانت محلات الحلال في منطقة "فرجينيا" بالأمس القريب تتزود باللحوم من الضيعات الواقعة بضواحي المنطقة، وكانت تباع هذه اللحوم طرية وطازجة، وهو إجراء مبرر معقول لروّاد هذه المحلات الذين يفضلون شراء هذا اللحم "الحلال" الطري عوض شراء اللحم نفسه "الحلال" من المركز التجاري "ريستوران ديبو" بدعوى أن لحوم هذا الأخير مجمدة لأسابيع، وهم على حق في ذلك، فلا يستوي المجمد والطري، لكن أرباب المحلات الذين يجلبون اللحوم من الضيعات الإسلامية عندما بدأ الفارق يظهر لهم بين أثمنة لحوم تلك الضيعات ولحوم المركز التجاري السابق بسبب جشع أصحاب الضيعات، عمدوا إلى شراء اللحوم الحلال من هذا المركز التجاري والتخلي عن شرائها من الضيعات، لكنهم في آخر المطاف يبيعونها بأثمنة باهضة كأنها لحوم طرية جلبت من تلك الضيعات، وهذا ما يطرح أكثر من علامة استفهام، فإذا كان التاجر المسلم قد تخلى عن التزود باللحوم من ضيعة أخيه المسلم بدعوى جشع صاحب هذه الضيعة الذي يرفع أثمان ذبائحه، فماذا عن هذا التاجر الذي يلجأ إلى المركز التجاري لاقتناء الأرخص وبيعه غالياً للاغتناء على حساب أخيه المسلم ؟؟!

أصحاب هذه المحلات والذين يتركزون خصوصاً في حي "سكاي لاين" بين "أرلينغتون" و"الإكسندرية" تمثل محلاتهم صورة من صور جشع التجار الذين يدّعون الإسلام من أجل تحقيق كسب مادي يزول بفنائهم، فمحلاتهم تمثل أنموذجاً للتلاعب في الأسعار، ويزداد هذا التلاعب في كل مناسبة دينية حيث يتم استغلال الإقبال على هذه المحلات في تلك المناسبات لرفع الأسعار، والأمر عاينته شخصيا، فلا أتسوق أصلا من هذه المحلات، ورغم ذلك فإنني أرتادها كلما أردت أن أرسل حوالة لعائلتي، ففي إحدى المرات تفاجأت بوجود

زيوت الزيتون المغربية، ورغم أن أثمنتها فاحشة فقد قررت أن أعود بعد بضعة أيام أي قبيل رمضان لأقتني بعضا منها، لأتفاجأ بعد عودتي تلك أن صاحب المحل استغلّ هذه المناسبة الكريمة لإضافة دولارين لكل لتر من تلك الزيوت، بل شملت الزيادة كل السلع، واحتفظت هذه السلع بأثمنتها تلك حتى بعد مرور تلك المناسبة، كما عاينت الأمر كذلك فيما بعد، والمخجل بل المخزي هو أن بعض المحلات التي فتحت في المنطقة ومملوكة لشرق آسيويين مثل "غلوبال ماركت" تبيع المنتوجات المغربية والمشرقية نفسها بأثمان معقولة ولا تتأثر هذه الأثمان بحلول أي عيد من الأعياد، فلتر زيت الزيتون المغربية من نوع "العافية" يصل فرق ثمنه بين هذا المحل المملوك للكافر ومحلات "سكاي لاين" المملوكة للمسلمين إلى ثلاثة دولارات، رغم أن المسافة التي تفصل بين المتجرين لا تتعدى كيلومتراً واحدا، والسلع تم استيرادها من البلدان نفسها.

الأعياد الدينية الإسلامية في الأصل هي مناسبة للتآخي والتآزر بين مختلف أفراد هذا المجتمع الإسلامي، وهي كذلك مناسبة لكل مسلم ميسور لمساعدة أخيه المسلم المعدوم من باب التكافل الديني، إلا أن القاعدة لدى التجار المسلمين هي أنهم غالباً ما يستغلون هذه المناسبة للاغتناء ومراكمة الثروة .ويعتبر عيد الأضحى من أكثر الأعياد التي تبرز فيها هذه الظاهرة، ظاهرة استغلال الدين من أجل الكسب المادي، ففي الديار يستغل مربوّ الماشية وسماسرتها هذا العيد الكريم في تكديس الثروة، ويستعملون كل الحيل لذلك، بدءً من رفعهم الفاحش للأثمان، حتى التسمين المغشوش للحيوان في عيد ديني كان من المفترض أن يتعاون فيه الكل من أجل تمكين الكل من أضحية العيد وليس استغلال الفرصة من أجل الإغتناء غير المشروع.

إنه من البديهي أن يحصل التجار والسماسرة على أرباح نظير خدماتهم وثمن مجهودهم، شرط أن تكون هذه الأرباح بنسبة معقولة تحفظ حق التاجر وحق من انتفع مما اشتراه من هذا التاجر، وهذا ما لم يحترمه انتهازيو المناسبات الدينية، فالاغتناء عن طريق رفع أثمنة أضاحي العيد شيء معروف في كل البلدان الإسلامية مع حلول هذه المناسبة، وللأسف الشديد فقد تم استنساخ هذه الانتهازية من لدن التجار المسلمين في بلاد الغرب – خصوصاً في أمريكا – حيث تلائمهم الليبرالية المتوحشة لهذا البلد، فأصحاب ضيعات الأغنام والعجول في ضواحي "واشنطن" يمثلون هذا النموذج من المسلمين الذين ينتظرون بفارغ الصبر عيد الأضحى كمناسبة لا تتكرر إلا مرة في السنة، لذلك فهم يحترفون الكذب والغش والتدليس من أجل رفع أرباحهم إلى أعلى مستوىً على حساب إخوانهم في الدين والملة وحتى الوطن !! والحمد لله أن الأمر يحدث في أمريكا حيث هناك أصحاب ضيعات "كُفَّار" بجوارهم يفضحون آلاعيب هؤلاء.

ففي ضاحية "واشنطن" اعتاد أفراد الجالية المغربية على ذبح أضحية العيد في ضيعات حيوانية مملوكة لمغاربة ولبنانيين، وأرباب هذه الضيعات لا يخجلون من بيع الأضاحي لذوي النية الحسنة من أفراد الجالية بأثمنة مضاعفة عما هي عليه في مختلف ضيعات ومجازر التراب الأمريكي، كأنهم استوردوها من الديار المقدسة حيث عُلفت على مدار السنة بالحنطة والشعير وشربت من ماء بئر زمزم !! صاحب إحدى هذه الضيعات أطل يوما على إحدى القنوات الإلكترونية يبرر الزيادة الفاحشة لأسعار الأضاحي بارتفاع أسعار الأعلاف، كأنه يشتري الحُملان الصغيرة ثم يقوم بعلفها شهوراً حتى تصبح خرفاناً مكتنزة. وأنا شخصياً

شاهد على شراء هذا الشخص لقطعان الماشية ساعات قبل يوم العيد، الشخص نفسه تباهى يوما بتحقيقه صافي أرباح له في أيام عيد سنة 2008 مقدارها أربعة وسبعون ألف دولار جناها من الزيادة الفاحشة لسعر بيع أضاحي العيد. والغريب أن هذه الضيعة وغيرها من ضيعات المسلمين في المنطقة تعرف إقبالاً كثيفا من سذج المسلمين الذين ارتضوا لأنفسهم مذلة الاستغلال، كأن ثواب الأضحية رهين بشرائها وذبحها في تلك الضيعات، وهؤلاء السذج لو كلفوا أنفسهم عناء الذهاب إلى إحدى الضيعات المملوكة لغير المسلمين بجوار تلك الضيعات لشاهدوا من الفرق ما يصدمهم. أما ظروف عمل عمال صاحب هذه الضيعة، فهم لاتينيون من دون أوراق، يعملون لديه من دون خيار بأجور هزيلة وفي ظروف عمل تجعل الغراب يبدو بالمشيب كحمامة السلام.

لم أحتفل بأضحية العيد مدة طويلة، لأعود للاحتفال بها بعد الزواج، فيوم العيد وبوجود أفراد عائلتي الصغيرة يجعلنا جميعاً نحظى بيوم من المرح ننسى على إثره أيام العمل الطوال، وقد واظبت على الذبح في ضيعة مملوكة لمغربي حتى سنة2014 ، فقررت بعدها خوض التجربة في ضيعة أمريكي "كافر" بعدما انكشفت ألاعيب ابن جلدتنا المسلم لأكتشف الفرق بين ضيعتين ينتميان إلى منطقة نفسها، ففي عيد أضحى تلك السنة اتفق أرباب الضيعات من المسلمين- كما يفعلون دائما - على ثمن موحد فاحش هو مئتان وخمسون دولاراً للرأس، يستوي أمام هذا الثمن الخروف السمين والخروف "القط"، وهو ما أرغمني مع مجموعة من الأصدقاء على الذهاب إلى ضيعة أخرى في ملكية عائلة أمريكية لنكتشف هناك عدالة الأسعار وتقدير "الكفار" لعيد المسلمين الذين لم يستغلوا إقبال مئات من المسلمين- الكفار في نظرهم -للاغتناء على حسابهم، فحددوا وزن الأضحية كمحدد لسعرها، حيث توزن

الأضحية التي يختارها الزبون، وتباع له بدولارين وخمسة وسبعين سنتا للباوند، فسحقاً لجشعنا وهنيئا لهم بعدالتهم.

العجيب في الأمر أن الأمريكيين يحتفلون بعيد يشبه عيد الأضحى عند المسلمين، وهو عيد الشكر، الذي يلتهم فيه الأمريكيون أحد عشر مليونا من الديكة الرومية في حفلات عائلية، و يُعتبر هذا العيد عطلة رسمية في أمريكا يشترك في الاحتفال به سائر الأميركيين بمختلف طوائفهم وأعراقهم، لأنه عيد غير ديني حيث يجتمع خلاله أفراد العائلة على مائدة مليئة بلذيذ الأطباق، و يعود الاحتفال بعيد الشكر إلى أوائل القرن السابع عشر عندما بدأت هجرة الأوروبيين إلى القارة الأميركية هربا من اضطهاد الكنيسة الإنجليزية لهم، حيث تقول مراجع تاريخية إن عددا كبيرا من المهاجرين البريطانيين "البيوريتانيين" هربوا إلى هولندا ومن هناك إلى الساحل الأميريكي مستعملين قاربا خشبيا اسمه "مايفلاور"، وكانت رحلة طويلة وشاقة مات فيها الكثير منهم بسبب التعب والجوع والمرض، وزاد الأمر تعقيداً وصولهم خلال فصل الشتاء مع جهلهم لأصول الزراعة والصيد فتم إنقاذهم على يد اثنين من الهنود الحمر هما "ساموسيت" و"سكوانتو" اللذين شرعا في تعليم هؤلاء المهاجرين الجدد كيفية صيد الطيور والحيوانات والأسماك وزراعة الذرة .وفي موسم الحصاد احتفل هؤلاء المهاجرون بالنعمة التي منّ بها الله عليهم في بلادهم الجديدة، ووجهوا الدعوة إلى الهنود والقبائل التي ينتميان إليها للاحتفال بما سموه حينذاك عيد الشكر وتناولوا فيه الديك الرومي في مأدبة مهيبة استغرقت الليل كله تبادلوا خلالها الأنخاب مع السكان الأصليين من الهنود. ومن هذه الواقعة ورثت أمريكا الاحتفال بعيد الشكر الذي تباع فيه الديوك الرومية على نطاق واسع، و كدرس لمربي الماشية وتجارها في البلدان الإسلامية في عيد الأضحى، فإن الديكة الرومية في

أمريكا التي يصل ثمنها عادة إلى ما بين 99 إلى 129 سنتا للباوند ينخفض ثمنها في عيد الشكر، حيث يصل الإقبال عليها مستويات قياسية إلى 89 سنتاً للباوند، كتشجيع من قبل مربي الدواجن بأمريكا وتجارها للأمريكيين على اقتنائها وعدم حرمان أحد من الاحتفال بهذا العيد ذي الدلالة التاريخية والرمزية لدى الأمريكيين.

وأمام هذه المفارقة العجيبة التي صنع بطولتها الإنسان المسلم الذي لا يرى حرجا في الاغتناء المذموم من جيب أخيه المسلم، فيجب أن لا نلوم الذكاء الصيني الذي كان بارعا ليس فقط في استغلال الدين الإسلامي، بل في استغلال كل دين ما استطاع إليه سبيلا، فنجد شركة صينية تصنع تماثيل بوذا لترويجها في جنوب شرق آسيا، والشركة نفسها تنتج الصلبان لترويجها في أمريكا اللاتينية !كما نجد أيضا شركة أخرى تصنع سبحة إسلامية وكل سبحة مطبوع على كل قطعة من قطعها اسم من أسماء الله الحسنى، وتشحن هذه السبحات إلى مختلف البلدان الإسلامية مع أغشية بكارة اصطناعية لتحظى الفتاة الساقطة في تلك البلدان بفرصة استعادة عفتها من جديد !! إلا أن حسرتي على الصينيين ليست بمقدار حسرتي على المسلمين، لأن الصينيين أهل دنيا ويعملون لدنياهم بكل الطرق التي تضمن لهم لقمة الحياة بغض النظر عن شرعية هذه الطرق من عدمها، أما المسلمون فهم أولى الناس بالزهد في الدنيا وعدم الافتتان بها.

إن سعي المسلمين وراء الماديات لم يكن وليد اليوم أو الأمس القريب، بل هو سلوك تطبّع به أسلافهم حتى قبل ظهور الإسلام فورثوا هذه الصفة أبا عن جد حتى بعد ظهور الإسلام، بل لازمتهم هذه العادة في أزهى عصور هذا الإسلام وفي حضرة خير المرسلين، فانهزام المسلمين شرّ هزيمة في معركة "أحد" بعدما كانوا قاب قوسين من حسم المعركة لصالحهم، لم

يكن إلا بسبب الطمع واستعجال متاع الدنيا، فهذا الانهزام الذي حصده المسلمون في آخر المطاف، حدث بسبب الرماة الذين كلفهم الرسول الكريم بحماية ظهور المسلمين من على جبل "أحد" حيث غادروا مراكزهم قبل الأوان لجمع الغنيمة، وهو ما فطن إليه خالد بن الوليد الذي كان آنذاك يحارب إلى جانب الكفار قبل إسلامه، فدحر المسلمين في تلك المعركة ليأتي الوحي الرباني محملاً المسلمين مسؤولية الهزيمة، لأنهم تخلوا عن رسول الله في المعركة لأجل متاع دنيوي فانٍ بفنائها. وقد حدث هذا في أزهى عصور الإسلام وفي حضرة خير الأنام فما بال هذا العصر، عصر الإغراءات المادية وعصر غابت فيه تعاليم الإسلام في قلوب المسلمين؟ ! وخصوصا في هذه البقعة من الأرض أمريكا موطن الليبرالية المتوحشة، التي تناسب أنانية الإنسان وتشجعه على التصرف على هواه، فهنا يفضل الشخص المسلم الذي يبحث عن عمل أن يعمل تحت امرة أي مُستخدِم شريطة أن لا يكون هذا الأخير مسلماً لأنه أدرى بطمع وجشع أخيه المسلم المجاهد في سبيل تكديس الثروة ولو على حساب حقوق أخيه في الدين، فالمسلم صاحب مشروع يجتهد دائما في جعل رواتب مستخدميه متدنية، كما يتحايل على القانون في سبيل تحقيق ربح سريع. والطامة الكبرى هي أن أغلب هؤلاء المشوهين للدين هم في الغالب متدينون، أكثرهم أتم أركان الإسلام الخمسة بحج بيت الله الحرام، الذي لم يكن إلا مباهاة باللقب الجديد، وسيماهم في وجوههم من أثر السجود تجسده البقعة الداكنة على الجبهة، ومحلاتهم تزين جدرانها لوحات ثمينة زينت بآيات من الذكر الحكيم.

إن من بين أقبح الأشياء في استغلال الدين هو استعمال رموزه من أجل النصب على الناس، كما فعلت تلك المغربية وزوجها اللذان أسسا وكالة أسفار ب"سكايلاين" تحت اسم

"وكالة أسفار الزهرة" واللذان قاما بالنصب على عشرات العوائل المغربية عن طريق تقديم أسعار مغرية للراغبين في اقتناء تذاكر الطيران نحو المغرب، هذه الأسعار تغري العوائل ذات أفراد كثر، وكنت أنا شخصياً ممن نصبت عليهم هذه المرأة في ثلاث تذاكر، إذ تشترط للحصول على تذكرة مخفضة أن يكون الدفع نقدا أو بالشيك حتى تتجنب الدفع ببطائق الائتمان وبطائق الدفع المسبق، انطلت عليّ الحيلة كما انطلت على العديدين مثلي، لأننا صدقنا اللوحات المزينة بآيات من الذكر الحكيم والتي تؤثث فضاء جدران مكتبها، بالإضافة إلى كون هذه السيدة محجبة لا تثير الشكوك.

كل من اقتنى تذكرة من هذه السيدة وزوجها لم يجد أي مشكلة في طريقه نحو المغرب، حيث تم السفر بشكل عادٍ، ولكن وفي أثناء طريق العودة، يكتشف الضحية واقعة النصب بمجرد ولوجه للمطار، حيث لا ينفع عندها الاحتجاج لدى الخطوط الملكية المغربية لكون هذه الشركة ضحية أيضاً لتلك المرأة وزوجها، فجمعت النصابة مائتين وخمسين ألف دولار أغلبها لتذاكر عوائل، وصلت بعض المبالغ التي جنتها من بعضها إلى تسعة آلاف دولار، أرغم أصحابها على إعادة شراء التذاكر من جديد بعد يأسهم من استرجاع أموالهم، وقد وصل نصيب عائلتي الصغيرة من هذا الإحتيال إلى ثلاثة آلاف دولار!

أقنعني الموظفون العاملون في مكتب الخطوط الملكية المغربية في المطار بعدم جدوى الاحتجاج على هذه الشركة، لأن النصابة صاحبة الوكالة حجزت لضحاياها فيها على أن تدفع لشركة النقل الجوي هذه فيما بعد، فأوصلتنا الشركة حتى المغرب، وبعدما اكتشفت الشركة عملية النصب قامت بإلغاء التذاكر المسروقة أموالها من قبل وكالة "الزهرة" لنُرغم على

تأجيل سفرنا حتى نقتني تذاكر أخرى من جديد، وعند وصولي إلى "أرلينغتون" ذهبت مباشرة إلى مقر تلك الوكالة لأجد مكتبها مغلقاً وقد وضع فيه المالك ملصق إعلان للكراء حيث لم يسلم هو الآخر من نصبها .بعد ذلك ببضعة أشهر ألقي القبض عليها في ولاية فلوريدا، فتم نقلها إلى ولاية فرجينيا لمحاكمتها في محكمة "فايرفاكس"، وقد تمكن محاميها من ربح القضية لعدم كفاية الأدلة !من وقتها التجأت إلى الأنترنيت كمكان آمن لشراء التذاكر، فالزهرة مالكة "وكالة الزهرة" أفقدتنا الثقة في كل الوكالات التي يشرف عليها كل شخص جاء من حيث تشرق شمس أمريكا، خصوصاً وأن مغربية أخرى قامت بالفعلة ذاتها وأوقعت عدة ضحايا في عملية نصب جديدة. والغريب في الأمر أن النصابة الجديدة تعمل لدى وكالة "رانديفوترافل" في الشارع نفسه، حيث توجد "وكالة الزهرة" ولم يفصلهما سوى كيلومتر واحد.

والجدير بالذكر أن الإنسان الجشِع قد يدفع أحيانا ثمناً باهضا لجشعه، وقد يكون هذا الثمن أضعافاً مضاعفة لما جناه بجشعه، بل أحيانا قد يكلفه هذا الجشع في نهاية المطاف حياته. وقد كنت شاهداً على أنموذج من هذا النوع من الجشع الذي انتهى بمأساة إنسانية، فقد كان لزميلي الجزائري في العمل صديق يزورنا أحيانا في مطعم جيريس ويسمى "سمير" وهو مثال لعامل مهاجر ناجح، هو جزائري الأصل كذلك من منطقة القبائل. يعمل "سمير" هذا ميكانيكيا، وهو عمل يدر على ممتهنه آلآف الدولارات شهريا في أمريكا، وإلى جانب هذا العمل، فهو أيضاً يمارس مهنة هامشية حيث يتاجر بالسيارات المستعملة، وكلتا المهنتين يجمع منهما "مال قارون"، والمثير في حالة "سمير" هذا هو أنه مهاجر سري، والمهاجر غير النظامي يستطيع أن يعيش بسلام في الولايات المتحدة الأمريكية ما لم يصدر

منه عمل يهدد الأمن القومي لهذه الدولة، خصوصا إذا ما أتقن حرفة وأجاد لغة العم سام، والمشكل الوحيد الذي يعاني منه هذا المهاجر غير النظامي، أنه يكون محروما من زيارة الديار إلا إذا قرر العودة إليها نهائيا مع قطع حبل الأمل في الرجوع إلى أمريكا مجددا!

"سمير" الناجح في حياته المهنية، متزوج وأب لثلاث بنات، لم يسلم رغم ذلك من جانب سيء في حياته، فرغم عمله المحترم والقار والذي يدر عليه أرباحا جيدة، إلا أنه يتصف بالجشع والطمع والهوى الجامح نحو جمع المال وكنزه ليؤمّن به حياته في الجزائر، خصوصا وأنه قرر العودة إليها نهائيا. ثاني عيوبه والذي لا يقل سوءا عن الأول، هو أنه رغم زواجه وإنجابه كما قلت لثلاث بنات، إلا أنه لا يزال زير النساء، يفاخر كثيرا بمغامراته العاطفية!.

نجا "سمير" مرات عديدة من حوادث سير مؤلمة، أشدها قسوة وإيلاما ذلك الحادث الذي تعرض له على مشارف مدينة "بالتيمور" عند عودته من نيويورك في اتجاه واشنطن، لينجو هو من الموت بأعجوبة، وتصاب زوجته وبناته الثلاث بجروح، إحداهن كانت إصابتها حرجة .كل تلك الحوادث ترتبط مباشرة بتهوره أثناء قيادته للسيارة ، أضف إلى ذلك إدمانه على السهر حتى ساعات الفجر الأول، ما يتسبب له بحالات نعاس متكررة تأخذه معها سنة من الغفلة في الطريق ونوم.

إحترف "سمير" الدهاء والمكر كوسائل لخداع ضحياه، فهو نصاب ذكي ومحترف، وصل به كل تلك الصفات الذميمة إلى حد يكاد يكون البوصلة لكل الطامحين لنيل تلك الرتبة، فقد كان يتخذ من مهنته الهامشية كبائع للسيارات المستعملة، وسيلة للوصول إلى جيوب

ضحاياه، خصوصا أصدقاءه ومعارفه ! فمن تكتيكاته التي لا يحسب لها أحد أي حساب : أنه كان يعرض على الزبون سيارة رائعة ليشتريها منه بثمن مقبول، فما أن يقبل الزبون بعرضه ويدفع له ثمن السيارة، حتى يرشده إلى عيب بسيط فيها، كأن يقول له مثلا : إن السيارة بحاجة إلى بُرغ، أو إلى تغيير زيت المحرك، ويعده بإصلاحها خلال ساعات قليلة، وما إن ينصرف من أمام الزبون، حتى يبيعها لزبون آخر جديد، ثم يبحث للزبون القديم صاحب الحق عن سيارة غيرها رديئة ليبيعها له، فيضطر الضحية إلى شرائها منه مرغما بنفس سعر السيارة الأولى الذي دفعه مسبقا، ولا يمكن للضحية رفض العرض في هذه الحالة لأن الرفض يعني خسارة المال والسيارة !

كانت كل الأموال التي جناها "سمير" – المستحقة منها والمختلسة –قد مكنته من شراء آلتي حفر عملاقتين سيستخدمهما في عمله كمقاول حال رجوعه إلى الجزائر.

وقد حدث في يوم من الأيام أن فكر في مغادرة عمله كميكانيكي والخروج نهائيا من منطقة "واشنطن فرجينيا" بعد سلسلة تهديدات تلقاها بالقتل والأذى، ولكثرة ما خلف فيهما من ضحايا، فقرر الرحيل إلى"نيوجيرسي" وهناك التقى بنبيل أحد أبناء منطقته في الديار.

"نبيل" الذي يعتبر من الميسورين ماديا، كان يفكر في إنشاء مشروع ولا ينقصه إلا شريك ذو خبرة، فتقمص "سمير" دور هذا الشريك، فاقترح على "نبيل" شراء محطة للبنزين ويدير فيها "گاراج الميكانيك" على أن يستعيد "نبيل" نصف الأموال التي هي نصيب "سمير" عندما يدر المشروع أرباحاً، ليكون لهما ما اتفقا عليه، فاشتريا المحطة على أساس أن كليهما نصف مكمل للآخر ، الأول نبيل "المال" والثاني "سمير المخ" !! وما إن شرعا في إدارة المحطة، حتى بدأت بوادر الخلاف تدب بينهما، لكون "نبيل" رجلا جادا، أما "سمير" فجل اهتمامه

منصب على الفتيات، يختلق دائماً الأعذار حتى يتغيب عن العمل، وهذا هو السبب الرئيس الذي عجّل بفشل هذا المشروع، فما كان من صاحب الرأسمال إلا أن طالب شريكه بنصيبه من الخسارة، ما جعل الثاني يتوارى عن الأنظار ويعود إلى منطقة "واشنطن".

بذل "نبيل" كل ما في وسعه للوصول إلى الثعلب المحتال "سمير" دون أن يفقد الأمل في ذلك، إلى أن قاده سعيه يوما إلى حيلة ذكية تمكنه بسهولة من الإيقاع بفريسته المتواري عن الأنظار، الحيلة سهلة، وهي عبارة عن فتح حساب على موقع التواصل الإجتماعي "فايس بوك" تحت اسم أنثى مستعار.

دقت الساعة الصفر، ساعة البدء بنصب الكمين الفخ، فأنشأ الضحية "نبيل" حسابا على ذلك الموقع الالكتروني باسم فتاة أمريكية تدعى " كورين" تبلغ من العمر خمسة وعشرين عاما، من ولاية فلوريدا في الولايات المتحدة الأمريكية، مضيفا إليه بعض الصور ليبدو أكثر صدقا ومصداقية، ومغريا بالنسبة إلى الفريسة التي ستتحول في لحظة إلى ضحية.

رمى "نبيل" صنارة صيده كطعم أول، عبارة عن طلب صداقة إلى "سمير"، ليلتقطه هذا الأخير بكل حماس وتبدأ معه الدردشة أياما إستعجل خلالها "سمير" لقاء عشيقته وفارسة أحلامه الإفتراضية، فيما فضل " نبيل" الذي تقمص دور "كورين" التريث قليلا، وهي خطة ذكية تجعله يرغم "سمير" على قول أشياء قد تنفعه أثناء المساومة عليها والتهديد بها إن لم يحصل على ماله، وبدوره فإن "سمير" ذلك الشاب الداهية فائق الذكاء، سقط في شباك المقلب هذه المرة كفارس يسقط عن صهوة جواده بعدما أثخنته الجراح في سوح الوغى.

فحماسه الزائد عن حده الطبيعي، جعله يفقد صوابه ويضيع معه ذكاؤه الخارق، فلم يلتفت إلى ضرورة الطلب من الطرف الآخر أن يكلمه هاتفيا وليس من وراء حاسوب ليتأكد من خلو الأمر من الشبهات!!

لم تدم علاقتهما عبر "الفايس بوك" سوى أسبوع واحد، لتخبر "كورين" – نبيل – "سمير" بأنها ستأتي لمقابلته في فيرجينيا، وأنها ستنزل ضيفة في أحد الفنادق فيها، وطمأنته بأنها ستكلمه فور وصولها إلى هذا الفندق.

هذه السرعة وهذا المستجد جعلا من "سمير" يسبح في بحر من الأحلام الوردية، وينتظر بفارغ الصبر اللحظة التي يعانق فيها بيديه شقراء أمريكية!

كنت أنا وزميلي في العمل عندما أتى "سمير" إلينا في الساعة الثانية ظهرا وقد انطلت على المسكين حيلة تلك الشقراء "كورين" التي تقمص دورها بإتقان "نبيل"، هذا الأخير كان قد كلف قبل يوم واحد من الموعد المحدد إحدى معارفه من النساء الأمريكيات بأن تجري له اتصالا هاتفيا قصيراً بالضحية "سمير" لتعرفه إلى نفسها وتؤكد له أنها هي "كورين" وأنها نزيلة أحد الفنادق في مدينة الإسكندرية في فيرجينيا، وأنها تأمل لقاءه غداً في الخامسة مساء.

فاجأنا "سمير" عندما ولج مقر عملنا بكل أناقته وجمال هندامه على غير عادته فيما مضى، فقد كنا لا نراه إلا بلباس العمل ذي اللون الأزرق الداكن المبقع بزيوت المحرك المستعملة، وحذاء جلدي أسود مهترئ. تغير حال سمير في هذا اليوم من أخمص قدميه حتى شعره، كانت طيات قميصه الأبيض الناصع توحي بأنه اشتراه للتو، وقد قام بثني أكمامه

بعناية حتى تظهر الساعة ذهبية اللون من نوع "الستيزن" في ساعده الأيسر، ولم يغفل أن يُدخل الأطراف السفلى لهذا القميص بعناية في سرواله الرمادي الأنيق الذي ينتهي بحذاء ولو أنه ليس جديدا، إلا أنه عولج بالطلاء ولمع حتى يظهر كالجديد .وكذلك شعره، فقد نال نصيبا من العناية والرعاية، فقد دهنه بمرهم فاخر، وحلق لحيته أفقيا وعموديا، ما جعل وجنتاه تبدوان ناعمتين ككرتي "سيليكون" ليّن، ولم يغفل أن يرش جسده بعطر ثمين يظهر من عبيره أنه من نوع "شانيل". وقبل أن يجلس على الكرسي ويُريح يديه على الطاولة، فقد حرص على مسح الكرسي والطاولة بمنشفة ورقية حتى لا تتعلق جزيئات الغبار غير المرئية بهندامه الأنيق!!.

جلس معنا حتى اقترب موعد لقائه، فانصرف دون أن نعلم أي شيء عن تفاصيل قصته مع عشيقته كورين، وبعد ساعتين تقريبا عاد "سمير" الذي اختلف كليا عن "سمير" الذي غادرنا قبل ساعتين، عاد بخفي حنين، بقميص ممزق الأزرار ووجه عبوس أغبر، وشعر أشعث، إختفت منه خطوط آثار المشط. عاد من دون ساعته اليدوية التي كانت تزين معصمه كما تزين الأساور معصمي العروس، وتلاشى عبير العطر الذي كان يفوح منه، أمام نتانة رائحة العرق القوية التي كانت تتصبب من جسمه كشلال ماء، فجلس في ركن معزول ليصلح نابض حزام ساعته، ليقترب منه صديقه الجزائري – زميلي في العمل – ويتبادلا أطراف الحديث ، فحواه ما سردته في هذه الواقعة من تفاصيل.

لما وصل "سمير" إلى الفندق المعلوم وسط مدينة "الاسكندرية"، عمل على ركن سيارته غير بعيد عن هذا الفندق، وأكمل الطريق راجلاً إلى بابه الرئيس، وما هي إلا لحظات حتى

هوت عليه يدان أحكمتا إمساك قميصه قبل أن يصل باب الفندق، فالتفت ليجد نفسه وجها لوجه أمام غريمه "نبيل"، فخاطبه "سمير" بكل ثقة في النفس:

- تسناني دروگ نرجع واحد خمسة دقايق عندي الدّاخل "رونديڤو" مهم !!!

- رواح عندي رونديڤو ديالك معايا أنا هو "كورين" !!

ما إن سمع "سمير" باسم "كورين" حتى انهارت ركبتاه وأحس بكرامته قد أهينت بعنف، فهوت الأحلام التي بناها على امتداد أسبوع في خياله، والتي سيحققها بلقائه مع "كورين"، الذي لم يكن إلا اسما "وهميا" استعمل طعما لاستدراجه إلى هذا الموقف المذل.

"نبيل" بدوره كان يعلم حجم الخبث والدهاء في قلب "سمير" وكان يعي كل الوعي أن إطلاق سراحه دون الحصول منه على ضمانات لاسترداد أمواله هو مغامرة بحقوقه، فخيره بين استرجاع أمواله أو الشرطة، مع تسليم مغامرات دردشته مع "كورين" لزوجته بعد نشرها في الإنترنيت وإرسالها إلى معارفه!!.

كان "نبيل" يوجه خطابه ووعيده العنيف ل"سمير" في الوقت نفسه الذي يعبث فيه بجسد هذا الأخير ولباسه، وساعده في ذلك قوة بنيته وضحالة بنية غريمه، فبدأ يجره من ثيابه وشعره بعنف ويوجه له بعض اللكمات، وكان صديق "نبيل" يراقبهما من سيارته، وكذلك الأمر بالنسبة إلى بعض المارة الفضوليين الذين وقفوا موقف المتفرجين إلى منظر غير مألوف في الشوارع الامريكية.

ولما شعر صديق "نبيل" بأن هذا الأخير قد تمادى في إهانة "سمير"، تدخل لفك التحامهما، الأمر الذي راق لسمير الذي انصرف مسرعا نحو سيارته، أما "نبيل" فاطمأن لوصول تهديده حدا يجعل من غريمه يفكر جدية في إعادة أمواله له.

وبالطبع، فأمام كثرة ضحايا "سمير" وتلقيه تهديدات منهم، فقد كان ما حدث له مع "نبيل" بمثابة القطرة التي أفاضت الكأس، والقشة التي قصمت ظهر البعير، شعر من خلالها أن "نبيل" جدي في الانتقام منه ولو بقتله، فكان ذلك سببا في تعجيل رحيله نحو الجزائر ليعمل هناك مقاولا كما صمّم على ذلك من قبل، خصوصا وأن أباه وإخوته مقاولون معروفون هناك، ولا بد أن يمرروا له بعضا من ورشات أعمالهم.

فرّ "سمير" وعائلته إلى الجزائر، ولم يمض سوى شهرين حتى وصلنا خبر وقع علينا كالصدمة، فقد توفي "سمير" جراء انزلاق سيارته من سفح جبل وغاصت به في عمق سد مائي، والتحقيقات أكدت أنه قد توفي أثناء قيادته للسيارة بشكل متهور وهو في حال يرثى لها، حيث أعياه التعب وأخذه النوم بغتة وهو في أحد المنعرجات حيث هوت سيارته.

رحم الله "سميرا" وأسكنه فسيح جناته وغفر له ذنوبه .هرب المسكين من الموت على يد أحد ضحاياه، فتربص به الموت حيث لا يوجد أي من ضحاياه، لتضاف زوجته الأرملة البريئة وبناته الثلاث اليتيمات إلى قائمة ضحاياه الجدد، وكما قال الشاعر الجاهلي : وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند.

اللهم ارزقنا حسن الخاتمة، واجعل قلوبنا قنوعة بما رزقتنا ربنا، إنك سميع مجيب الدعاء.

XI

يصل عدد المسلمين في العالم إلى مليار وربع المليار نسمة، وينتشرون من حيث التوزيع الجغرافي في بلدان ينتشر فيها كل ما جاء الإسلام أصلا لمحاربته والقضاء عليه، حتى أضحت هذه البلدان، بلدان مسلمين من دون إسلام، في حين أصبحت بعض البلدان التي ينعتها هؤلاءِ المسلمون ببلاد الكفار، أحسن حالاً وأقرب إلى تطبيق مبادئ الإسلام وتعاليمه دون قصد.

ورغم هذا التعداد الهائل للمسلمين، حيث يشكل الإسلام ثاني أكبر ديانة في العالم بعد المسيحية من حيث عدد الأتباع، إلا أن المسلمين رغم ذلك لا يشكلون كتلة منسجمة ولا إخوة لبعضهم بعضاً كما يجب أن يكونوا أصلا، حيث ينقسمون إلى مجموعات وجماعات،

تمزقهم الأحزاب والفرق، تصل الخلافات فيما بينهم أحيانا إلى حد تكفير بعضهم بعضاً وإهدار بعضهم لدم الآخر، وهذا الاختلاف فيما بينهم ناتج عن الاختلاف في تفسير النصوص الدينية الذي يتباين من فرقة إلى أخرى.

ويمكن القول أن المسلمين في مختلف بلدان العالم – وإن كانوا يتفقون حول العديد من الأمور والأحكام النظرية في الدين – فإنهم من زاوية الممارسة لا يوحدهم أي شيء بالكيفية نفسها التي توحدهم بها بعض الشعائر– كونها فقط سهلة التطبيق –بغض النظر عن طوائفهم وفرقهم، كالامتناع مثلا عن أكل لحم الخنزير، حيث عومل حكم تحريم هذا اللحم بالقدر الذي يستحقه كأمر إلهي استجاب له كل المسلمين على وجه الأرض –حتى من لم يطبق تعاليمه الدينية منهم – بالصرامة في عدم الاقتراب منه واستهلاكه .والمفارقة العجيبة تكمن في وجود أحكام في هذا الدين أكثر أهمية من مجرد الامتناع عن أكل هذا اللحم، لكنها لم تحترم بتلك الصرامة عينها التي عومل بها لحم الخنزير، وهذا يمثل وجها من أوجه الانتقائية لدى بعض المسلمين في تطبيق أحكام وشرائع دينهم، حيث يعمدون إلى انتقاء أسهل الأحكام تطبيقاً، ويتم التعامل معها كقطب الرّحى وكركن من أركان الدين، والذي من دونه بطل كل الدين في نظرهم ! والسؤال المطروح في هذه الحالة يتمحور حول السر في انتشار كل العادات المذمومة والمحرمة بأحكام دينية في المجتمعات الإسلامية، في حين يتم التعامل مع بعضها بصرامة زائدة كما لاحظنا في حالة تحريم لحم الخنزير؟

إن الأمر هنا يتعلق بضرورة التمييز بين ما يغري النفس وما لا يغريها، فما يغريها يتم التساهل معه من قبل أفراد المجتمعات الإسلامية حتى ولو كان إثمه عظيماً وأولى بالابتعاد عنه، أمّا ما لا يغري النفس، فيتفق الأفراد في هذه المجتمعات دون سابق إنذار على نبذه بقوة وبشدة تعوضهم النقص في التعامل بالصرامة مع الأحكام الأخرى الأحق والأولى بهذه الصرامة. فمن أسهل أحكام الدين الإسلامي، تلك الأحكام الإلهية التي تأمر المسلمين

بالابتعاد عن أشياء لا تغري النفس بغض النظر عن الحكمة في ذلك، ويدخل لحم الخنزير في إطار هذه الأحكام، فالامتناع عن أكل لحم الخنزير أو حتى أي لحم من اللحوم الحيوانية الأخرى، أمر سهل القيام به مادامت هناك بدائل أخرى تعوض هذا الحرمان؛ فلا ضير إن مات الإنسان ولم يتذوق قط لحم الخنزير، وقد يموت دون أن يتذوق لحوم حيوانات اخرى حلال أكل لحومها في الدين ولم تسنح له الفرصة لأكلها، فقد أموت أنا شخصيا دون أن أتذوق لحم الزرافة والنعامة واللاّما.

صرامة المسلم مع حكم تحريم لحم الخنزير في مقابل تساهله للعيش وسط أكبر الكبائر ويتغاضى عنها، هو وجه من أوجه نفاق المسلمين من ناحية الممارسة الفعلية لأحكام الدين، وكما تقدّم سابقاً، فتعتبر ظاهرة الإقبال على استهلاك اللحوم الحلال دون غيرها في أوساط الجالية الإسلامية في الدول الغربية وجهاً آخر من أوجه النفاق الديني، ووجهاً من أوجه الانتقاء على الهوى من الدين الذي هو في الأصل كلٌّ لا يقبل التجزيء، فمعظم المسلمين هنا في أمريكا – حيث أنتصب كشاهد عيان –بدأو يتعاملون مع استهلاك اللحم الحلال كضرورة دينية رغم أن فكرة "اللحم الحلال" هي فكرة تجارية محضة ومستجدة تعامل معها المسلمون– الذين انطلت عليهم حيلة مبتدعيها – بجدية مفرطة. رغم أن كل اللحوم الأخرى في الأسواق الأمريكية – عدا لحم الخنزير – يتراوح الحكم في شأنها حسب اجتهاد الفقهاء كأدرى الناس في الامر، ولا يصل قط إلى حكم المحرّم. وكشاهد عيان فإنني سأحاول إفراز بعض من مظاهر الشرود الذي يقع فيه المتشددون في استهلاك اللحوم الحلال دون غيرها من اللحوم الأخرى، خصوصا أولئك الذين يعتقدون أنهم سلكوا سواء السبيل فيما يخص تطبيق أحكام الدين، ولم يعد ينقصهم سوى ان يقتاتوا من الذبيحة الحلال كآخر شيء يجعلهم يصلون إلى درجة الكمال في ما يخص تطبيق شعائر الدين.

فالمهاجر المسلم الذي لا يأكل إلا اللحم الحلال ابتغاء مرضاة الله – كما يعتقد–، قد يكون عاملاً في مطعم، ولا مفر له من بيعه للحوم الخنازير وبنسبة كبيرة. وقد يتاجر أيضاً في الخمور، فكيف يستقيم الامتناع عن لحم متأرجح حكمه اجتهادا بين الكراهة والاباحة وقبول العمل في مستنقع المحرّمين!؟

المهاجر المسلم الذي لا يأكل إلا اللحم الحلال ابتغاء مرضاة الله –كما يعتقد–، قد يعمل كسائق تموين للمطاعم بالسلع، فينطبق عليه ما ينطبق على العامل في المطعم، فمن الوارد جداً أن ينقل لحوم الخنازير والمشروبات الكحولية نحو المطاعم، فيصبح بذلك من الملاعين العشرة إن كلف بنقل الخمور نحو المطعم؟!

قد يتبرأ المهاجر المسلم – الذي يرى استهلاك اللحم الحلال واجباً دينياً– من تلك المهنتين، فيعمل كسائق تاكسي فيظن نفسه قد اجتنب الوقوع في المحظور، فيكون بذلك كمن خاف من إثم بسيط فيقع في محظور إثمه أعظم. فسائق التاكسي يرتكب يومياً عشرات المعاصي، والسبب أن البعض من زبائنه فتيات ونساء، والخلوة بالمرأة الأجنبية حرام شرعاً، وقد قيل في هذا الأمر: إنه إذا اختلى رجل بامرأة كان الشيطان ثالثهما. والطامة الكبرى أن الأمريكيات فاتنات وكاسيات عاريات حتى في زمهرير الشتاء يقتصرن على تنورة قصيرة بشكل تبرز معها سيقانهن العارية، وبمجرد أن تفتح باب السيارة وتضع رجلها الاولى داخلها للركوب، يكتشف السائق الأكول للّحم الحلال ابتغاء مرضاة الله، هل هذه الزبونة ارتدت التّبان أم لا!!

وقد يجد هذا العامل المسلم ضالته لتجنب الوقوع في المحظور بالعمل في محل تجاري أو مطعم إسلاميين، وفي هذه الحالة –وطبقاً لما سبق وقلنا– فإن هذه المحلات والمتاجر والمطاعم التي تختفي وراء ثوب الإسلام، هي في الحقيقة أكبر افتراء على هذا الإسلام، حيث يُستغل فيها هذا الدين العظيم من لدن أرباب هذه المحلات، فهم غشاشون كذابون ومطفّفون،

تفضح محلات الكفار بجوارهم مكرهم ودهاءهم. وبذلك يكون العامل في هذه المحلات جزءاً من هذا المكر والخداع.

قد يجتهد البعض في العيش حيث تنتفي الشبهات، فسائق شاحنة توصيل سلع غير محرمة، أو بنّاء أو موظف بلدية، قد يحتاج في يومٍ ما إلى شراء منزل أو سيارة جديدة أو تجهيزات منزلية. وهنا سيحتاج إلى قروض، والقرض هنا رهين بأن يكون الراغب في الحصول عليه ذَا تاريخ جيّد ونظيف في الاقتراض ودفع أقساط القروض في وقتها.

وموقف الشرع من القروض الربوية واضح- مع وجود استثناءات في المواقف الفقهية حول هذه المسألة وهي مواقف لها حججها المحترمة-، حيث تحاصره هذه القروض المثقلة بالربا الحرام، لكن المهاجر المسلم -مع ذلك- قد يتحاشى أيضا هذه العقبة بالاعتماد على التمويل الذاتي في شراء السلع المعمرة كحل للهروب من وزر هذا الإشكال .لكن العقبة التي لا يستطيع أحد من هؤلاء القفز عليها والفرار من واقعها هي دفع الضرائب، فكل المسلمين على أرض أمريكا -حتى الذين أقاموا الحفلات الباذخة لمجرد حصولهم على الجنسية الأمريكية- يعتبرون هذا البلد عدواً للأمة. وهنا يطرح السؤال عن مدى شرعية دفع ضرائب تستقوي من خلالها دولة كافرة عدوة للأمة، وهو التبرير الذي اعتمد عليه أسامة بن لادن في هجومه على الأبرياء في برجي التجارة العالمية، لكونهم -حسب اعتقاده- يساهمون بالضرائب في إنماء اقتصاد أمريكا، التي تشكل عدوة الأمة الإسلامية، لذلك وجب قتلهم لأنهم جنود بطريقة أخرى!!

ومن المواقف الطريفة والعديدة التي كنت شاهدا عليها هنا في أمريكا، والتي تبين بجلاء حجم الانتقائية التي يمارسها المهاجر المسلم في تطبيق أحكام الدين بالتمسك بقشوره وإتيان ما يجب الابتعاد عنه كشيء محرّم، أذكر أنه في زمن عملي في مطعم "بابا جونز" للبيتزا الذي يديره المصري "أنيس" كان يتردد علينا رجل مغربي سبق وأن عمل في ذلك المطعم

وغادره بعدما وجد عملاً أفضل، وللعلاقة الجيدة التي كانت تربطه مع عمال المطعم ومديره، فقد كان يأتي أحيانا لكي يحضر لنفسه بيتزا، وعندما يأتي لأجل ذلك، فلا يسمح لأحد من العمال أن يساعده في تحضيرها، لأن المطعم يحتوي على لحوم الخنزير، لذلك فهو حريص على أن لا تتسرب حتى رائحة لحم الخنزير إلى البيتزا خاصته. يدخل إلى المطبخ، فيشمّر عن ساعديه، ثم يبدأ بغسل كل الأواني التي سيستعملها في التحضير، بدءاً من الصفيحة الغربالية حتى السكين الدائري الذي سيستعمل لقطعها، فيغسل كل هذه الأواني بالماء الساخن والصابون مرات عدة كما تغسل أدوات الجراحة في المستشفيات، وبمجرد ان ينتهي من تحضير البيتزا ويقوم بوضعها في الفرن، يعتصم أمام هذا الفرن ويفرض عليه حصاراً مشددًا، بحيث لا يسمح لأحد أن يضع فيه أي بيتزا أخرى حتى يطمئن لخروج البيتزا خاصته من الفرن، حرصا على أن لا تتلوث سماء بيتزاه داخل الفرن بدخان لحوم الخنزير!! ولا يكترث لأحد رغم أن بيتزاه مجانية !

دخل يوما إلى المطعم، وبدأ في السيناريو المعتاد حتى وضع بيتزاه في الفرن ثم انتبه لزبونة أمريكية شقراء فاتنة تنتظر من يتقدم لخدمتها في المطعم، فلما لمحها صديقنا وهو بالمناسبة متزوج وأب لطفلين، هرول إليها مسرعاً بعد أن صرخ في وجهي متوعداً:

- عانداك دير شي حاجة فالفران قبل ما تخرج البيتزا ديالي!!

كان ينظر إليَّ وهو يخاطبني بوجه مقطّب عبوس، ولما اطمئن لوصول رسالته إلي، استدار نحو الشقراء وتحول خلالها وفي رمشة عين ذلك الوجه العبوس الذي واجهني به إلى وجه بشوش تغمره ابتسامة عظيمة تخرج من أعماقه، وباحترام زائد في الخطاب:

- هاي !! هاو آر يو !هاو ماي آي هيلبيو مام ؟!

أرسل لي طلبها عبر الحاسوب، واستغل الوقت المستهلك لجاهزية طلبها هذا في مغازلتها إلى أن سلم لها طلبها بكل لباقة وبمنتهى الاحترام، فظل يراقبها وهي متجهة صوب الباب للخروج، وبمجرد أن أغلقت الباب وراءها :

-   ويلي ويلي أ محمد شتّي الزين كيداير شتّي الترمة ديال الصّح!

وَيَا لمفارقة من حرص قبل قليل على أن لا تمر مجرد سحابة بخار لحم الخنزير فوق بيتزاه خوفا من الله، وإذا به يسعى بإلحاح خلف واحدة من أكبر المعاصي. وأذكر كذلك صديقاً مقرباً لي في السنوات الأولى من إقامتي في أمريكا، كان يسكن بجواري وينحدر من إحدى المدن القريبة من أكادير، كنت أحلق شعره دورياً لإتقاني الحلاق، فكانت كل مناسبة أقوم فيها بحلق رأسه فرصة للثرثرة معه، وقد حدث يوما في أحد جلسات الحلاقة أن تقمص دور الواعظ المرشد ، وكان درس ذلك اليوم حول اللحم الحلال، غادر المغرب وهو لم يتجاوز في دراسته مستوى الثامنة أساسي، فأخذ يخوض أمام حضرتي في دروس الفقه والاجتهاد، يوصيني بأن لا أستهلك غير اللحم الحلال، وأن أتجنب غيره من اللحوم الأخرى لأنها حرام!

من يسمع دروس هذا الشخص يظن أنه يعيش حياته داخل دائرة ما شرعه الله لعباده الصالحين، إلا أنه في الحقيقة غير ذلك، حيث يعمل نادلاً وساقياً في أحد أفخم الفنادق في الحي الراقي "كريستال سيتي" الموجود جنوب أرلينغتون، وقد طرد بعد عدة سنين من العمل هناك لأنه ضبط متلبساً بالسرقة، اختلس أموال الفندق حيث يعمل، والاختلاس كان شبه يومي ولمدة تربو على أكثر من عشر سنوات، لم يقبض عليه متلبسا حتى تمكن من شراء شقتين في فرجينيا، مع العلم أن كلفة الشقة الواحدة في هذه المنطقة تتجاوز ثلاث مئة ألف دولار، بالإضافة إلى تشييده لعمارة في مدينته في المغرب، وحيازته لقطعتي أرض في منطقة راقية في مدينة أكادير، وهذا ما صرّح لي به شخصياً وما خفي أعظم .!!

إن مواقف سياسة الكيل بمكيالين لدى بعض المسلمين المهاجرين -وحتى في الديار- عديدة جداً، وأذكر أيضا أن صديقا كان يعمل معي في مطعم "ماجيانوز" كنادل، في الوقت الذي كنت أعمل فيه كمحضر للقهوة، فكان هذا الصديق يجلس معي في الزاوية حيث أعمل بانتظار حضور الزبائن إلى إحدى موائده الشاغرة، وقد صادف أن وجدني يوماً

آكل كعكة "التيراميسو" فأمرني أن لا أقتات منها أبداً لأنها ربما تحتوي على مادة "الجيلاتين" التي هي عبارة عن بروتينات غير كاملة على شكل مادة هيلامية يتم إنتاجها بالغلي الطويل لسيقان الحيوانات وجلودها وخصوصا الخنازير، وصديقي هذا الذي يخاف من استهلاك مادة مستخلصة من سيقان الخنازير وجلودها خوفا من الله، لا أدري أين يخفي خوفه من هذا الله، عندما ينزل ضيفا عند امرأة خليجية في بيتها ثلاث مرات في الأسبوع، ويعاشرها معاشرة الأزواج!

وأخيراً وارتباطاً دائما بموضوع لحم الحلال، فصرامة المسلم المهاجر في فرز الحلال والحرام –في اعتقاده– في اللحوم، لا يجب أن يكون في أمريكا أصلاً، بل في الموطن الأصلي لهذا المهاجر، ففي المغرب، قد تكون الذبيحة التي تباع عند الجزار قد ذبحت وفق الشريعة الإسلامية، لكن المجازر التي ذبحت فيها ومسار طريق هذه الذبيحة نحو هذا الجزار، غالبا ما تغيب فيه شروط السلامة، ما يشكل خطورة على صحة المواطنين، وهو الامر الذي يجعل من هذه الذبائح محرمة، لأنها في حكم الموبوءة المحرمة أصلاً لخطورتها على الصحة كذلك، هذا من دون أن نتحدث عن الذبيحة السرية ونقانق الكلاب والقطط والحمير، والتي سمعنا عنها كثيراً، وربما استهلكنا لحومها دون درايتنا في مجتمع يلهث وراء الربح ولو على حساب صحة وكرامة المواطنين. وهي أشياء يستحيل وجودها في أمريكا حيث الرقابة الصارمة وسيف القانون الحاد.

* * * * *

يقال إن أمريكا هي بلد الحرية والتسامح الديني، والكلام نفسه يردده المسؤولون المغاربة بخصوص المغرب .والفرق بين البلدين فيما يخص هذين المعطيين، هو أن الحرية والتسامح الديني في المغرب هما مجرد غوغاء وشعارات يرددها المسؤولون لإخفاء الوجه القبيح لواقع الحرية

والتسامح الديني في البلاد، بينما الحرية والتسامح الديني في أمريكا فهما واقع وممارسة، حتى إذا تحدث عن هذا الأمر مسؤولون في هذه الدولة بغرض التباهي، فإنهم على حق، لأن حديثهم ليس ضرباً من الخيال أو أحلاماً يرجون تحققها، بل هو واقع ملموس لا ينكره إلا جاحد.

والحرية كما يعرفها "جون لوك" هي "التحرك ضمن القوانين الطبيعية، وإمكانية اتخاذ القرارات الشخصية والقرارات بشأن الملكية الخاصة دون قيود كما يريد الإنسان، ودون أن يطلب هذا الإنسان الحق من أحد، ودون التبعية لإرادات الغير أيضا" . وهذا التعريف ينصرف –حسب جون لوك– على الحرية الكاملة المطلقة، ولكن الحرية في الواقع المعاش –وكغيرها من المفاهيم– ليست شيئا مطلقا، بل تنتهي حيث تبدأ حرية الآخر، ولهذا وجد القانون لتنظيم ممارسة الأفراد لحريتهم الشخصية والمشتركة.

ومن هنا، ورغم المكاسب التي حققها المواطن الأمريكي فيما يخص ممارسته للحرية في حدودها القصوى التي يجب أن لا تتجاوز الخطوط الحمراء التي رسمها لها القانون، فإن ممارسته لهذه الحرية لم يسلم من الانتقادات خصوصا من طرف مواطني الدول ذات الأنظمة الديكتاتورية التي تكنّ العداء لأمريكا، ومنهم طبعاً مواطنو الدول العربية والإسلامية، الذين يرزحون تحت أنظمة تحصي حتى أنفاسهم، ثم يفترون على ممارسة المواطن الأمريكي للحرية، عوض الضغط على حكومات بلادهم لإرغامها على محاكاة ما وصلت إليه أمريكا بخصوص صيانة حرية مواطنيها وحفظ حقوقهم .فالذين ينتقدون الحرية في أمريكا ولم تطأ قدمهم أرضها، هم معذورون في مواقفهم ما داموا لم يجربوا العيش في الضفة الأخرى التي يفترون عليها بمواقف جاهزة يرددونها كأنها مسلمات لا تسقط، لكن المشكلة تكمن في ذلك الشخص الذي غادر بلاده في شبابه فاستقر في أمريكا ولم يحسّ بالفرق الشاسع، فينتقص من الحريات في أمريكا كأنه قد جاء من المدينة الفاضلة حيث الحرية والعدالة المطلقتان!

وتتجلى مظاهر الترويج أو الدعاية التي يعتمدها هؤلاء في تقييمهم لواقع الحرية في أمريكا، في اختزالهم لها دائماً في حرية "التّعري" المتاحة في أمريكا، فيفهم من هذا المنظور –حسب المروجين– له أن ممارسة الحرية في أمريكا رهين بالتعرّي القسري كتأشيرة لممارسة باقي الفروع الأخرى للحرية. وما غاب عن هؤلاء، هو أن مظاهر التعري في أمريكا هي فقط أنموذج من النماذج العديدة لممارسة الحرية، فكما يطيب للبعض أن يكسو عورته حتى يغدو كالأسكيمو، فمن حق أي كان أن يتعرّى ما لم يصل هذا التعري إلى درجة الإخلال العلني بالحياء بمفهومه عندنا في المغرب، حيث إن التعري في أمريكا مشروط بعدم ظهور الإسْت والعضو الجنسي وحلمتي الثدي بالنسبة إلى الأنثى!!

الجانب الذي لا يستطيع منتقدو الحريات في أمريكا الخوض فيه، هو جميع فروع الحرية الأخرى المكفول ممارستها للأفراد والجماعات بمقتضى القانون ومعاقب عليها بمقتضى هذا القانون في حال انتهاكها، حتى ولو كان المدّعي شخص في أدنى مراتب السلم الاجتماعي والمدّعى عليه رئيس أمريكا نفسه، فالقانون الأمريكي يضمن للمواطن الأمريكي والمهاجر المقيم إقامة شرعية حق الحياة، وحق التعبير، وحق انتقاد الوضع القائم، وانتقاد حتى رئيس الدولة دون التعرض للمساءلة، كما يضمن لهم حق العيش بالأسلوب الذي يرونه ملائما لحياتهم، وغيرها من الحقوق التي لا يستطيع منتقدو الحرية في أمريكا الخوض فيها، جهلاً بها أو تجاهلاً لها، لأنها غير متوفرة لهم في بلدانهم ولن تتوفر حتى في المدى البعيد .وصحيح فالحرية في أمريكا تعتريها نقائص وغير كاملة –فالكمال لله وحده– إلا أنها في طريق التطور والتكييف، كما أن –ورغم هذه النقائص والثغرات– الفرق بين الحرية في أمريكا وباقي الدول العربية والإسلامية كالفرق ما بين السماء والأرض.

تعتبر حرية التديّن من الحريات التي ضمنها القانون الأمريكي في أسمى قوانينه ألا وهو الدستور، وهي حرية فعلية يمارسها المواطنون الأمريكيون والمهاجرون بكل حرية ومن دون قيود، وهي حرية ضرورية لهذا المجتمع، لأنه أصلاً عبارة عن فسيفساء من الأديان المختلفة، وجب ضمان حق كل فرد في ممارسة شعائره الدينية بكل أريحية، كما أن لكل جماعة دينية الحق في بناء دور العبادة الخاصة بها شريطة سلك المساطر القانونية والإدارية الخاصة والتي لا تميز بين دين وآخر.

وقد شاءت الأقدار أن أسكن في مدينة "أرلينغتون" بمحاذاة مدينة "فولس تشيرش"، هذه الاخيرة عبارة عن مدينة صغيرة تحيط بها مدن "أرلينغتون"، "الإسكندرية"، "ماكلين"، و"فايرفاكس"، وهي مدينة تمثل أنموذجا من نماذج التعايش الديني في أمريكا، إذ تعج بمختلف دور العبادة لمختلف الأديان، وفيها يوجد كذلك مسجد "دار الهجرة" أكبر مساجد المسلمين في فرجينيا، والذي تشرف عليه المملكة العربية السعودية. والغريب في هذا التعايش الديني بين مختلف مكونات المجتمع الأمريكي هو أن بعض الأقليات المتطاحنة داخل الوطن الواحد بسبب الدين، تعيش جالياتها جنباً إلى جنب في أمريكا في غياب تام للمشكلات التي تعرفها هذه الجماعات في بلدها الأم.

وتستفيد الجالية الإسلامية -كغيرها من الجاليات الأخرى- من حرية ممارسة الشعائر الدينية وحق إنشاء دور العبادة، حيث تنتشر في منطقة "واشنطن فرجينيا" عدة مساجد أشهرها مسجد "دار الهجرة" في "فولس تشيرش"، ومسجد "واشنطن" في شارع "ماساشوستس" . كما تنتشر في المنطقة أيضا مساجد للشيعة كمسجد "فرانكونيا"، ومسجد الإمام علي في "سبرينغفييلد"، بالإضافة إلى عدد من المساجد ودور العبادة الصغيرة الأخرى والمنتشرة في مناطق متفرقة في المنطقة. ويستفيد المسلمون كذلك في هذه المنطقة من امتياز كراء قاعات لتحويلها إلى أماكن للعبادة مؤقتا، خصوصاْ في شهر رمضان لتخفيف

الضغط عن المساجد الأخرى .وتتجلى أسمى صور التسامح الديني الأمريكي تجاه المسلمين في الخطوة التي اتخذتها بعض الكنائس في هذا البلد، والتي تمنح للمسلمين مقراتها لإقامة صلاة الجمعة خصوصاً في الأماكن النائية عن المساجد، فغير بعيد عن مقر مطعم "جيريس"، وبالضبط في حي "رازلين" الراقي، يستفيد المسلمون الذين يعملون في هذا الحي وجواره من فرصة إقامة صلاة الجمعة في كنيسة هذا الحي الوحيدة حتى لا يضطرون إلى ترك أعمالهم وقطع مسافة عدة كيلومترات للوصول إلى المسجد.

من هنا يتضح لنا أن الحرية الدينية في أمريكا ليست شعاراً للاستهلاك فقط، بل هي – إلى جانب ذلك– واقع وممارسة، وشيء موجود على أرض الواقع، فهل نحن في المغرب نستطيع أن نتعامل مع غير المتدينين بدين الإسلام بمثل ما تعامل به أمريكا المتدينين بغير دينها؟

هل نستطيع في المغرب منح تراخيص لمسيحيين أو أي جماعة دينية أخرى لبناء دور عباداتها؟ والأمر هنا لا يتوقف على منع السلطة لإعطاء ترخيص، بل يمتد كذلك إلى المواطنين الذين سيرفضون إقامة أي دار للعبادة غير المساجد، وذلك في انتهاك واضح لمبدأ المعاملة بالمثل وتكريس جلي للأنانية الدينية للمسلمين تجاه غيرهم من المتدينين بالديانات الأخرى. فلحسن حظ أمريكا ودول الغرب الأخرى التي تحتضن المهاجرين المسلمين أنهم أهل تكنولوجيا وأسياد العالم، فلو انقلبت الآية رأسا على عقب وكانت الدول الإسلامية في الموقع الذي توجد فيه أمريكا الآن، لكانت حكاية أخرى تبتدئ باشتراط دخول هذه البلدان بالإكراه في الدين واشتراط الدخول في الإسلام قسرا قبل الحصول على تأشيرة دخول هذه البلدان !!ففي الوقت الذي تمنح فيه الدول الغربية تراخيص لبناء المساجد فوق ترابها ولصالح المهاجرين المسلمين المقيمين فيها، تحولت فيه الكنائس التي خلفها الاستعمار في المغرب إلى ديكور يؤثث فضاءات المدن، رغم احتضان المغرب لعشرات الآلاف من الأوربيين المقيمين

على ترابه أغلبهم مسيحيون، يضطر المطبقون لشعائر دينهم للسفر إلى بعض الكنائس القليلة في المملكة للصلاة في صورة لا تناسب ضجيج أبواق المملكة في المحافل الدولية التي تشيد من خلالها بنفسها كأرض للتعايش الديني.

وتجدر الإشارة إلى أن رحابة صدر أمريكا لكل الأديان ليس مثاليا كذلك، ولا يسلم من بعض النقائص، رغم أنها تعتبر الأنموذج الأول عالميا في التسامح الديني. ومن بين هذه النقائص، وجود بعض الأصوات وحتى بعض الأحداث العنصرية بسبب الدين، وهي أحداث معزولة وقليلة جدا يتعرض لها خصوصا اليهود في مرتبة أولى ويليهم المسلمون. وبغض النظر عن اليهود يحق لنا أن نتساءل لماذا يُستهدف المسلمون بأعمال عنصرية -على قلتها- دون معتنقي الديانات الأخرى؟ لماذا ظهرت الإسلاموفوبيا كتيار معادي للمسلمين في البلدان التي يشكل المسلمون فيها أقلية، ولم تظهر التيارات المعادية للديانات الأخرى في هذه البلدان؟ ولماذا أقدم القس "تيري جونز" بإحراق القرآن كإهانة لكتاب مقدس لدى المسلمين ولم يعمد إلى إهانة مقدس من مقدسات الديانات الأخرى؟ ولماذا استهدف الإسلام بالضبط وليس أي دين من الديانات العديدة المستوطنة في بلده أمريكا؟

إن سبب تنامي تيار الإسلاموفوبيا في الدول الغربية خصوصاً، مرتبط بتنامي ظاهرة الإرهاب في البلدان الإسلامية، وامتدادها إلى داخل الدول الغربية والتي ترتكب باسم هذا الدين، حيث حول المسلمون المتطرفون هذا الدين العظيم في أعين غير المسلمين إلى دين للقتل والإرهاب، أباح فيه بعض المسلمين دماء غيرهم من المسلمين، فما بالك بغير المسلمين، إرهاب تورط فيه من يدعي الإسلام في مسلسل لا تنتهي حلقاته، ويعتبر ظهور تنظيم الدولة في العراق والشام مجرد حلقة واحدة من حلقات هذا المسلسل الرهيب.

وبطبيعة الحال فجرائم هذا التنظيم وغيره من التنظيمات التي تنسب نفسها إلى الإسلام، لا تمت إلى الإسلام بأي علاقة بقدر ما تشوهه وتضعفه أكثر من خدمته كما يعتقد ويجهر به مرتكبو هذه الجرائم، ورغم ذلك فالمصابون بهوس الإسلاموفوبيا لا يمكن تهدئتهم بإقناعهم ببراءة الإسلام من تلك الجرائم، إذ لا يهمهم البحث في كون هذه الأعمال الإرهابية من صميم الدين الإسلامي أو لا، بقدر ما يخيفهم ارتكاب مثل هذه الأعمال الإرهابية في البلدان الإسلامية وغير الإسلامية من قبل أناس ينسبون أفعالهم تلك إلى الإسلام.

من جهة أخرى نجد بعض المسلمين الموسوسين بنظرية المؤامرة غالبا ما يربطون ظهور بعض المنظمات الإرهابية وفجائية بعض الأحداث الإرهابية كذلك بدسيسة أعداء الدين في الغرب للإيقاع بالإسلام وتشويهه، لكن الإشكال الذي يصطدم به أصحاب نظرية المؤامرة هذه هي المباركة الواسعة النطاق من مسلمي بقاع العالم لكل عمل إرهابي يقوم به من ينسبون أنفسهم إلى الإسلام. فلنسلم مثلا أن تنظيم الدولة صناعة غربية كما يزعم بذلك أصحاب نظرية المؤامرة، فماذا عن عشرات الآلاف من المقاتلين الذين يقاتلون في صفوف هذا التنظيم؟ وبماذا سنفسر استجابة العديد من الأشخاص للالتحاق بصفوف هذا التنظيم حتى ولو كان المتطوع في منطقة نائية جدا عن مكان قتال التنظيم؟ وبماذا سنفسر وجود ملايين من المسلمين عبر العالم المتعاطفين مع هذا التنظيم ومنهم من يتبرع بالأموال له؟ هل كل هؤلاء جندهم الغرب لضرب الإسلام؟!

بالفعل هناك حالات لأحداث إرهابية تحمل بصمة المخابرات الغربية، كحادث الهجوم على مجلة "شارل إبدو" في فرنسا، وواقعة محاولة المغربي "محمد الأمين لخليفي" للقيام بعمل إرهابي في مبنى الكابيتول في واشنطن العاصمة، ففي هاتين الحالتين، لا يمكن إنكار تورط المخابرات الفرنسية والأمريكية. إلا أن دخول هذين الجهازين على الخط، لا يعفي إرهابيي العمليتين المنتسبين إلى الإسلام من المسؤولية الكاملة، لأن عمل المخابرات هنا ليس تجنيد

الإرهابيين موضوع العمليتين للقيام بعمل مسرحي، بل اقتصر عمل الجهازين على فسح الطريق أمام هذين العملين الإرهابيين، أما إقحام الإسلام فيهما، فذلك ليس ذنب المخابرات، بل هو ذنب من اقترف أو حاول ارتكاب الفعل باسم الإسلام "يا حسرتاه ..." والاختلاف بين العمليتين السابقتين، هو أن عملية "شارلي إبدو" تركت فيها العملية حتى فصلها الأخير، أما حالة الهجوم على الكابيتول فقد تم خلالها اعتقال الجاني قبل تنفيذ الفعل.

إن الحرية والتسامح الديني والقدرة على التعايش بين الديانات المختلفة في وطن واحد، لا يكون بملء الدنيا بضجيج الشعارات الفارغة، بل يجب خلق ظروف هذا التعايش، فأصل الإرهاب في المجتمعات الإسلامية هي مناهج التعليم وطريقة تربية النشء .وللقضاء على بذور الإرهاب، يجب أن ينطلق الأمر من ضرورة خلق جيل جديد من المسلمين عن طريق وضع برامج تربوية وتعليمية لا أثر فيها للعنف والإرهاب باسم الدين، مناهج تعمل على زرع روح التسامح الذي هو ميزة الإسلام الحق، ومناهج تلقن النشء أساليب احترام الأديان الأخرى ونبذ أساليب العنف في الدفاع عن الدين، كما تلقنهم الصبر ومحاسن مقابلة الإساءة بالإحسان والشر بالخير، ومناقشة الأفكار المغلوطة عن الإسلام بالعقل والحجة وليس بالتهديد والوعيد.

لقد حز في نفسي إبان سنواتي الأولى من عمر إقامتي في المهجر عندما كنت مهووسا بالنقاش الديني مع مختلف معتنقي الديانات الأخرى، ذلك الهدوء ورباطة الجأش التي يناقش بها غير المسلمين ما يتعلق بدينهم، حتى ولو كانوا من الوثنيين وأصحاب الديانات التي نعتبرها تافهة .كما حزّ في نفسي هدوء ذلك المسيحي الذي تناقشت معه في محطة الحافلات وداخل الحافلة، والذي كان يناقشني بهدوء تام رغم أن ما أواجهه به كحقائق مسلمة في دينه لو واجهت بها مسلما لانفجر في وجهي بالويل والثبور وحتى بالتهديد بالتصفية، ولكنه –

لحسن حظي- مسيحي مشبّع بثقافة احترام الاختلاف على شذوذه، مسيحي يؤمن بالإله نفسه الذي نؤمن به مع اختلاف في بعض التفاصيل، وجداله معي كان خالياً من العصبية والتشنج، لإدراكه أن الله سيحاسب عباده على كل مثقال ذرة من أعمالهم حسنة كانت أو سيئة، وعدالة هذا الله في محاسبتي على إساءتي له لن تكون في مستوى أي ردة فعل قد يقوم بها هذا الشخص أو ذاك دفاعا عن دينه وربه. فما أحوجنا نحن المسلمين إلى مثل هذا التسامح والهدوء في النقاش، والى ثقافة مقارعة الحجة بالحجة بعيداً من التعصب والسخرية من دين الآخر، واحترام طقوس الأديان الأخرى مهما بدت لنا غريبة، لأننا نحن المسلمين نبالغ كثيرا في السخرية من أديان الغير وطقوسهم، متناسين أننا ننظر إلى ديننا بالنظرة نفسها التي ينظرون بها إلى دينهم، فماذا يعني أن ننشر نحن المسلمين في مواقع التواصل الاجتماعي صورة لهندوس يسجدون لبقرة ونسخر منهم بالتعليق على تلك الصورة بعبارة "أين عقول هؤلاء"، إن ضرورة احترام معتقد هؤلاء ينطلق من كون الصورة ستبدو بالمظهر نفسه لو عملوا بدورهم على نشر صورة لحجاج بيت الله الحرام وهم يقومون برمي الجمرات ويعلقون عليها بنفس الأسلوب "أين عقول هؤلاء"! فما نعتقده نحن المسلمين ونمارسه من شعائر يبدو لنا عاديا لأننا تعودنا عليه ونؤمن به وهو الشيء نفسه الذي ينطبق على غير المسلم فيما يخص شعائر دينه.

إنني حقا أتوق الى يوم أرى فيه المسلمين يتعاملون مع الإساءة لنبيهم بالكاريكاتير والأفلام بتجاهل هذه الأشياء المسيئة، لأن من يقف وراءها، لا يهمه لا المسلمين ولا رسولهم، بقدر ما تهمه الشهرة بالزوبعة التي ستثيرها ردة الفعل الساذجة لأغلب المسلمين، وهذا بالفعل ما استفادت منه مجلة "شارلي إبدو" التي حققت أرقام مبيعات غير مسبوقة بعد الحادث الإرهابي ضد مقرها في باريس، حيث تضاعف عدد مبيعاتها في العدد الذي جاء بعد الحادث بألف ومئة مرة، فهل كانت كل هذه الشهرة ستتحقق لهذه المجلة التافهة لو تجاهل المسلمون رسوماتها والتي لن تؤثر في شخص أعظم الخلق؟ وحتى لو جاز الاحتجاج

على الإساءة له لكان أولى لنا أن نحتج على أنفسنا، لأن إساءتنا لهذا الرسول العظيم أعظم من إساءة ملحدي مجلة تافهة تتاجر بالسخرية من جميع الأديان، فنحن قد جنينا على رسول الله بفعل ما لا يرضيه في حياتنا، أوَ ليست جناية الفعل من أتباع رسول الله وفي حق هذا الرسول الكريم أعظم إثما من مجرد رسوم ساخرة رسمها أعداؤه ؟

XII

أتذكر حين بدأت العمل في مطعم "ماجيانوز" في واشنطن العاصمة كمساعد نادل، أن جلس على إحدى الموائد التي كلفت بخدمة ضيوفها مع النادل الذي أعمل تحت إمرته، رجل أمريكي أبيض وزوجته الأمريكية من أصول إفريقية، وكان وجه ذلك الرجل يبدو لي مألوفاً جدا، وهو شخصية سياسية معروفة يتردد ظهوره على شاشة التلفزيون نهاية سنوات التسعينيات من القرن الماضي، فبدأت أبحث في ذاكرتي عن من يكون هذا الشخص والذي لم يكن سوى "وليام كوهين" وزير الدفاع الأمريكي الذي تم تعيينه بعد تقاعده في مجلس الشيوخ، حيث كان يمثل الحزب الجمهوري في الولاية الثانية للرئيس بيل كلينتون .وقد أدّى كوهين كوزير للدفاع، دورًا محوريًا في عمليات الولايات المتحدة في ثعلب الصحراء في العراق،

وعملية حلف شمال الأطلسي "القوات المتحالفة" في كوسوفو. وشهد في عامه الثاني من تعيينه قيام تنظيم القاعدة بتفجير سفارتي الولايات المتحدة في كينيا وتنزانيا .

هذا الشخص من خلال قسمات وجهه كما يبدو لي هو "وليام كوهين"، لكن الشكوك اعترتني حيث تساءلت كيف يكون هذا وزيرا سابقا وممسكاً بزمام السياسة الدفاعية لدولة عملاقة كهذه، ومهندساً لحروبها في فترة تقلده لأعلى منصب في البنتاغون، ويجلس وسط العامة من الناس وفي مطعم أمريكي عمومي، ويوضع عشوائيا من طرف مضيف المطعم على مائدة يشرف عليها نادل جديد ومساعده الجديد (أنا). وتساءلت كذلك عن سر عدم اهتمام أي واحد من هؤلاء الضيوف من عامة الناس الذين حجّوا إلى هذا المطعم بالمئات ذلك اليوم، كونه كان بالأمس ذَا نفوذ كبير في صناعة القرار السياسي المصيري لهذه الدولة العملاقة، كما تساءلت عن سر غياب رجال الأمن والحرس المكلفين بحمايته.

ولإزالة الشك باليقين، فقد ذهبت مباشرة إلى المضيف أسأله عن من يكون ذلك الشخص الجالس على تلك المائدة، هل هو وليام كوهين نفسه أم مجرد شبيه له، ليؤكد لي المضيف أنه وليام كوهين بشحمه ولحمه. كان شخصاً بسيطاً ولبقا إلى أبعد الحدود، وبسيطاً حتى في طلباته التي اقتصرت على سلطة الخس وصحن معجّنات بصلصة الطماطم التي تم تحضيرها باللحم المفروم وكأس الكوكا كولا، ولم تتجاوز فاتورته تلك الليلة مع زوجته الثلاثة والخمسين دولارا، وهو رقم أقل من متوسط قيمة المائدة الواحدة في مطعم "ماجيانوز". وقد كان دوري كمساعد نادل أن أقوم بملء كأس هذا الضيف كلما فرغ أو اقترب من الفراغ. ويقتضي عرف العمل أن ألتقط الكأس دون استشارة الضيف لأملأه ما دام الماء مجانياً، إلا أنني تعمدت سؤال هذه الشخصية المهمة كل مرة عن رغبته في مزيد من الماء، حتى أكون في مستوى من تكلم مع المشاهير!!

بعدما أكمل "وليام" عشاءه طلب مني بكل أدب وفي منتهى اللياقة أن أقوم بوضع ما تبقى من عشائه في علبة ليأخذها معه إلى المنزل، فأخذت صحونه نحو المطبخ لتعليب ما تبقى منها .وأنا أقوم بتلك المهمة في طاولة خاصة داخل المطبخ، كنت أتساءل كيف سيكون تصرف والدي لو كلف بهذه المهمة وهو من يتعوّذ من الشيطان الرجيم كلما شاهد إبان حرب الخليج وجوه كل من بوش الأب، جون ماجور، روبين كوك، ووليام كوهين صاحب بقايا هذا العشاء تطل عليه من شاشة التلفاز، أظن أن أقل ما سيفعله بهذه الوجبة، هو البصق عليها قبل تعليبها!

ليس "وليام كوهين" هو الشخصية المرموقة الوحيدة التي تتردد إلى هذا المطعم، بل هناك شخصيات أخرى عديدة من صقور البيت الأبيض تتردد إليه دوريا وبانتظام، كـ"مادلين أولبرايت" يوم كانت كاتبة الدولة في الخارجية، والتي كانت تقف رغم منصبها السامي في الطابور بقاعة الانتظار، تنتظر متى يحين دورها للدخول إلى المطعم بعدما تمتلئ كل موائده وينتظر اللاحقون في القاعة شغور إحدى هذه الموائد للدخول إليها في ترتيب لا تشفع فيه المكانة الاجتماعية والغنى للواقف في الصّف للدخول والوقوف في أول هذا الصف. كما أن كل ضيوف المطعم يتم التعامل معهم بمساواة مطلقة وخالية من أي وجه من أوجه المحاباة بغض النظر كذلك عن المكانة الاجتماعية للضيف.

يوجد في المدينة القديمة "جورج تاون" في واشنطن العاصمة، مطعم شهير يحمل اسم "كافي ميلانو"، ويوجد بالضبط في تقاطع الشارعين "ويسكونسن" و"بروسبيكت" على مرمى حجر من مطعم "بيزيريا أونو" الذي عملت به سابقا، ولا يفصلهما سوى بضعة أمتار هي عرض شارع "بروسبيكت" . وقد نال هذا المطعم شهرته لكونه يعتبر محجّا لمشاهير وزعماء مختلف دول العالم .وبحكم عملي في المطعم المحاذي لهذا المطعم الشهير لسنة ونصف، فقد كنت أغتنم فرصة وصولي إلى مقر العمل باكرا، في شرب القهوة في بوابته الخلفية حيث

أواجه الباب الرئيس ل "كافي ميلانو"، ورغم كون هذا الأخير يعتبر مزاراً يوميا لمشاهير العالم وزعمائه، بما فيهم رؤساء وزعماء بعض الدول المرضى بجنون العظمة الذين يقيمون الدنيا في كل مكان يريدون المرور عبره في بلدانهم، فإنني لم أشاهد يوماً في المطعم حفل بهرجة في الشارع، ولا قطع هذا الشارع إيذانا بقدوم شخصية مهمة، أو رئيس يرى نفسه فرعون بلده، بل يتم التعامل مع كل الضيوف في ذلك المطعم بالمعاملة نفسها، كونهم جميعاً بشرا يُستقبلون من قبل المضيف بالطريقة ذاتها، ويتم توجيههم دون تفضيل إلى مائدة فارغة أو مائدة سبق لهم حجزها. والمطعم هذا – بغض النظر عن ضيوفه من الزعماء والمشاهير –فهو إلى جانب ذلك مفتوح في وجه العامة لارتياده في أي وقت شاؤوا، أما ندله ومساعدوهم وكذا عمال المطعم، فهم كعمالة كل المطاعم الأخرى لا يشترط لعملهم بهذا المطعم حصولهم على ديبلومات معينة أو شواهد عليا، حيث هناك أشخاص ولجوا هذا المطعم كغاسلي صحون، ثم ارتقى بعضهم حتى أصبحوا ندُلا يخدمون مشاهير العالم وزعماءه، فالنادل مثلا الذي ارتقى من العدم حتى وصل تلك المرتبة في ذلك المطعم، يكلف بخدمة ضيوف موائده كيفما كان هذا الضيف، ملك مملكته، أو أمبراطور أمبراطوريته، ولا يحق لهؤلاء الزعماء تغيير طريقة سير العمل في هذا المطعم، كاشتراط الجلوس حول مائدة مشغولة، فهم وإن كانوا ذَا شأن عظيم في بلدانهم، فهم في هذا المطعم مجرد ضيوف كعامة الناس، ملزمون باحترام طريقة سير العمل في هذا المطعم، ولا غرابة أن يحدث هذا في بلد مازال رئيسه "باراك أوباما" محافظا على عادته في ارتياد مطعمه المفضل والرخيص "بينز شيلي باول" الذي يلجه كأي مواطن عادي.

للإشارة، فالشيء المميز في مطعم "كافي ميلانو" هو أثمنة خموره التي تصل أحيانا إلى ثمانية آلاف دولار للقارورة الواحدة، لجودتها، أو لقدم تاريخ تعبئتها الذي يعود لعقود خلت!!

وهذا المطعم، هو نفسه الذي عرف محاولة اغتيال السفير السعودي في واشنطن، حيث اتهمت العربية السعودية مواطنين إيرانيين يعملان في فيه بمحاولة تسميم هذا السفير الذي اعتاد الذهاب إلى هذا المطعم كل مساء جمعة.

يعتبر الرئيس الأمريكي "باراك أوباما" رئيس دولة هي الأقوى في العالم من جميع الجوانب، فهو في موقع لا يستطيع أن ينافسه رؤساء الديكتاتوريات والدول المجهرية، إلا في حرص هؤلاء على جعل مرور موكبهم مروراً أسطوريا تقوم على إثره الدنيا ولا تقعد، حيث تتوقف الحركة العادية وتُقطع الطرق لساعات حتى يمر الزعيم وسط الحشود الغفيرة، التي تهتف باسمه عن قناعة وطيب خاطر، أو عن نفاق وربما عن إكراه.

بحكم سكني وعملي في مدينة "أرلينغتون" المتاخمة لواشنطن العاصمة، فقد كنت مراراً شاهداً على مرور الموكب الرئاسي للرئيس باراك أوباما، والذي يشبه إلى حد كبير في طريقة مروره، مرور الموكب الجنائزي لأي مواطن أمريكي متوفى وفي طريقه إلى المقبرة، حيث يفسح أصحاب العربات الطريق، تسهيلا لمرور هذا الموكب احتراماً لروح الفقيد والمرافقين له، وكذلك الأمر بالنسبة إلى موكب الرئيس، فمروره من أي شارع، يكون مروراً استثنائيا، لكن ليس إلى درجة شلّ حركة المرور في هذا الشارع لمدة طويلة، بل لبضع دقائق. فقد حدث يوما أن أراد الرئيس زيارة مدرسة إعدادية موجودة في تقاطع الطريق الرئيسة "50" وشارع "كارلين سبرينغ" بأرلينغتون، فصادف ذلك أن مررت بالمكان، وقبل ولوجي الطريق الرئيسة "50" أوقفني شرطي بدراجته النارية، مثلما فعل شرطيون آخرون في كل نقطة تقاطع هذا الطريق مع الطرق الفرعية الأخرى، حتى يتمكن الموكب من المرور بسلاسة في ذلك الشارع، ولم تمر سوى لحظات حتى مرّ هذا الموكب في إحدى عشرة سيارة أغلبها من نوع "شيفروليه سوبرباهن"، وبعدها فسح لنا شرطي الدراجة الطريق بعدما ابتعد الموكب بضع مئات من الأمتار. وقد دفعني الفضول إلى قياس المدة الزمنية التي سيستغرقها توقيفنا الاضطراري لمرور هذا الموكب، فكانت سبع دقائق هي المدة الفاصلة بين إشارة الشرطي الدّراج لنا بالتوقف وإشارته لنا بفتح الطريق. سبع دقائق هي ما يحتاجه فرعون أقوى دولة في العالم من وقت بضعة أفراد من شعبه

للمرور في طريق رئيسة، في حين يحتاج فراعنة دول الهامش ساعات طوال وتحضيرات تمتد أحيانا إلى أسابيع!!

لقد صادف إبان الحملة الانتخابية لهذا الرئيس أن وصل سعر البترول إلى مستويات غير مسبوقة، حيث تجاوز سعر البرميل الواحد 152 دولاراً، فكان أوباما يركز في حملته الانتخابية ليكسب ثقة الشعب الأمريكي فيه على تشجيع مشاريع الطاقة البديلة لتخفيض الاعتماد على الوقود الاحفوري، وقد حدث إبان فوزه بالانتخابات أن قام بزيارة إلى مكتب شركة تحمل اسم "الطاقة الخضراء البديلة"، والتي يحتل مقرها طابقا من الطوابق الأحد عشر لعمارة يفصلها شارع "كورثهاوس الرود" عن مطعم جيريس حيث أعمل فكانت مناسبة لي للاطلاع على البروتوكول المعتمد أثناء زيارة رئيس الدولة إلى شركة خاصة، فالبناية حيث يوجد مقر مكتب هذه الشركة، قمنا بمعاينة بعض رجال المباحث يتفقدون محيطها ليلة قبل زيارة الرئيس، وفي الصباح، كنت أراقب المشهد من داخل المطعم حيث حضرنا للتو، فعاينت التحاق بعض رجال الشرطة بالدراجات النارية، والذين توزعوا بين مختلف منافذ الطرقات نحو تلك العمارة لتحويل اتجاهات العربات نحو طرق بديلة ريثما يغادر الرئيس، بعد ذلك، وصلت سيارتان خرج منهما بضعة رجال في بذل رسمية، وهم رجال الأمن الخاص المكلفون بحراسة الرئيس وموكبه، وقفوا متباعدين في مواجهة الرصيف، ويتواصلون بأجهزة متطورة فيما بينهم .أما الأشخاص من عامة الناس الذين حضروا إلى المكان، فلم يكن حضورهم عن سبق الإصرار، أو لعلم مسبق بزيارة الرئيس، بل كانوا هناك من باب الصدفة حيث لم يتجاوز عددهم مئة شخص، توقفوا لتحية الرئيس الذي باغتهم في تلك اللحظة في غياب أي سياجات بينهم وبين موكب الرئيس الذي التحق بالمكان بعد بضع دقائق، بادل التحية بمجرد خروجه من السيارة الأنيقة مع بعض الواقفين على الرصيف، ثم قام بزيارة خاطفة إلى مقر الشركة، بعدها غادر المكان في زيارة لم تستمر أكثر من نصف ساعة، ليعود الرئيس بعدها من حيث أتى ويُفتح الطريق من جديد وكأن شيئاً لم يكن!!

هذا هو حال رئيس أقوى دولة في العالم، فما حال المسؤولين الأقل منه شأنا في دولته التي يحكمها القانون دون تمييز بين من هم في قمة هرم السلطة ومن هم في قاعدته، دولة يعي فيها من تقلد منصبا انتخب لأجله أنه مجرد انتداب ممّن انتخبه لذلك المنصب، وسعيه إلى هذا المنصب بدوره يكون من أجل رمزية تخليد الاسم وليس كمسؤولينا الذين يسعون إلى المناصب بكل الطرق لأنها تضمن لهم إمكانية الاغتناء غير المشروع ومراكمة الثروة، كما تتيح لهم هذه المناصب امتياز الخروج عن دائرة تطبيق القانون، الذي يعتبر في بلادنا –وغيرها من بلدان العالم الثالث– كنسيج العنكبوت، يلتصق بين أنسجته الضعفاء من عامة الناس، ويمزقه الأقوياء و ذوو النفوذ.

توجد في قاعة الاستقبالات لفندق "هيلتون غاردن" بكورثهاوس القريب من مقر عملي، تحفة عبارة عن لوحة زجاجية وضعت فوق مكتب استقبالات الفندق مكتوب عليها عبارات الترحيب بلغات مختلفة، حتى يشعر أي زبون وصل باحة الفندق ووجد المضيف مشغولا بالهاتف أو بزبون سبقه، أنه مرحب به بمجرد أن يرى عبارة الترحيب بلغته، وهذه اللوحة في نسختها الأولى تحمل خطأً في كتابة عبارة الترحيب باللغة العربية .وقد كان لي شرف تنبيه الإدارة إلى هذا الخطأ وتصحيحه في النسخة الجديدة التي وضعت مكان الأولى لاحقاً!! فقد حدث يوما أن دخلت إلى هذا الفندق من أجل التوصيل إلى زبون يقطن في إحدى غرف الطابق العلوي، وفي انتظار التحاق هذا الزبون بي في باحة الفندق، كنت أدردش مع المضيف، فجأة انتبهت إلى هذا الخطأ في اللوحة حيث كتبت عبارة "أهلًا وسهلا "بحروف منفصلة "أ هـ ل او س هـ ل ا"، المضيف بدوره لم يتردد عندما أخبرته بالخطأ في مناداة مدير الفندق، الذي خرج مسرعا فطلب مني بكل تواضع أن اشرح له هذا الخطأ وأصححه، اندهشت بدوري لهذا الاهتمام الزائد لمجرد خطأ بسيط في لوحة وجودها كعدمه، إلا أنني أخذت الأمر بجدية كما فعل مدير الفندق فشرحت له أن العربية تكتب

مترابطة الحروف وليس كما تكتب اللاتينية في إحدى صورتيها، شرحت له أن الحكام العرب إذا كان كل منهم يكره الآخر وينفر منه، فحروف لغتهم على عكسهم تماماً لا تُثمر كلمات ذات معنى إلا إذا ترابطت فيما بينها! فأعطاني هذا المدير ورقة وقلما وطلب مني أن اكتب العبارة الصحيحة، ليكتشف الاختلاف بين ما هو مدون في اللوحة وما كتبته على تلك الورقة، فشكرني بكل تواضع بعدما نزع اللوحة من مكانها، وبعد ثلاثة أيام وضعت اللوحة الجديدة المنقحة من الخطأ مكانها!

فلنقارن تصرف هذا المدير المتواضع رغم أن أجره السنوي هو 120 ألف دولار، مع تصرف "مصطفى الخلفي" وزير الإعلام المغربي الناطق الرسمي للحكومة، هذا الأخير وقع يوما في كمين خطأ إملائي بدائي في إحدى تغريداته على صفحته الالكترونية، حيث كتب التاء المربوطة مبسوطة في كلمة "مساواة"، والمعلقون المتابعون لصفحته نبهوه إلى هذا الخطأ، وكما قرأت في ردود رواد تلك الصفحة، فقد أشاروا إلى خطئه بكل لباقة واحترام، فما كان من وزيرنا الموقر إلا أن احتقرهم جميعا فصحح خطأه وقام بحذف كل التعاليق التي تشير إلى هذا الخطأ!.

نقلت هذين السلوكين المتباينين عن ردة فعل كل شخص واجه الموقف نفسه، أمني النفس أن نحذو حذو الكفار فيما ليس فيه تأثير في معتقدنا، بل هو في الأصل مستحب في هذا المعتقد .أن نحذو حذو الغرب في عدم احتقار الإنسان لأخيه الإنسان مهما كانت مرتبته أو وضعه المادي أو مكانته الاجتماعية. لا أتحدث هنا عن أشياء توجد في المدينة الفاضلة لأفلاطون وأرجو تنزيلها في مجتمعنا، بل أتحدث عن سلوك شرب منه مواطنو الدول الغربية حتى الثمالة وما زالوا يفاجئوننا بالمزيد، وأرجو أن نجرب بدورنا ولو قليلا مما هم فيه يسبحون!!؟ هم بشر ونحن بشر، فلماذا نقلدهم في سلبياتهم ولا نقلدهم في ايجابياتهم؟ !ف "الحگرة" في مجتمعنا سلوك متفش، أصبحت سلاح القوي في مواجهة الضعيف، وسلاح

الكبير في مواجهة الصغير، كما هي سلاح المتعلم في مواجهة الأمي، وأيضاً سلاح الرئيس في مواجهة المرؤوس... وهلم جراً.

المثال الذي نقلته أعلاه عن المجتمع الأمريكي هو فقط مشهد من مشاهد عديدة لتعامل البشر فيما بينهم على أساس أنهم بشر، فمدير الفندق لم يبد أي انزعاج حين يكلم بئيساً جاء من عمق المغرب الذي لا يلد غير البؤس والشقاء!! المشهد نفسه يتكرر عندما يسأل مختل عقلي في الشارع رجلا محترما قد يكون حتى رئيس الدولة ليلتفت هذا الأخير لسماع سؤال أو شكوى السائل بكل تواضع، كما قد تشاهد رجلا كبيرا يسمع باهتمام لطفل في الشارع، يسأله ولو سؤالا تافها يجتهد معه هذا الكبير في الإجابة عنه رغم تفاهته لإرضاء فضول هذا الصغير. وقد تشاهد أيضاً أمّا أو أبا يصرّ ابنهما على شيء فيجتهدان في إقناعه بالعدول عن رأيه برفق ولين !!فأين نحن من كل هذا؟؟؟

فنحن –ولسوء الحظ– مرتبون في طبقات حسب الغنى والنفوذ، فويل للأدنى ممّن هو فوقه، وويل للصغير من الكبير، وويل للمعتوه من السوي .فموظفو الدولة مثلاً يمارسون رذيلة الإحتقارهم فيما بينهم، يمارسها الأعلى بالأدنى، وصولاً إلى احتقار أدناهم شأنا للمواطن البسيط المغلوب على أمره !فقائد قيادة بلدة ما، هو فرعونها، يمارس فرعونيته على المواطنين ولأن الفأر يتأسى بالأسد أمام ضعفه في مواجهة القط كما يعبر عن ذلك المثل الامازيغي "أديطف ربي إزم إيغرداين" فإن هذا القائد ترتعد فرائصه أمام جبروت العامل أو الوالي !! والعمال والولاة أصحاب الفخامة وفراعنة العمالات والأقاليم، هم كذلك لا يترددون في حمل بلغاتهم بيد وإمساك جلابيبهم نحو الأعلى باليد الأخرى بعد حفل الولاء مهرولين يبحثون عن يد الملك لتقبيلها وهم غير مكرهين على فعل ذلك، ولكن أنفسهم تعشق الإذلال، ما داموا يمارسونه على غيرهم من عباد الله المستضعفين! ومن شبّ على شيء شاب عليه.

XIII

غالباً ما تتحول المنتديات الرياضية على شبكة الأنترنيت إلى مواقع لتبادل السّب والشتم بين الجماهير الرياضية في دول شمال إفريقيا، من المغرب حتى مصر، إبّان كل لقاء كروي يجمع فريقين وطنيين لدولتين من دول تلك المنطقة، أو حتى ناديين ينتميان إليهما، وهي حروب كلامية عنيفة، تبدأ بما هو رياضي، لتأخذ أبعاداً أخرى لا علاقة لها بالرياضة، هذه المناوشات التي لا تنتهي بين مرتادي المنتديات، تكون دائمة التبدّل حسب تبدّل طرفي المواجهة الكروية، فتتواصل تلك الحرب الكلامية بتناوب بين مواطني هذه الدول المهووسين بالتعصب الكروي ، وقد اتسعت رقعة الصراع لتشمل كذلك الرياضات الأخرى، بعدما كان الأمر مقتصراً فقط على كرة القدم كأكثر الرياضات شعبية في بلدان المنطقة. وعادة ما تبدأ هذه الحرب الكلامية أسابيع طويلة قبل أي لقاء مرتقب، وتصل إلى أوجها قُبيل ذلك وأثنائه،

لتمتد تداعياتها إلى ما بعده بأسابيع، حيث لا يتم طيّ صفحتها إلا بنزال كروي جديد بين طرفين آخرين.

بالأمس نشبت حرب كلامية مصرية جزائرية، واليوم تونسية مغربية، وغداً بين هذا وذاك، والغريب في الأمر أن هذه الحروب الكلامية بين الجماهير التي تتقابل فرقها لم تكن وليدة اليوم، بل كانت منذ عقود جزءاً من عمل صحافة هذه البلدان قبل أن تنتقل عدواها إلى عامة الناس مع انتشار وسائل التواصل الاجتماعي التي زادت من استفحال الظاهرة، ما أدى إلى خروج الأمور في الكثير من الأحيان عن السيطرة، وكاد ذلك يتسبب في قطيعة حقيقية بين بعض الدول! .

كانت الصحافة بكل تلاوينها، كما ألمحنا سابقا، قبل ثورة الأنترنيت هي الممسكة بزمام التراشق الإعلامي، قبل وبعد أي لقاء كروي بين بلدين من بلدان الشمال الإفريقي، خرجت معها بعض اللقاءات عن نطاقها الرياضي لتأخذ أبعاداً لا علاقة لها بالممارسة الرياضية الحقيقية، والأمثلة على ذلك عديدة ، سنقتصر على بعض منها:

فقد عمل الإعلام المصري سنة 1997 ، وقبل إجراء اللقاء الكروي بين مصر والمغرب في القاهرة، والذي يندرج ضمن التصفيات المؤهلة لكأس إفريقيا المنظمة ببوركينا فاصو عن المجموعة التي تضم إلى جانب هذين الفريقين كلاًّ من السينغال وإثيوبيا، على الارتقاء بهذه المقابلة إلى مستوى لقاء حياة أو موت، خصوصاً وأن آخر انتصارهم على المنتخب المغربي يعود إلى إحدى عشر سنة خلت. فبعد تحديد أيام 4 ،5 ، و6 أكتوبر من طرف الكاف "CAF" كأيام اختيارية لإجراء هذا اللقاء، بدأت الصحافة المصرية تضغط على المسؤولين الرياضيين المصريين بضرورة إجراء هذا اللقاء تحديدا في السادس من أكتوبر، ليتزامن مع ذكرى "حرب أكتوبر"، حتى يتسنى تحويل المقابلة الكروية إلى حرب مصغرة تذكّر بالحرب المصرية الإسرائيلية، حيث وضعت صحافة هذا البلد المغرب في مقام إسرائيل.

قابل الإعلام المغربي الزخم الإعلامي المصري الذي رافق أجواء ما قبل المقابلة بشيء من التعقّل وعدم الانجرار وراء العواطف، حيث اعتبرت الصحافة المغربية الأمر مجرد منافسة كروية، وقد انتهى هذا اللقاء في آخر المطاف بالتعادل الذي كان بطعم الهزيمة للمصريين، حيث لم تجد صحافتهم حينها من شماعة لتبرير هذه الانتكاسة سوى الادعاء الجدّي بأن المغرب قد كسب الرهان بأعمال السحر والشعوذة !! ولحسن الحظ، أن الصحافة والجمهور المغربيين كانا أكثر نضجاً من نظرائهم المصريين في لقاء الإياب في الرباط، حيث جرى عكس ما اشتهت الصحافة المصرية، فانتصر المغرب ما أهله مبكراً إلى النهائيات، أصبحت بعدها تلك الصحافة تتغزّل بالمنتخب المغربي وتستجديه كي لا يتراخى أمام المنتخب السينغالي، لأن تأهل مصر حتى وإن انتصرت على إثيوبيا، رهين بانتصار المغرب في آخر لقاء له ضد السينغال، فكان لها ما أرادت.

اقتصر التراشق، في ذلك الوقت، لحسن الحظ، على الإعلاميين في الدولتين، خصوصا من الجانب المصري الذي كان يصنع الحدث حتى من مجرد فقاعات، ولحسن الحظ أيضا أن وسائل التواصل الاجتماعي لم تكن آنذاك متاحة، وإلا لكان الأمر قد اتخذ أبعاداً خطيرة كتلك التي حدثت بين مصر من جهة والجزائر من جهة أخرى، ففي لقاء مصيري بين فريقي البلدين لحسم نتيجة المباراة الكروية لتحديد المتأهل منهما للمشاركة في نهائيات كأس العالم في جنوب إفريقيا، تحولت هذه المباراة، خصوصاً في لقاء الإياب في مصر، إلى أزمة سياسية بين البلدين، لم يقتصر إذكاء نارها على صحافة البلدين، بل تعداها إلى الجمهور عبر المنتديات الرياضية في الشبكة العنكبوتية، فتبادل البلدان الاتهامات حتى على أعلى مستوى، ما جعل الأزمة تدخل في منعطف خطير، سيما عندما اختلقت الصحافة الجزائرية مسرحية توابيت موتى جمهور الجزائر في القاهرة، فتم على إثرها الاعتداء على ممتلكات المصريين في الجزائر، وزادت القضية تأزما بعدما احتكم الفريقان إلى لقاء السد الذي أقيم في "أم

درمان" السودانية، حيث وقعت خلاله أحداث مؤسفة بين الجمهورين بعد نهاية المباراة، اشتعل معه من جديد تبادل الاتهامات بين البلدين، بدءا من الجمهور وحتى المسؤولين من أعلى مستوى، ولحسن الحظ أن الجزائر ومصر ليس بينهما حدود برية، وإلا لتطورت الأمور بينهما إلى حرب معلنة كالتي حدثت بين السلفادور والهندوراس سنة 1970، بعد لقاء السد لتحديد المتأهل لنهائيات كأس العالم في المكسيك، فما أن انتهى اللقاء بفوز السلفادور حتى التحم الجيشان اللذان انتشرا على طول الشريط الحدودي بين البلدين في حرب استمرت ستة أيام، قتل فيها الآلاف، وشرد عشرات الآلاف، ولم يكن هذا الصراع ليتوقف لولا التدخل الخارجي، وحتى وإن لم تكن هذه الحرب بسبب المباراة، لوجود خلافات عميقة بين الدولتين، إلا أن هذا اللقاء كان بمثابة القطرة التي أفاضت الكأس.!

ما أن تخمد نار الأزمة بين مصر والجزائر بسبب مباراة كرة القدم، حتى تبدأ أزمة أخرى بين جمهور دولتين أخريين من نفس المنطقة، يكفي أن تضع القرعة أو الصدفة منتخبين من تلك المنطقة في المواجهة حتى يبدأ الاحتقان بين جمهوري البلدين في المنتديات الرياضية، تتغير حدته طبقاً للمنحى الذي رسمته صحافة البلدين لتلك المواجهة الكروية، وتزداد حدة ذلك مع اقتراب موعد هذه المواجهة، تستعمل فيها الكلمات النابية وكل أنواع السب والشتم، فقط بسبب لعبة بجلد منفوخ، المنهزم بعدها سيحالفه الحظ مرة أخرى في الفوز على من هزمه اليوم، فلماذا كل هذا التوتر ؟!

إن السبب في احتقان الأجواء بين جماهير هذه البلدان، قبل وبعد أي مباراة كرة تجمع بين فرقها، هو كما ذكرنا "غول" البطالة الذي يفتك بالشباب في هذه الدول التي تلجأ إلى المنافسات الرياضية لجعل هذه الفئات تفرغ غضبها ومكبوتاتها، إلا أن النصيب الأكبر من المسؤولية تتحمله الدولة، وخاصة إعلامها الذي يؤجج المواقف لتكون وقودا لنار هذا الاحتقان بين الجماهير الرياضية، فدول شمال إفريقيا لم تنجح في مجموعة من المجالات، ما

جعل مسؤوليها يهتمون بشكل كبير بالمجال الرياضي خصوصا الكروي، كمجال يمكن من خلاله تسويق الوهم عبر شحن الجمهور بالحماس، واللاعبين بالحوافز المادية الخيالية، لتحقيق انتصار يمكن تسويقه كملحمة من الملاحم الوطنية!، وحتى في حال الخسارة، فالمجال الكروي هو المجال الأنسب لتبرير الهزائم، لوجود أكثر من شماعة تعلّق الهزيمة عليها، كالتحكيم والطقس وسوء أرضية الملعب، والارتفاع عن سطح البحر وغياب النجوم... إلى غيرها من الإدعاءات الواهية لتبرير الهزيمة وتهدئة الجمهور.

يعتبر الشعبان المغربي والجزائري من أكثر شعوب هذه المنطقة اكتواءً بنار التعصُّب الكروي، بحكم عامل الجوار بين البلدين، والخلافات السياسية المعقدة والعميقة التي أفلح مسؤولو الدولتين في نقلها إلى أفراد شعبيهما، فأصبح كل لقاء كروي بين منتخبي البلدين صورة من صور التعبير عن هذه الخلافات .فكل لقاء مرتقب بين فريقي البلدين يكون مناسبة لبروز مظاهر التشنج والتعصب بين جمهوريهما، حيث ينطلق ذلك بشكل مثير من منتديات الشبكة العنكبوتية التي تغذيه الصحافة الاستفزازية، ويتم تتويج هذا الاستفزاز بمتابعة شخصيات سامية من كلتا الدولتين للقاء في اجتماعات رسمية على غرار الاجتماعات الوزارية، ولكن هذه المرة حول التلفاز، لمشاهدة اللقاء، أو حتى من خلال الحضور الشخصي في الملعب، وقد زاد مشكل الصحراء الأمر تعقيداً وإثارة، إلى أقصى حد. إن متابعة الحرب الكلامية قبل أي لقاء، يجعلنا نتخيل أنه لو كتب للجمهورين اللقاء في نفس المكان، فستكون هناك أحداث دموية عنيفة.

من المستغرب في أمر جمهور دول شمال إفريقيا أن هذه الصورة التي تعكس الضغائن والأحقاد بين الإخوة الأعداء في العالم الافتراضي، الذين قسمتهم الحدود السياسية قسراً، فإن كل ذلك يتلاشى في الواقع بين مهاجري هذه البلدان في أمريكا، حيث يعيشون جنبا إلى جنب، وأحياناً تحت سقف واحد، وتمثل منطقة واشنطن فرجينيا أنسب مكان لمعاينة الوجود

من عدمه لظاهرة التعصب الكروي بين مهاجري دول شمال إفريقيا، حيث توجد جالية مهمة من تلك البلدان في هذه المنطقة، وكمهووس بكرة القدم، فإن الحياة الصعبة في أمريكا لم تمنعني من متابعة حتى أدقّ تفاصيل البطولة الوطنية المغربية لكرة القدم، أما مباريات النخبة الوطنية، فكنت حريصا على مشاهدتها سواء في المقهى أو المنزل أو حتى في العمل عبر جهاز الكمبيوتر. وأظن أن شهادتي من موقعي هذا ستكون حجة في تشخيص هذه الظاهرة.

تنتشر في منطقة فرجينيا واشنطن العديد من المقاهي والمطاعم في ملكية مغاربة ومصريين ولبنانيين، وهي أماكن يرتادها عادة المتيّمون بمباريات كرة القدم في موعد كل مقابلة كروية، خصوصاً مباريات المنتخبات الوطنية، فرغم العداء والتراشق العنيف بين الجماهير التونسية والمغربية في العالم الافتراضي، فقد عاينت مباراتين بين منتخبي البلدين في أمريكا، كانت الأولى برسم نهاية كأس إفريقيا بتونس، والثانية كانت مباراة فاصلة لتحديد المتأهل من الفريقين إلى كأس العالم 2006، وقد لاحظت المتابعة الجماهيرية الغفيرة من كلا جمهور البلدين الذي حجّ إلى مختلف مقاهي ومطاعم المنطقة، خصوصا إلى منطقة "سكاي لاين"، حيث توجد هذه المطاعم جنبا إلى جنب كمقهى "وليمة" الذي حجّ إليه الجمهور المغربي، ومقهى "البرانس" الذي حجّ إليه الجمهور التونسي، ولا يفصل المكانين إلا جدار يمرّ عبره صدى صرخات الجمهورين، وفي نفس الوقت اختلط في بعض المقاهي، جمهور الفريقين، ورغم أن المباراتين أفرزتا غالباً ومغلوباً، حيث حالف الحظ، في كلتا المواجهتين الفريق التونسي، فإن اختلاط الجمهورين بعد اللقاءين كان أخويا سادته روح رياضية، رغم حسرة الجمهور المغربي، واحتفالية الجمهور التونسي بالتأهل.

نفس السيناريو تكرر في المواجهات الثلاث التي أقيمت بين المنتخبين المغربي والجزائري طوال إقامتي في أمريكا، وكان آخرها لقاء مراكش الشهير، الذي شاهدته من مطعم "بابيليون" القريب من سكاي لاين، وكمتتبع لأخبار المنتديات الرياضية، فقد وصلت الحرب

الكلامية بين الجمهورين المغربي والجزائري إلى أوجها على مدى أسابيع، قبل مباراتي الذهاب في عنابة والإياب في مراكش، حيث تبادل جمهور الفريقين ما استجدّ من قواميس الكلام البذيء والساقط، كما تبادلا الوعيد والتهديد !! إلا أن ما عشته من أجواء داخل مطعم "بابيليون" كان مختلفاً تماما عن واقع تلك المنتديات، حيث ارتاد الجزائريون والمغاربة، على السواء ذلك المطعم في جوّ أخوي، ومنهم من تناول طعامه على نفس المائدة، فانتهت المباراة بغالب ومغلوب، تبادل بعدها الجمهوران التهاني، فانصرف كل إلى وجهته من دون مشكلة تذكر، لأن ما يجمع هذا الجمهور في بلاد الغربة أكبر من أن تؤثر فيه لعبة لا تستقر أبد الدهر على بطل واحد، عكس الصورة التي يتركها الشباب العاطل من العمل في كلا البلدين، أو لنقل في كل بلدان الشمال الإفريقي، الذي يستغل الأجواء المشحونة لهذه المباريات كفرصة للتنفيس عن مشكلاته، حتى إن هذا التعصب للفريق الوطني انتقل، وبنفس الحدة، إلى المواجهات بين الأندية داخل البلد الواحد! حيث يبدأ الشحن والتعصب المريض انطلاقا من المنتديات الرياضية أسبوعا قبل اي مباراة من مباريات الدوري، والتي غالباً ما تنتهي ويبدأ معها هذا الجمهور مباراة أخرى من الشغب، وأحداثاً لا علاقة لها بالرياضة في سلوك كان نادراً من قبل، فأصبح عامّاً الآن، ويشمل جماهير كل فرق الدوري.

على عكس الشباب العاطل من العمل في دول شمال إفريقيا، فإن الجماهير الرياضية المنحدرة من هذه البلدان والمستقرة في أمريكا أصبحت تحذو حذو نظرائها من الجماهير الأمريكية في تعاملها مع المباريات الرياضية نتيجة زحمة العمل وإكراهات الحياة الجديدة، التي جعلت من الوقت شيئا ثميناً لا يستحق أن يُهدر في تفاهات ما قبل اللقاء وبعده، حيث أضحت لديهم المباريات الرياضية مجرد لعبة للتسلية وفرصة للقاء الأصدقاء في المقهى بعد طول فراق، وهذا هو حال الجمهور الأمريكي. حيث لا يضاهي أمريكا أي بلد في العالم من حيث الحضور الجماهيري والزخم الإعلامي الذي يصاحب كل مباراة من أي نوع كانت، فكل الرياضات وكل المسابقات في أمريكا تفاجئ متتبعها الغريب عن هذا البلد بالجماهير

الغفيرة التي تتدفق إلى الملاعب، ورغم الأعداد الهائلة لهذه الجماهير، فإن أمريكا لم تكتو بنار التعصب الرياضي، والشغب الجماهيري وحتى التراشق اللفظي بين الجماهير داخل الملاعب كسلوك مازال سائداً حتى في بعض الملاعب الأوربية.

يلاحظ المتتبع لمباريات كرة السلة والبيسبول والهوكي امتلاء ملاعب هذه الرياضات عن آخرها، حتى ولو تعلق الأمر بمقابلة إعدادية أو شكلية، وتبقى كرة القدم الأمريكية الرياضة الأكثر شعبية والأكثر متابعة واستقطابا للجماهير في أمريكا، بحيث أكاد أجزم أن الحضور الجماهيري في ملاعب بطولة امريكا لكرة القدم يفوق الحضور الجماهيري في ملاعب البطولتين الألمانية والإنجليزية مجتمعةً! علما أن هاتين البطولتين هما الأكثر استقطاباً للجماهير إلى الملاعب الرياضية على الصعيد الأوروبي، وحتى أبني هذا الإدعاء على حجج قوية حول الحضور الجماهيري الأسطوري داخل الملاعب في أمريكا، فإن هذه الفضاءات تمتلئ عن آخرها حتى ولو لم يَضمن الفريق التأهل للأدوار ما قبل النهائية أو النهائية، فيحافظ ملعبه رغم ذلك على نفس الحضور الجماهيري، رغم أن أثمنة التذاكر لا تتأثر بهذا الإقصاء.

ملاعب كرة القدم الأمريكية هي ملاعب عملاقة، أصغرها هو ملعب "غرين باي باكرز" الذي يتسع ل 60,790 متفرجاً ، وأكبرها ملعب "واشنطن ريدسكينز" الذي يتسع ل 80,116 متفرجاً، ويصل متوسط الحضور الجماهيري لكل البطولة إلى أكثر من 66ألف متفرج للمقابلة الواحدة .في حين أن متوسط الحضور للجمهور في ملاعب البطولة الألمانية لكرة القدم العادية هو 42,907 أفراد للمقابلة الواحدة، بينما في البطولة الإنجليزية فالرقم هو 36,533 فرداً كمتوسط الحضور الجماهيري للمباراة الواحدة.

إن عدم معرفة قوانين لعبة كرة القدم الامريكية يجعل منها لعبة تافهة ومملة، إلا أن الإطلاع على تلك القوانين والإلمام بطريقة تباري الفرق، سيبرر لا محالة كل هذا الحضور

الجماهيري الأسطوري إلى الملاعب، و هذا الزخم الإعلامي الذي يرافق كل مباراة من المباريات التي لا تعرف القسمة على اثنين، بل تفرز دائما منتصراً ومنهزماً، كما أن المباريات لا تتأثر بسوء أحوال الطقس، ككرة القدم العادية التي يمكن أن يوقفها الحكم لهذا السبب، أما كرة القدم الأمريكية، فقد أجريت بعض من مبارياتها في أقسى الأحوال الجوية، كمباراة فريقي "غرين باي" و"سان فرانسيسكو" في الرابع من سبتمبر 2014 التي تم إجراؤها رغم وصول درجة الحرارة إلى29C- ، ومع هبوب الرياح فإن درجة الحرارة تصل إلى46C- !!، هذه البرودة القاسية لم تمنع الجماهير من ملء كل مدرجات الملعب.!

يصل ثمن العقد الذي وقعه اللاعب "جاي كاتلر" مع فريق "شيكاغو بيرز" إلى 17,5 مليون دولار، كأجر سنوي، رغم أن مدة الدوري تتراوح بين 13 و 17أسبوعاً فقط، بمعدل مباراة واحدة كل أسبوع، وهذا اللاعب هو المكلف بإرسال الكرة نحو المهاجمين حيث لا يتعدى معدل ركضه في رقعة الملعب طوال المباراة أقل من كيلومترين فقط، فهل من مقارنة بين هذا اللاعب واللاعب ميسي الذي يلعب على مدار العام تقريبا مباراتين في الأسبوع بمعدل ركض يصل إلى11 كيلومترا في المباراة الواحدة ؟!

تجرى قبل المباراة النهائية التي تسمى "السوبر بول" مقابلة استعراضية بين نجوم الشرق و نجوم الغرب، ورغم أنها مباراة شكلية واستعراضية، يلعبها هؤلاء النجوم ببرودة، فهي تفوق الكلاسيكو الإسباني في أثمنة التذاكر وفي الحضور الجماهيري الذي لا يقل دائما عن 55 ألف متفرج، رغم إجرائها دائما في مكان بعيد هو "هونولولو" عاصمة هاواي، أما المباراة النهائية التي تجري بين بطل الشرق وبطل الغرب، فهي مقابلة أسطورية بكل المقاييس، وصلت التذاكر العادية في آخر لقاء لها في الأول من فبراير 2015 بين "نيو إنغلاند باتريوت" و"سياتل سيهاوك" إلى 8500 دولار للمدرجات العادية و 50,000دولار للأماكن الراقية في الحزام بين مدرجات الطابق الأول والثاني !! وهي أثمنة رسمية ليومين قبل اللقاء، أملاها

الارتفاع الهائل للطلب على التذاكر، وقد عاين برنامج أعدته قناة رياضية متخصصة أفراداً من جماهير واشنطن سياتل يبحثون في الشوارع عن من يبيعهم التذاكر بعد نفاذها في الأنترنيت، وكل هذه الإثارة تحدث في غياب أي خروج للجماهير عن دائرة الروح الرياضية للمسابقات، لكون كرة القدم الأمريكية، كما قلت هي عند الأمريكيين وسيلة ترفيه وتسلية، ومتنفس بعد عمل أيام الأسبوع، إلى درجة أن المقابلة النهائية للعبة التي تقام في أول يوم أحد من شهر فبراير، قد تحول يومها لدى كل الأمريكيين إلى عيد سمي بـ "يوم السوبر باول" حيث تستأثر هذه المقابلة باهتمامهم، فإلى جانب كونها مباراة تحمل كل ألوان الإثارة والتشويق، فهي كذلك مناسبة للمّ شمل العائلة والأصدقاء في المنزل أو المطعم وللاستمتاع بمشاهدة هذه المباراة المثيرة التي لا تتكرر إلا مرة كل سنة.

والملاحظ كذلك بخصوص هذه الرياضة طوال الأربعة أشهر التي يستغرقها الدوري في السنة، أنه مع حلول كل يوم سبت وأحد كموعدين لإجراء مقابلات الدوريين الجامعي والإحترافي في نفس اللعبة، تثير الإنتباه ظاهرة ارتداء الجمهور لقمصان مختلف الفرق المتبارية، وهذه الموضة لا تقتصر فقط على الأشخاص الذين يقصدون ملعب التّباري، بل تشمل كذلك حتى أولئك الذين يحبّذون مشاهدة المقابلة في المطاعم والبارات، والذين يودّون مشاهدتها في منازلهم، فالكل يرتدي قميص فريقه المفضل! وقد عاينت هذه الظاهرة الأخيرة بحكم طبيعة عملي كسائق توصيل، حيث تزداد وتيرة العمل عند كل لقاء، فبمجرد أن يفتح الزبون باب منزله، أتفاجئ بالكم الهائل من الأفراد من معارفه وأصدقائه أو زملاء عمله، يرتدون قمصاناً مختلفة للفرق المتبارية، وهذا هو الأمر الغريب، حيث إن صاحب الشقة وضيوفه لا يوحدهم الولاء لفريق واحد، لهذا فكل يرتدي فانيلة فريقه المتعاطف معه، فهم غرباء عن بعضهم بعضاً، جاءوا جميعهاً من ولايات مختلفة، لتجمعهم ظروف العمل في مكان واحد، وطبيعي أن يحتفظ كل منهم بالولاء لنادي الولاية حيث أتى، وحتى الزوج والزوجة، قد لا يجمعهما التعاطف والإنحياز لنفس الفريق، ورغم ذلك، فكل الجمهور يتعامل

مع اللقاء كلعبة شطرنج، يشاهدونه بحماس وأعصاب متوترة، فينتهي كل شيء بنهاية المقابلة التي تفرز غالباً ومغلوباً، فيتبادل هذا الجمهور فيما بينه التهاني بكل روح رياضية، في انتظار لقاء آخر يجمع نفس الفريقين قد تنقلب فيه الموازين، فيصبح الغالب في آخر مرة مغلوبا في المرة اللاحقة.

إن ظاهرة ارتداء قمصان الفرق أو النوادي المفضلة، ليست بطبيعة الحال حكرا على الجمهور الرياضي الأمريكي، بل هي ظاهرة منتشرة لدى كل الجماهير في العالم، بما فيها المغربية، وتمثل بلدتي "ملاعب" أنموذجاً مصغرا لهذه الظاهرة في المغرب، ففي هذه البلدة، وخلال فترة نهاية التسعينيات حتى بداية الألفية الثانية، كان مألوفاً مشاهدة العديد من الفتيان والشبان يرتدون كموضة قمصان فريق الرجاء البيضاوي الذي تألق في تلك الفترة التي أشرف عليه خلالها المدرب الأرجنتيني قنّاص الألقاب "أوسكار فيلوني"، بعدها بدأت ظاهرة جديدة تستأثر باهتمامي بخصوص ارتداء قمصان النوادي الرياضية، حيث لاحظت في السنوات الأخيرة هوس شباب المنطقة بارتداء قمصان قطبي الكرة الإسبانية برشلونة ومدريد، والجديد في هذه الظاهرة هي امتدادها إلى الأطفال الصغار وحتى اليافعين الذين لم يتخلصوا بعد من أسنان الحليب! والمفارقة العجيبة بين ارتداء الفرد في أمريكا والمغرب لقميص ناديّهما المفضلين، هو أن الفرد الأمريكي يقتصر ارتداؤه لقميص ناديه على يوم المباراة فقط، أما في المغرب، فيرتدي الفرد هذا القميص في مناسبة وغير مناسبة، فهو إذ يعبر بقميصه عن اعتزازه بناديه، فتراه في نفس الوقت يتخذه بيجاما للنوم! .

قمصان الغريمين الإسبانيين منتشرة إذن في بلدة "ملاعب"، إلى درجة أن أحد السياح الإسبان انتبه وهو في أحد مقاهي البلدة إلى مجموعة من الأطفال يرجون سخاءه أن أغلبهم يرتدي قمصان البارصا، فاختار منهم أحد عشر فردا، فصورهم بعدما قام بترتيبهم وتصفيفهم على شاكلة الفرق الرسمية عندما تريد التقاط صور تذكارية لها، والغريب في الأمر أن هذا

الفريق مكون في معظمه من لاعبين بقمصان تحمل رقم عشرة الخاص باللاعب "ميسي"، ولا غرابة في ذلك ف"ميسي" هو نجم فريق البارصا و منقذها في أحلك الفترات، فبديهي إذن أن تنتشر قمصانه بين هؤلاء المعجبين به، فلو كانت الصلاة مقبولة بالوكالة لدخل "ميسي" الجنة من بابها الواسع بغير حساب، بسبب وجود الملايين من القمصان التي تحمل اسمه و تؤدي الصلاة نيابة عنه، داخل المساجد وخارجها في كل الدول الإسلامية، بشكل لا ينافسه في تلك الظاهرة إلا "رونالدو" نجم الريال.!!

إن ارتداء الفرد لقميص البارصا أو الريال، ليس اعتباطيا أو عشوائيا، بل تمليه ظروف ومواقف معينة على كل فرد، فلبلدة "ملاعب" التي أعتبرها دائما أنموذجاً للدراسة، لها جالية معتبرة في إسبانيا، أغلبهم يقيم ويعمل في مدينة برشلونة، ومن البديهي أن يتعاطف هؤلاء المهاجرون مع نادي المدينة حيث يعملون، ويمتد هذا التعاطف إلى أفراد عوائلهم من الذكور في المغرب، أما الشباب الذين كان يحلمون بالهجرة إلى إسبانيا فلم يحالفهم الحظ في ذلك رغم محاولاتهم الكثيرة، فقد أصبحوا متعاطفين مع الريال، ليس حباً في هذا الريال، بل كرها بالبارصا ! فحب الشخص للريال هو نوع من التعبير عن الحسد تجاه من حالفهم الحظ في الوصول إلى إسبانيا والإقامة في برشلونة، فيعبّر هذا الحسد عن نفسه في اختيار غريم البارصا لتشجيعه، وهذه القاعدة ليست مطلقة، حيث قد يكون هناك مثلا شاب يقيم في برشلونة، لكن أخاه في المغرب مدريدي حتى النخاع، وهذا الموقف لا يحمل سوى تفسير واحد، وهو أن الشخص المدريدي في المغرب أحسّ -أو هكذا يظن- أن أخاه المهاجر في برشلونة لم يبذل قصارى جهده في مساعدته بالهجرة إلى حيث هو، أو أن هذا الأخ ليس سخياً معه بما فيه الكفاية، فاختار الإنتقام منه بتشجيع النادي الذي هو غريم نادي أخيه المقيم في إسبانيا، كشكل من أشكال التعبير عن عدم رضاه بهذا الأخ.!!

إنّ من بين الأمور الأخرى التي تعتبر جديدة في البلدة بخصوص هذه الظاهرة، هي المتابعة الواسعة التي امتدت لتشمل كل الإعمار للناديين الإسبانيين في مسيرتهما الكروية، سواء بالكؤوس الأوروبية أو بالبطولة الإسبانية، وتزداد المتابعة في مباريات الكلاسيكو بينهما، حيث لا حديث يعلو بين أفراد هذا الجمهور المريض بالكرة فوق الحديث الخاص بهذه المبارة والتي يتم تناول حيثياتها بالتحاليل، والتنبؤات، والنقاش المستفيض، حتى قبل حلول أجلها بأسابيع .وقد شاءت الصدفة يوما أن أكون في البلدة في عطلة شهر رمضان، وفي منتصفه حلّ موعد هذا الكلاسيكو الإسباني المثير، والذي زاده إثارة هو ذلك الحماس وتلك النقاشات حامية الوطيس بين أنصار الفريقين في البلدة، ولطالما تمنيت حضور مثل تلك اللحظة، لحظة تزامن الكلاسيكو الإسباني مع صلاة العشاء في رمضان المبارك، لأقيس بها حجم الرياء في نفوس مرتادي المساجد، والذين تمتلئ بهم هذه المساجد في موعد صلاة التراويح، التي تنافس صلاة الجمعة من حيث جموع المصلين .ففي تلك الليلة، وقبيل بداية اللقاء الكروي، مررت بدراجتي الهوائية للتجسس على مسجدي "إغرم" والمسجد "الجديد" لأرى بعيني أي المصلين أحسن عملا، فكان الحضور للصلاة كما عاينته من العجزة وبعض الشباب الذين لا تستهويهم أصلاً كرة القدم!، أذهب بعدها لتفقد حالة المقاهي الأربعة في البلدة، حيث يتكرر المشهد نفسه داخلها. امتلأت الكراسي التي تم حجزها منذ صلاة العصر! فيما استعان باقي المتفرجين بصناديق المشروبات، بل منهم من أتى بكرسيه الخاص من منزله ! في حين فضل بعضهم مشاهدة المباراة وقوفاً طوال تسعين دقيقة .الحناجر التي كانت تصدح ليلة أمس بتلاوة القرآن في المسجد، أصبحت مبحوحة إبان هذه المباراة جراء كثرة الصياح بترديد اسمي رونالدو وميسي !. كنت جالساً في زاوية خلف المقهى أراقب هذا الموقف الذي لم أعتد عليه من قبل في البلدة، فكانت عيني لا تخطئ جمهور كل نادٍ من الغريمين وذلك من خلال القمصان التي يرتدونها، والتي إن لم تكن بيضاء فهي بنفسجية زرقاء، مكتوب عليها اسمي رونالدو وميسي كما توجد ايضا بعض القمصان الاخرى بأسماء مثل إنيستا، تشابي، وبيبي...

تبدأ المباراة على رقعة الملعب، وتبدأ معها مباراة أخرى بين جمهور الغريمين في المقهى. الكل يحلل وينتقد على هواه، فبعد كل صافرة حكم تشير إلى مخالفة أو شرود، يبدأ السب والشتم في حقه، أصاب أو أخطأ، انحاز أو عدل، إنه التعصب الكروي الأعمى الذي بدأ ينقرض بين الجماهير الرياضية في الدول الغربية وبقي شبابنا وفياً له !!.فقد تبادلوا أمامي الكلام البذيء بكل ألوانه، وتشابكوا بالأيدي، والتحموا بالأجساد، فكُسرت كؤوس وقوارير. وتبادل البعض الوعيد إلى ما بعد المباراة!

ما إن أعلن الحكم عن نهاية الشوط الأول حتى انصرفت الجموع إلى الساحة خلف المقهى، يعاودون شحن ايمانهم المستنفذ! ولتبدأ الجموع بأداء صلاة العشاء والتي أقامها المؤمنون فُرادى بسورتي الإخلاص والكوثر، وغيرها من قِصَر السور، فصلاة الجماعة بطيئة، والبطء ممنوع في تلك اللحظة، والغريب أن منهم من صلى بالتيمم، ومنهم من صلى بوضوء المغرب، وعجيب أمر هذا الوضوء الذي صمد شوطا من مباراة مجنونة، حيث تنقبض على إثره عضلات "الإسْت" مع محاولة مرتدة للفريق الخصم، وترتخي مع كل محاولة في اتجاه مرمى هذا الخصم ! أوليس هذا الإرتخاء نذير خروج ريح ولو لم يشعر به صاحبه، والذي به يفسد الوضوء!؟ المهم أن الصلاة تمت، ودعاء الجمهور للفريقين الغريمين رُفِع إلى نفس الإله، فيبتهل البعض رافعا يديه إلى السماء أن يحالف الحظ رونالدو في التسجيل ولو بهدف شارد، وآخر بجانبه يدعو للبارصا بالإنتصار ولو بضربة جزاء خيالية يسجلها البرغوث "ميسي" بنجاح!

إنتهت المقابلة بالتعادل هدفين لكل فريق في مرمى خصمه، فتبادل لاعبو الفريقين التحية، كما تعانق اللاعبون بكل روح رياضية، أما هذا الجمهور الذي أمامي والموبوء بجنون الكرة،

فقد بدأ شوطا ثالثا للمباراة بتبادل الإتهامات فيما بينه، بعضهم يسب الحكم الذي تغاضى في نظره عن إعلان خطأ واضح، وآخر يلوم العارضة التي نابت عن الحارس، أو بطء لاعب في التمرير لزميله الذي كان في وضع مثالي للتسجيل. أمّا الفائز الحقيقي في المباراة، فهم أرباب المقاهي، الذين استفادوا ماديا من وراء هذه المقابلة، أما أنا، فلا أنسى فضل هذه المباراة عليّ، حيث وفرت عليّ نصائح المنافقين الذين ينصحونني مرارا بأداء صلاة التراويح بكل ركعاتها وبأداء الجماعة في المسجد، حيث انتهزت الفرصة لأطوف عليهم واحدا واحدا إبان المباراة، أهمس في آذانهم أنّ عليهم أن يوفروا نصائحهم لأنفسهم في المرة المقبلة .ولحسن حظ هؤلاء أن الكلاسيكو لم يصادف ليلة القدر بلقاء مصيري، ينتهي وقته الأصلي بالتعادل، يحتكم على إثره الفريقان إلى الأشواط الإضافية ثم الضربات الترجيحية، حينها سيستيقظ "غول" النفاق والرياء في قلوب العديدين منهم، خصوصا الذين سيستبدلون الاعتكاف في المسجد بالإعتكاف أمام شاشة التلفاز، في ليلة هي خير من ألف شهر.

* * * * *

تعتبر اللقاءات الكروية المنقولة عبر شاشة التلفزيون، خصوصاً لقاءات النخبة الوطنية منها، واحدة من فرصنا نحن المهاجرين في أمريكا للقاء مجددا في المقهى بعد طول غياب، نطلق العنان للاستمتاع بتلك اللحظات العابرة، حيث الحشود المغربية داخل المقهى تشعرنا وكأننا نتابع تلك المباريات من داخل أحد مقاهي "حي السلام" في مكناس كما كنا نفعل بالأمس يوم كنّا طلبة جامعيين في تلك المدينة. نعيش على إثرها لحظات كاذبة، لأننا نحن المهاجرين غالباً ما تستهوي قلوبنا تلك الأجواء القريبة والمألوفة في الديار، ولأنها تعيننا على تخفيف عبء الغربة عنّا .فإلى جانب اجتماعات المقهى إبان أي نزال كروي، فإننا نقوم أحيانا أخرى بتنظيم مقابلات كروية فيما بيننا في إحدى الملاعب الراقية المنتشرة في الأحياء، ورغم قلة المباريات التي أحضرها في السنة والتي لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، لضيق

الوقت بسبب كثرة العمل وكثرة الأعباء العائلية، إلا أنها تجعلني أعيش أجواء رائعة تمكنني من اللقاء بعد طول فراق مع أصدقائي الذين فرقتني عنهم ظروف العمل، ويكون العزاب منا نحن المهاجرين أكثر مداومة على ممارسة تلك اللعبة، إذ يمارسونها مرة على الأقل كل أسبوع، في حين نفضل نحن المتزوجين الهروب من روتين العمل شبه اليومي بتنظيم رحلات "شواء" إلى إحدى حدائق ومنتزهات المنطقة، وهي منتزهات عديدة ونموذجية، والتي من خلالها نعيش أجواء رائعة، نمنح من خلالها أطفالنا الصغار فرصة اللقاء مع أقرانهم في الهواء الطلق بعيداً من سجن جدران البيت.

وهكذا كنا نبحث دائما عن معالم تذكرنا بما ألفناه ونشأنا عليه في الديار من ذكريات الطفولة البريئة ولقاءات الأهل والأحبة عند كل مناسبة، فحتى في عملي كسائق توصيل فلا وجود لشيء يخفف عني من وطأة الغربة سوى الموسيقى التي أشغلها داخل السيارة بصوت مزعج يصمّ الآذان لفنانين من البلدة وجوارها. موسيقى أسمعها بخشوع شديد ولا أملّ من تكرار سماع نفس الأغنية مئات المرّات، خصوصاً أغاني "تامديازت" و"أحيدوس" . ومع مرور الوقت، يتضح لي بجلاء أن ما يربطني ببلدتي في الديار يصعب نسيانه، كما يصعب عليّ التخلي عن التفكير في تلك البلدة لشدة حبي لها، ومع مرور الوقت كذلك، بدأت أعي أن هذا الحب المقرون بالحرمان لا يزيدني إلا تعلقاً بهذه المحبوبة " بلدتي" إلى درجة أصبح معها كل الأمل الذي أعيش من أجله في المهجر هو متى يحين من جديد موعد الذهاب لزيارتها، كأمل صغير، حيث يسكن وجداني أمل أكبر وهو العودة للإستقرار بصفة نهائية فيها، لأن الحياة قصيرة وفرصتي في هذه الحياة لا تتكرر، فأظنني على حق إن جعلت كل أملي في العيش فوق أرض أعشقها وتحت سماء يرتاح فيها فؤادي. وفي انتظار تحقق ذلك، فإنني أعيش على بعض من لحظات الوهم القريب من الحقيقة، سواء في المقهى أو في رحلات المنتزهات، أو في أي مكان آخر قد يقترب في أجوائه ممّا ألفته في الديار.

عندما يراود مسامعي وجود مكان هنا في أمريكا يكون قريبا من ما هو مألوف عندنا في الديار، فإنني لا أتردد في البحث عن ذلك المكان لزيارته، فقد حدث يوما أن حدثني صديق هنا عن وجود "حمّام بلدي" كالذي في الديار، فراق لي الخبر بعدما خلت هذا المرفق العمومي قد انقرض هنا كما انقرض ماسحو الأحذية وبائعو السجائر بالتقسيط في الشارع العام!!. فـ" الحمّام" كمكان يُحتمل أن يخرج منه الناس عراة في حالة الرعب المفاجئ !و كما قيل لي، فقد حدث ذلك طبعا في بلدتي "ملاعب" ذات يوم، حيث خرجت النسوة من حمام البلدة عاريات في واضح النهار بعدما سمعن دوي انفجار في غرفة التسخين!. شهود عيان على تلك الواقعة وعلى قلتّهم عندما يستحضرون تفاصيل تلك الحادثة فيما بعد أمام من لم تسنح لهم الفرصة لحضور وقائعها، تتمطّق ألسِنة المستمعين أسى على غيابهم يومها، ويرددون بحسرة "يا ليتنا حضرنا هذا المشهد !" فحنينهم إلى مشاهدة أثداء وأرداف النسوة في وضح النهار في الشارع العام، أنساهم ما قد يصابون به من إحباط وإحراج بسبب أن تكون أمهاتهم أو أخواتهم بطلات هذا المشهد الذي أُرغمت فيه المستحمّات على ارتكاب جنحة "الإخلال العلني بالحياء" !

إنه" الحمّام"، المرفق الذي يئسنا من وجوده في أمريكا سنين طوال، لنكتشف وجوده بالصدفة وبشكل أرقى في خدماته عما هو متعارف عليه في الديار، فقصدناه نحن الثلاثة "أنا"، "مصطفى" ، و"عبدو" في شهر رمضان، ساعتين قبل أذان المغرب حتى يتزامن خروجنا منه مع الإفطار.

يوجد الحمام الذي قصدناه في ضاحية مدينة "الاسكندرية"، وهو في هندسته مقسم إلى قسمين، قسم خاص بالنساء وآخر خاص بالرجال على غرار بعض الحمامات التقليدية في الديار، والحمام كان يديره مهاجر من أقصى شرق آسيا، باعتبار أن المهاجرين المنحدرين من تلك البقاع من الأرض هم من يحتكرون صالونات الصونا والتجميل والماساج في أمريكا.

ومن مميزات هذا الحمام، أناقته وكذلك عدم حاجة زبونه إلى اصطحاب الفوطة ومواد التنظيف أو أي شيء من هذا القبيل وهو في طريقه إلى هذا المرفق، فكل شيء موجود بعين المكان، وتذكرة الدخول تشمل الإستفادة من كل تلك الأكسسوارات!.

تحملنا نحن الثلاثة عناء السفر أربعة عشر كيلومتراً لننعم بحمّام بلدي في بلد عصري، فما إن وصلنا، حتى استقبلنا صاحب الحمّام وزوجته، فسألناهما عن ثمن التذكرة والذي حدده بخمسة عشر دولاراً، وما إن بدأنا في إخراج محافظ النقود من جيوبنا، حتى صفعنا صاحب الحمام بملحوظة لم تكن في الحسبان، لأنه اعتاد مرارا وتكرارا على استقبال زبائن محافظين من طينتنا فعادوا الكرّة من حيث أتوا دون أن يستحموا بعدما علموا بالشرط التعجيزي للدخول، وهو استحالة دخول هذا الحمّام دون الكشف الكُلِّي عن عوراتهم كما ولدتهم أمهاتهم.!

تبادلنا نحن الثلاثة نظرات الاستغراب، ورغم ذلك، فلم نقطع الأمل باليأس، إذ سألناه مجددا : "فقط خرقة صغيرة ومهملة أمام حجم الجسم في منتصف هذا الجسم !" أجاب المالك بإيماءة بالرأس تشير إلى الرفض، وأمام إلحاحنا، لم يملك إلا أن أمرنا بإلقاء نظرة داخل الحمّام للتأكد من العري المطلق للزبائن، وهو ما استجبنا له، فدخلنا نحن الثلاثة لنقف أمام أجساد آدمية عارية إلا مما كسى عظامها من لحم وشحم. أجسام من مختلف الأحجام والأشكال ! وحتى الألوان ! –اللهم إنا صائمون– والمحظوظ من هؤلاء العراة –في نظرنا طبعاً– هو من لم يتخلص بعد من فروة قرد "داروين" بعد مرور أزمنة سحيقة من التطور!

في طريق خروجنا نحو الباب الخارجي، إستقبلنا المالك من جديد في قاعة الإستقبال بنصف ابتسامة فهمنا من خلالها أن لا أمل في الدخول إلا بعورة مكشوفة، وأي عورة سأملك بعدما تُكشف تضاريسها أمام مرآى "عبدو" و"مصطفى"؟ !قبح الله الحداثة والإنفتاح والعصرنة!. وحتى لا نظلم صاحب الحمّام، فهو على حق في إصراره على ضرورة

دخولنا إلى حمّامه عراة إسوة بباقي زبائنه تحقيقاً للعدالة، ونبذاً للنرجسية، فلا يعقل أن يستمتع من عينه غير بريئة بمؤخرات من يقف أمامه من المستحمّين، دون أن يمنح نفس الفرصة لمن يقف وراءه كي يرى في مؤخرته ما يراه هو في مؤخرة من هم أمامه!.

بعد خروجنا من الحمام، وفي باحته الخارجية قررنا أن ندخله تباعاً، فأن تُكشف عوراتنا فرادى وأمام الغرباء، خير لنا من أن تكشف أمام بعضنا بعضاً، إلا أنّ ضيق الوقت واقتراب موعد الفطور عجل بنا لنفكر جديًّا في تعويض الحمّام بالذهاب إلى المسبح التابع للتجزئة السكنية حيث يسكن "عبدو"، فاستحسنا الفكرة وأنا في قرارة نفسي قطعت وعدا بالعودة إلى هذا الحمّام بمفردي، فالويل لي إن اختمرت في أذهان الصديقين الآخرين نفس الفكرة لتشاءِ الصدف وتجمعنا في نفس الزمان ونفس الزمان.!



محمد برشي

في يوم الأربعاء الموافق لثالث يناير 1979 ولد الكاتب محمد برشي في بلدة ملاعب التابعة إداريا لإقليم الراشيدية في الجنوب الشرقي للمغرب، تابع دراسته الإبتدائية بمدرسة إبن عبّاد في نفس البلدة قبل أن يستأنف دراسته الإعدادية بثانوية الحسن الثاني في ميدلت، ثم التحق بالثانوية التي تحمل نفس الإسم في تنجداد، ومنها حصل على شهادة الباكالوريا في العلوم التجريبية، بعدها شدّ الرحال نحو مدينة مكناس لمتابعة دراسته بكلية الحقوق، ومنها حصل على الإجازة في القانون العام شعبة العلاقات الدولية، ولم تمهله قرعة اليانصيب الأمريكية للحصول على البطاقة الخضراء للإقامة الدائمة في أمريكا سوى أسابيع قليلة من حصوله على الإجازة، ليسافر إلى أمريكا للعمل هناك، و بالضبط إلى مدينة ارلينغتون، على تخوم العاصمة واشنطن حيث يقيم إلى الآن.

اربعة وعشرون عاماً مرت كلمح بالبصر، غدت كلّها الآن مجرد ذكريات في خبر كان، وأصبحت في تلك اللحظة أدرك قيمة نصائح "أمبارك" صيدلاني البلدة التي كنت أعاملها باللامبالاة، كان المسكين جدّيا عندما يلح عليّ كلّما مررت بصيدليته أن أعمل إحساناً لنفسي، بأن أطيل النظر في جدران بنيان بلدتي، أن ألمس الحجر والشجر لمسة الوداع الذي قد يكون لا قدّر الله الوداع الأخير، كما يلحّ علي أن أمارس "يوغا" التأمل أمام برجي القصر القديم لأشبع من مشاهدته، كان جدّيا في النّصح، وأقابل جديته باستهجان واستخفاف، وأخبره أنني شبعت من هذه البلدة منذ زمن .

الآن، وفي هذا المكان حيث أنا، تيقنت من حكمة "أمبارك" الذي خمّن صعوبة ما ينتظرني في الغربة فأصاب في تخمينه، وهو من لم يجرب قط غربة الأقطار النائية، في هذا المكان بالذات حيث أنا، وفي هذا المازق النّفسي الذي أعيشه، تمنيت لو تعود عجلة التاريخ إلى الوراء، أعمل بنصح "أمبارك"، أتأمل في الإنسان والحيوان والجماد، ألمس التراب والحجر بخشوع عبدة الأوثان أمام أصنامهم!. وأمام استحالة عودة الزمان إلى نقطة الصفر، لم يبق لي إلاّ أن أستسلم للأمر الواقع، أنتظر ما قد يسفر عنه الغد من مفاجآت.

للتواصل مع الكاتب :

Sphinser@gmail.com

Facebook.com/mohamed.berchi